الجمهـــــوريـــة الجـــزائرية الديمقـــراطيـــة الشعبيـــة

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الحاج لخضر –باتنة1 -

كلية: اللغة و الأدب العربي و الفنون

قسم: اللغة و الأدب العربي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم

بعنوان:

الخطاب الإصلاحي في فكر عبد الحميد بن باديس

مقاربة تداولية

التخصص: علوم اللسان العربي

إنجاز الطالبة:

ليندة قياس

إشراف الأستاذ الدكتور:

علي منصوري

الاسم والقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
لبوخ بوجملين	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة 1	رئيسا
علي منصوري	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة 2	مشرفا
جودي مرداسي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة 1	عضوا
ابتسام بن خراف	أستاذ محاضر أ	جامعة باتنة 1	عضوا
رشيد حليم	أستاذ التعليم العالي	جامعة الطارف	عضوا
جلال خشاب	أستاذ محاضر أ	جامعة سوق اهراس	عضوا

مُقَدِّمَةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل علينا القرآن هدى ونورا وشفاء لما في الصدور، وصلّ اللهم وسلم وبارك على الحبيب المصطفى الصادق الوعد الأمين المبعوث رحمة للعالمين، بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه، وسراجا منيرا أما بعد:

اتّجهت الدراسات اللسانية منذ منتصف القرن العشرين إلى زعزعة بعض المبادئ والمفاهيم السوسيرية التي تربعت على عرش الدراسات اللغوية ردحا من الزمن، وقصرت نظرتها على مبدأ لطالما تردّد ذكره في ثنايا البحوث والدراسات اللغوية؛ "**دراسة اللغة لذاتها و لأجل ذاتها**".

غير أن التطور السريع والمتزايد في مجال البحث اللساني أثبت عجز هذا النمط من التحليل عن تقديم تفسير مقبول للخطاب، و تأويله تأويلا يتناسب ومقاصد المتكلم، والطبقات المقامية المختلفة التي أنتج فيها الكلام.

ومن هنا أصبح التحول في مسار النظرية اللسانية ضرورة لا مناص منها، وقد تمخض عن هذه الرؤية الجديدة في النظر إلى اللغة، وطريقة مقاربتها فرع معرفي جديد أطلق عليه الباحثون اسم Pragmatics بالانجليزية وقد قوبل هذا المصطلح في ثقافتنا العربية بمقابلات كثيرة أهمها : علم التخاطب، النفعية، البراجماتية، التداوليات، علم استعمال اللغة، و أشهرها مصطلح التداولية أو التداوليات وهو مصطلح اختاره الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن سنة 1970 بعد نظرات ثاقبة، وتأملات عميقة للموروث الثقافي العربي الأصيل.

ويسعى هذا الفرع اللساني إلى استثمار نتائج مختلف العلوم والمعارف للإجابة عن كثير من الإشكالات والمسائل اللغوية العالقة التي عجزت النظريات الشكلية عن الإجابة عنها.

وتهتم التداولية عموما بدراسة الاستعمال الفعلي للغة في إطار سياق معين، وعلاقة اللغة بمستعمليها وكيفية التأثير في المتلقين، كما تعنى بالكشف عن المقاصد الحقيقية للمتكلم و أهداف الخطاب.

ويرتكز التحليل التداولي على مبادئ إجرائية نذكر منها: الأفعال الكلامية، الاستلزام الحواري، الافتراض المسبق، الإشاريات، وهذه المبادئ يعتمد عليها القارئ في فك شفرات الخطاب وفهمه فهما صحيحا.

وبما أن هذا الوافد الجديد قد استقطب اهتمام الدارسين من مختلف أنحاء العالم، فإنني حاولت وبرؤية مزدوجة تجمع بين ما أبدعه الفكر الغربي وما توصّل إليه الباحثون العرب القدامى والمحدثين تقديم قراءة للخطاب تكون أكثر عمقا وثراء.

ومبرر اختياري للخطاب الإصلاحي عند ابن باديس يعود بالدرجة الأولى إلى توفره على كثير من الخصائص التداولية التي تجعل منه حقلا خصبا للتحليل التداولي، لأن لغته أقرب إلى اللغة العادية أو المتداولة، وهذا النوع من التواصل اللغوي حظي باهتمام فلاسفة اللغة وعلى رأسهم فيتجانشتاين **Wittgenstein** صاحب اتجاه " فلسفة اللغة العادية".

ومن هذا المنظور يمكننا أن نتعامل مع المضامين الإصلاحية على أنّها بنى لغوية تنطوي على وظائف تداولية، ومعاني سياقية تحيل إلى مرجعيات متعددة (دينية، اجتماعية، سياسية، ثقافية...)، فقد كانت لغة ابن باديس وظيفية تداولية بالدرجة الأولى اتّخذها وسيلة لتغيير واقع مجتمعه والتأثير فيه، حيث تمتزج فيها الحجج النقلية بالعقلية، ويمتزج فيها المنطق الصائب والرأي السديد بألوان البيان والبديع والاستعارات الحجاجية من دون تكلّف، مما يدل على مدى كفاءته التداولية .

زيادة على ذلك فإن لغته أيضا تتميز بجودة السبك، وحسن التركيب، وبراعة النظم و التأليف رغم بساطة أساليبها، كما تخلو عباراتها من الغموض والتعقيد، وقد جمع فيها بين رغبة التغيير ودقّة التصوير مراعيا أقدار المخاطبين، فكلامه يأسر القلوب ويشدّ العقول لما ينطوي عليه من سحر وجمال وبيان، وكونه يعد رائدا من رواد النهضة الحديثة في الجزائر فلا يسقط اسمه عند ذكر رواد الإصلاح في الوطن العربي جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا... ومن هذا المنطلق ارتأيت أن أقارب بعض مبادئ التحليل التداولي لإضاءة جوانب من الخطاب الإصلاحي عنده.

وتشتمل المدونة ستة أجزاء، وجمع الدكتور عمار طالبي هذه الآثار وشاركه عبد الرحمن دويب الباحث الجزائري المختص في شؤون التراث في جمع الجزئين الخامس والسادس، بما عثر عليه من

مقالات، وما زاد من شرف هذه الأعمال أن خطّ لها مالك بني نبي سطور المقدمة، حيث كتبها باللّغة الفرنسية ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللغة العربية.

وكما ذكر عمار طالبي في مقدمة هذه المدونة فإن :" هذه الأجزاء الستة تشتمل على تـــراث ابـــن باديس من تفسير وحديث وفقه ومقالات اجتماعية وتربوية وسياسية، تمثّل جهاده في سبيل الإســـلام والعربية..."[1].

وما يلاحظ أن هذه الأجزاء الستة تدور حول محور واحد و هو الإصلاح الحضاري الذي تتـــوزع فروعه على الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي، واعتمدت منهجا استقرائيا لدراسة بعض النماذج وبسط النتائج المستخلصة منها على كل المدونة، ومبرّر ذلك هو رحابة المدونة من ناحية، ومن ناحيـــة أخرى هي أن الموضوعات التي طرقها ابن باديس تغرض إلى موضع كلي واحد.

ويسعى الموضوع الموسوم بـــ " الخطاب الإصلاحي في فكر عبد الحميد بن باديس مقاربة تداولية" الإجابة عن إشكالية رئيسية تتمثل في: ما مدى نجاعة هذا الإجـــراء التداولي في مقاربة بنية الخطـــاب الإصلاحي عند ابن باديس؟ وكيف يمكن استثمار مبادئه في فك شفرات هذه المضامين وقراءتها ضـــمن سياقاتها التي أنتجت فيها؟

وتتفرع عن هذه الإشكالية الرئيسية الإشكالات الفرعية الآتية :

- ✓ ما مفهوم الخطاب الإصلاحي؟ ولماذا اعتمد ابن باديس الإصلاح بجوانبه المختلفـــة ســـبيلا لنهضة المجتمع الجزائري؟
- ✓ ما هي الخصائص التداولية التي تميز الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس عن باقي خطابات رواد الإصلاح في العالم العربي؟
- ✓ ولماذا عدت التداولية فتحا جديدا في البحث اللغوي المعاصر؟
- ✓ ما هي الآليات اللغوية التي اعتمدها ابن باديس في التأثير على المتلقي واستمالته؟
- ✓ كيف أسهمت الإشاريات .بمختلف أصنافها في تحقيق انسجام بنية الخطاب الإصلاحي؟
- ✓ لماذا تعددت الأفعال الكلامية في الخطاب الإصلاحي؟ وما دلالة هذا التعدد؟

---

[1] عبد الحميد بن باديس: عبد الحميد باديس حياته وآثاره، إعداد وتصنيف عمار طالبي، دار كردادة للنشر والتوزيع الجزائر ، طبعة خاصة ، 2013، مج1، ص8

- ✓ ما هي الاستراتيجيات الخطابية المختلفة التي اعتمدها ابن باديس في توجيه خطابه للتأثير على المتلقي؟
- ✓ كيف أسهم السياق في فتح مغاليق هذه النصوص واستجلاء كنهها؟

وتسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1- ضرورة لفت أنظار الباحثين إلى أن تراث ابن باديس مازال يحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب لما يتميز به من أصالة فكر، وعمق في التأمل، ولما تحمله خطاباته من بذور التغيير والتجديد التي يمكن استحضارها في كل زمان.

2- تعريف القارئ العربي بقيمة هذه الشخصية، وأن مكانة ابن باديس العظيمة وأعماله الجليلة في ميدان الإصلاح لا تقلّ أهمية عمّا قدّمه رواد الإصلاح في العالم ككل، يقول مبارك الميلي : "...وقد لاحظت أن رد فعل الأصدقاء العرب كان دائما واحدا كيف لا تعرفون بمثل هذه الشخصية؟ لماذا لم تنشروا كتاباته؟ لماذا لم تعرفونا به؟ لماذا لم تنشئوا جائزة باسمه؟ لماذا لم تعملوا على تعريف الناشئة به...".[1]

3- محاولة التوفيق بين ما توصل إليه الباحثون العرب وبين ما أبدعه الفكر الغربي من تصورات ومفاهيم لسانية وتداولية لتقديم قراءة مغايرة لهذا الموروث العربي الأصيل .

4- إثراء المكتبة الجزائرية بمثل هذه الدراسات المتعلقة بالدراسة التداولية للخطاب الإصلاحي، لأن معظم البحوث التي انصبت حول فكر ابن باديس كانت تعنى أكثر بالتركيز على جوانب من حياته والأسس التي يقوم عليها مشروعه الإصلاحي، ومن ثمة فهو لم يحظ بدراسة أكاديمية متخصصة في مجال البحث اللساني عموما والتداولية على وجه الخصوص حسب ما اطلعت عليه من دراسات و بحوث في هذا المجال، ما عدا دراسة للباحث **عباس حشاني** والموسومة بـ"خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي " وقد تركزت دراسته على البحث في قضايا الحجاج بالدرجة الأولى، حيث خصص الفصل الأول من دراسته للبحث في إرهاصات البحث الحجاجي ومصطلحاته في البلاغة، وعالج في الفصل الثاني علاقة الحجاج بالتداولية، وتطرق في الفصل الثالث إلى دراسة الحجاج في النثر البادیسي، أما الفصل الرابع والأخير فقد تناول فيه الحجاج في الشعر البادیسي، و لم يتطرق لموضوع

[1] مبارك الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، دار الكتاب العربي الجزائر ، ط1 ، 2012، ص19.

الإشاريات وعناصر السياق ووظائف الخطاب عند رومان جاكبسون وهذه الجوانب التي أهملها كانت من صميم دراستي التداولية .

وقمت بتحليل بنية الخطاب الإصلاحي باعتباره حدثا اتصاليا بتقسيمه إلى مدخل نظري وثلاثة فصول تطبيقية، وذيلت كل ذلك بخاتمة لخّصت فيها أهم النتائج المتوصل إليها، ومن ثمة كانت خطة البحث كالتالي:

مقدمة، يعقبها مدخل موسوم بـ " **تداولية الخطاب الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس تحديدات أولية ومنطلقات منهجية**"، عالجت فيه مفهوم الخطاب في الثقافة العربية والغربية وعلاقة الخطاب بالنص ، ومفهوم الخطاب الإصلاحي ثم تطرقت للحديث عن أهم الخصائص التداولية التي يتميز بها الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس .

وتطرقت في الفصل الأول الموسوم بـ " **التداولية بين التأسيس الغربي والتلقي العربي**" إلى نشأة التداولية، وأهم روادها ومبادئها الإجرائية، و أبرزت أهم الإسهامات العربية القديمة والحديثة في مجال البحث التداولي.

أما الفصل الثاني والموسوم بـ " **الإشاريات في الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس** "فقد تناولت فيه بالتفصيل مفهوم الإشاريات، و حددت مختلف الأصناف الإشارية التي تتوفر عليها هذه المدونة وهي الإشاريات الشخصية والمكانية والزمانية والخطابية والاجتماعية.

و درست في **الفصل الثالث** الموسوم بـ **"ضروب الأفعال الكلامية في الخطاب الإصلاحي دراسة وفق نموذج سورل"** الأفعال الكلامية وفق نموذج سورل الذي قسمها إلى: إخباريات، وتعهديات، ووعديات، وتعبيريات، وتوجيهات، واخترت نموذج سورل على وجه التحديد لأنّه هو الذي طوّر هذه النظرية بعد أستاذه أوستين.

وعالجت في الفصل الرابع والموسوم بـ :" عناصر **السياق ووظائف الخطاب في الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس"** تجليات عناصر السياق في المدونة من خلال حضور المرسل والمرسل إليه والرسالة ،ثم قمت بإسقاط الترسمية التواصلية لرومان جاكسبون على بنية الخطاب الإصلاحي للكشف عن نسبة تواتر هذه الوظائف في المضامين الإصلاحية.

و اقتضت طبيعة هذه الدراسة الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي لتقديم توطئة نظرية تتعلق بالجهاز المفاهيمي للدرس التداولي، فكان الوصف ملائما لإبراز أهمية **الإجراء التداولي** في مقاربة بنية الخطابات عموما، وإبراز مكانة التداولية على خارطة البحث اللساني على وجه الخصوص، أما التحليل فقد انتخبته تداوليا لفك شفرات المضامين الإصلاحية واستجلاء الدلالات المستعصية فيها بغية التعرف أكثر على مقاصد المتكلم، وبما أن هذه المضامين تتوفر على الكثير من الخصائص التداولية، فهذا ما يضفي عليها صفة الديمومة والاستمرارية والخلود، فهي صالحة لأن تقرأ في كل زمان ومكان لما تتضمنه من أفكار سامية وقيم إنسانية خالدة.

كما استعنت في هذه الدراسة بمجموعة من المصادر والمراجع أهمها: طه عبد الرحمن (تجديد المنهج في تقويم التراث) و(اللسان والميزان أو التكوثر العقلي) و(في أصول الحوار وتجديد علم الكلام)، ومحمود عكاشة (البراجماتية اللسانية) وكتاب (في بلاغة الخطاب وعلم النص) لصلاح فضل، و(مدخل الى اللسانيات التداولية) لجيلالي دلاش، و(المحاورة مقاربة تداولية)لحسن بدوح، و(آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر) لمحمود أحمد نحلة، و(الاتّجاه التداولي و الوظيفي في الدرس اللغوي) لنادية رمضان النجار، و(مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب) لمحمد محمد علي يونس، و(التداوليات علم استعمال اللغة) لحافظ اسماعيلي العلوي، ومحمد مفتاح (دينامية النص)، ومن المراجع الأجنبية (نظرية الأفعال الكلامية العامة) لجون أوستين، و(العقل واللغة والمجتمع) لجون سيرل ، و(التداولية) لجورج يول ، و(التداولية من أوستين إلى غوفمان) لفيليب بلانشيه ، و(التداولية اليوم علم جديد في التواصل) لآن روبول و جاك موشلار، وفراسواز أرمنيكو (المقاربة التداولية) وجان ماري فيري (فلسفة التواصل)، وجون ميشال غوفار(تحليل الشعر)و غيرهما من المراجع العربية والأجنبية.

وفي الختام أتقدم بالشكر الجزيل **للمولى عز وجل**، الذي أعانني ووفقني لإتمام هذا العمل المتواضع ،ثم الشكر موصول للأستاذ المشرف الأستاذ الدكتور **علي منصوري** الذي تعهّد هذا العمل منذ أن كان بذرة إلى أن استوى وآتى ثمره، فقد كان نِعْمَ العون ونِعْمَ المشرف والموجه ، فجزاه الله عني خير الجزاء، وجعل ذلك كله في ميزان حسناته، وأصلح له شأنه في الدنيا والآخرة.

و الشكر كذلك موصول إلى **أعضاء لجنة المناقشة** على تحملها عناء قراءة وتصويب هذا العمـــل ، ورفع مستواه بالنقد والتوجيه، فجزاهم الله خير جزاء وجعلهم جميعا في عليين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

مدخل

تداولية الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس
تحديدات أولية ومنطلقات منهجية

أولا– الخطاب في الثقافة العربية.

1- الخطاب في المعاجم العربية القديمة والحديثة.

2- الخطاب في القرآن الكريم.

3- الخطاب في الوعي البياني الأصول.

ثانيا– أصول الخطاب في الدراسات الغربيـــة.

ثالثا– مفهوم الخطاب في الدرس اللساني الحديث.

رابعا– الخطاب وعلاقته بالنص.

خامسا– أنواع الخطـــاب.

الخلاصـــة

توطئة :

قبل فك شفرات الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس وفض أنسجته اللغوية المتشابكة، للبحث عن الدلالات المتخفية وراء هذا الستار اللغوي الجاهز من أجل مقاربته مقاربة تداولية، أرى أنه من الأولى تحديد مفاهيم بعض المصطلحات التي تتأسس عليها هذه الدراسة – وذلك وفق ما تقتضيه منهجية البحوث الأكاديمية .

وسأقف تحديدا عند مفهوم الخطاب في الثقافتين العربية والغربية، والمسار التحولي لمفهوم الخطاب في الدرس اللساني الحديث، ليفضي بنا ذلك للحديث عن أنواع الخطاب، وسينصب جهدي على تحديد نوع من هذه الأنواع وهو الخطاب الإصلاحي مفهومه، أشهر رواد الإصلاح في المشرق العربي ومغربه، والخصائص التداولية للخطاب الإصلاحي عند ابن باديس.

وبادئ ذي بدء أشير إلى أن مصطلح **الخطاب Discours** يتردد في ساحة الدراسات الأدبية والنقدية مقترنا بمصطلحات أخرى مجاورة له مثل :النص Texte، الملفوظ énoncé التلفظ énonciation وتندرج كلها ضمن ما يعرف ب: لسانيات الخطاب أو تحليل الخطاب أو لسانيات النص... .

ومما لا شك فيه أن عملية نقل وترجمة المصطلح في ميدان اللسانيات وغيرها من الميادين تتّسم بالفوضى والتداخل، نتيجة عدم التدقيق والتمحيص عند وضع المقابل العربي الأنسب، وهذا ما يفضي إلى تعدد المقابلات العربية الكثيرة للمصطلح الأجنبي الواحد .

حيث أسالت هذه القضية الكثير من الحبر وخاض غمار مناقشتها العديد من الباحثين ومن بينهم السعيد بوطاجين الذي يقول في هذا الشأن: "وقد تجلّى ذلك في مستويات استقبال المصطلح وتذبذبه...الذي ظلّ بحاجة إلى تأثيث يستدعي الإلمام باللغة المهاجرة واللغة المهاجر إليها؛ اللغة العربية واللغات الأخرى التي نتعامل معها..." .[1]

[1]- السعيد بوطاجين: الترجمة والمصطلح دراسة في إشكالية ترجمة المصطلح النقدي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 ، 2009، ص 09.

وبما أن المصطلح يحتل موقعا مركزيا في أي مجال من مجالات المعرفة الإنسانية فإن:« ... انتماء المصطلح إلى حقل معرفي محدّد، يترتب عليه أن ينتظم في علاقة جدل خصبة، كونه منتجا للمعرفة من جهة، وخاضعا لأطرها العامة الموجهة من جهة أخرى، وكل هذا يكشف الأهمية المعرفية، للوقوف على ممارسات المصطلح، بغية ضبط شكله ومفهومه ».[1]

يرصد هذا القول خاصيتين للمصطلح، الأولى وهي أن المصطلح منتج للمعرفة لأن لا سبيل للولوج إلى أي حقل معرفي إلاّ من خلال تحديد مدلول دوال هذه المصطلحات، والثانية أن كلّ حقل معرفي يمتلك منظومة اصطلاحية تخضع لأطر ثقافية وحضارية محددة.

وفي الحقيقة إن المصطلح لا يكون منتجا للمعرفة إلا إذا قامت الجهات المختصة بـــ« تدعيم القدرات المعرفية لدى الباحث العربي في أي حقل من حقول إنتاج المعرفة »[2].

وانطلاقا من هذه التصورات فإن الوقوف عند مفهوم المصطلح، وتحديد مختلف دلالاته، وشروط توظيفه داخل مجال معرفي معين، وضبط إشكالية نقله إذا كان دخيلا، يُمَكّنُ أي باحث أو دارس من فهم أساسيات العلوم، ورسم الحدود الفارقة بينها.

ومن هنا تأتي أهمية تحديد مصطلح الخطاب في:

1- الثقافة العربية.

2- أصول الخطاب في الدراسات الغربية.

3- مفهوم الخطاب الدرس اللساني الحديث.

أولا- الخطاب في الثقـــافة العربية:

1- الخطاب في المعاجم العربية (القديمة والحديثة):

الخطاب مادة لغوية على وزن " فِعال " مشتقة من الجذر اللغوي " خطب ":

1- عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات المعرفة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص 95.

2- أحمد حساني: المصطلح في الثقافة اللسانية العربية المعاصرة، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية، جامعة باجي مختار، عنابة، 2006، ص34.

يقول **ابن منظور** (ت711ه) في هذا الشأن « و الخِطَابُ والمُخَاطَبَةُ: مُرَاجَعَةُ الكَلَامِ، وَقَدْ خَاطَبَهُ بِالكَلَامِ مُخَاطَبَة، وَخِطَابًا، وَهُمَا يَتَخَاطَبَانِ (...) والخُطْبَةُ مَصْدَرُ الخَطِيبِ، وَخَطَبَ الخَاطِبُ عَلَى المِنْبَرِ، واخْتَطَبَ يَخْطُبُ خطَابَةً، واخْتَطَبَ يَخْطُبُ خطَابَةً، واسْمُ الكَلَامِ: الخطبة (...) وذهب أبو إسحاق إلى أن الخُطْبَةَ عِنْدَ العَرَبِ: الكَلَامُ المَنْثُورُ المُسَجَّعُ ، وَنَحْوَهُ. التهذيب : والخُطْبَةُ، مثل الرِسَالَةِ التي لها أول وآخر ...»[1].

وهذا يستلزم أن الخطاب هو الكلام الموجه نحو الآخرين بنية التأثير فيهم، ويمكن أن يطلق عليه المحادثة أو المحاورة و التي تفرض وجود شركاء في الخطاب.

ويذكر الفيروز أبادي (ت817ه) أن « الخَطْبُ :الشَأْنُ. والأَمْرُ صَغُرَ أَوْ عَظُمَ .ج خُطُوب. وخَطَبَ المَرْأَةُ خِطْباً و خِطْبَةً...وهو خَطَبَهَا...وخَطَبَ الخَاطِبُ عَلَى المنبر خَطَابَةً، بالفتح، وخُطْبَةٌ، بالضم، وذلك الكلام: خطبة أيضا، أو هي الكلام المنثور المسجع ونحوه. ورجل خَطِيبٌ: حسن الخُطْبَة ، بالضم ...».[2]

نستنتج من التعريفات السابقة أن مادة "خطب" تحيل على مدلولات متعددة بتعدد السياقات التي ترد فيها فنجد:

1- **الخِطَابُ** أو **المُخَاطَبَةُ**: وتعني مراجعة الكلام، فـــ" مخاطبة "على وزن مفاعلة وتفيد الاشتراك[3]. مما يقتضي وجود طرفي الخطاب (لحظة إنتاجه) فتحدث بذلك المواجهة بالكلام.

2- **الخُطْبَةُ**: بضم الخاء وتعني الكلام المنثور والمسجع، فهي تشير إلى جنس أدبي يتأسس على المشافهة.

3- **الخِطْبَةُ**: بكسر الخاء وتعني طلب المرأة للزواج.

4- **الخَطْبُ**: بفتح الخاء وجمعه خطوب، وتعني الحدث أو الشأن وقد يكون يسيرا أو عظيما.

1- أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر بيروت، ط1، د ت، مج5، (مادة خطب)، ص 98.

2- مجيد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم الشيرازي الفيروز أبادي: القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1999، ج1، ص83.

3- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2002، ص 16و 17.

ويشير الدارسون إلى أن هناك تلازما دلاليا بين الدوال المشار إليها أعلاه، إذ أن الخطب بفتح الخاء هو الأمر العظيم شديد الهول الذي يقتضي لحظة وقوعه خطبة أو خطابا يتم تداوله لمواجهة النوازل التي تصيب الجموع، للتأثير في عقولهم واستمالة عواطفهم ودفعهم إلى العمل فالخطابة أو الخطبة هي فن مواجهة الخطوب، أما الخطبة بكسر الخاء والتي تعني طلب الزواج فإن المقام يستدعي أيضا خطبة لأن الخاطب يحاول استمالة وليُّ المرأة بكلام مؤثِّر ومقنع حتى يستحق الزواج منها، باعتبار أن الخطبة هي فن القول المؤثر، والمؤسس على الإقناع وتوجيه إرادة المخاطبين.[1]

وما أخلص إليه من الطرح السابق أن مادة (خطب) في الوعي اللغوي العربي تحيل على الكلام المؤثر والمقنع، والذي يهدف إلى استمالة الطرف الموجه إليه الخطاب.

أما ما يتميز به الخطاب عن الخُطبة في العصر الحديث أن الخُطبة أضيق والخطاب أوسع وأشمل لأنه يرتبط بالمضمون أو المحتوى فنقول الخطاب السياسي الرأسمالي أو الخطاب العربي أو الخطاب الإسلامي[2].

وهذا التصور يفضي بنا للحديث عن مفهوم الخطاب في المعاجم العربية الحديثة، فقد ورد في معجم **النفائس الكبير** أن مصطلح " الخطاب "مشتق من مادة خطب وتعني"...خَطَبَ المرأة خِطْباً وخِطْبَةٌ ...دَعَاهَا إلى التَزَوُجِ و- على المنبر خَطَابَةٌ وخُطْبَةٌ: وَعَظَ فَهُوَ خَاطِبٌ و-قَرَأَ الخَطْبَةَ على من حضر...خَاطَبَهُ بِالكَلَامِ مُخَاطَبَةً وخِطَابَا:كالمه وراجعه الكلام... الخَطْبُ: الشأن و- الأمر، صغر أو عظم، ومنه: هذا خَطْبٌ يَسِير وخَطْبٌ جليل..." .[3]

يتّصل الخطاب بمفهوم الكلام اتّصالا مباشرا ، ويعني المحادثة التي تستوجب وجود طرفين أو أكثر أثناء عملية التلفظ، ونلاحظ أن صاحب معجم النفائس اكتفى بما قدّمه اللغويون القدامى من

1- عبد الواسع الحميري: الخطاب والنص (المفهوم، العلاقة، السلطة)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،لبنان، ط1، 2008، ص 13، 14.

2- محمد العمري: دائرة الحوار ومزالق العنف (كشف أساليب الإعنات والمغالطة مساهمة في تخليق الخطاب)، إفريقيا الشرق، المغرب ،ط1، 2002، ص36.

3- أحمد أبو قحافة وآخرون: معجم النفائس الكبير، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1،2007، ص516-517. وانظر أيضا أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008، ص259.

تحديدات للخطاب، و لم ينظر إلى مختلف التطورات التي لحقت هذا المصطلح في الدرس اللساني وتحديدا عند الغربيين.

فمادة " خَطَبَ " حيثما وردت في تضاعيف المعاجم العربية القديمة أو الحديثة، إنّما تحيل على الأصل الذي ينحدر منه الخطاب وهو " الكلام "، مما يدلّ على أن الكلام يتّصل بالمشافهة.

ولا شك أن مصطلح الخطاب في العصر الحديث يتضمّن شحنات دلالية جديدة وذلك بتأثير مباشر من الثقافة الغربية، فأصبح الخطاب من منظور كثير من الدارسين العرب المحدثين يُعَرَّفُ على أنّه ملفوظ طويل أو سلسلة مترابطة من الجمل، ومنهم من يرى أنّه كتلة نطقية أو وحدة تواصلية إلى غير ذلك من التعريفات المستمدة من عند الغربيين التي لم تشر إليها بعض المعاجم العربية الحديثة، حيث ظلت متمسكةً بالمفاهيم التراثية القديمة، ولا ندري إن كان ذلك تعصبا منهم للتراث أم لغياب هذه المفاهيم عن أذهانهم.

2- الخطاب في القرآن الكريم:

أما عن حضور المصطلح في الخطاب الديني فقد تردد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وبصيغ متعددة، ومن الآيات التي تضمنتها قوله تعالى:﴿ **وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**﴾[المؤمنون:27].

وقد حملت صيغة الفعل "ولا تخاطبني" دلالة الكلام.

3- الخطاب في الوعي البياني الأصولي:

حدَّد بعض علماء الأصول مفهوم الخطاب حتى يكون واضحا في الأذهان، وقد أورد **الزركشي** (ت 745ه) في هذا السياق بأن :« الخِطَابَ عَرَفَهُ المتَقَدّمُونَ بأَنَّهُ الكَلَامُ المَقْصُود مِنْهُ إِفْهَام مَنْ هُوَ مُتَهَيِءُ لِلْفَهْمِ»[1].

يفهم من تحديد الزركشي لدلالة الخطاب، بأنّه كل كلام موجّه نحو الآخرين قصد الإفهام، والكلام الذي يقصد منه الإفهام يتأسس على الوضوح والبيان وعدم اللبس، فالخطاب بوصفه فعلا

1- بدر الدين الزركشي: البحر المحيط في أصول الفقه، قام بتحريره عبد القادر عبد الله العاني وراجعه عمر سليمان الأشقر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، ط2، 1992، ج1، ص126.

تواصليا تبليغيا غرضه في الدرس اللساني إفهام من هو متهيئ لفهمه، وهذا الفعل التواصلي يفرض لحظة إنتاجه مرسل ذي نية للإفهام ومتلقٍ متهيئ للفهم، وهذا ما يتقاطع مع تحديدات الغربيين له في العصر الحديث .

والغرض من تعامل الأصوليين مع الخطاب القرآني هو استنباط الأدّلة للوصول للحكم الشرعي، وقد تميزت مباحثهم واجتهاداتهم بالنظرة العلمية الثاقبة، وحبّ التعمّق والتفقه في القضايا اللغوية التي لها صلة بالخطاب الديني، ونقصد بذلك النحو والصرف والبلاغة ... .

حيث تناولوا بالدراسة « كثيرا من أبواب الصرف والنحو والبلاغة وفقه اللغة بما يفيض عن حاجتهم في أكثر الأحيان ».[1]

إن انشغال علماء الأصول على مباحث اللغة العربية، واستخدامها كإجراءات مساعدة لفهم الخطاب الشرعي وتحليله أشبه ما تكون بإجراءات التحليل النصي Analyse Textuelle المعاصر الذي يسعى إلى تحليل بنية الخطاب انطلاقا من تحليل مستوياته الصوتية والصرفية والتركيبية، وصولا إلى تحليل مستوياته الدلالية والتداولية.[2]

بهذه النظرة الثاقبة تعامل الأصوليون مع الخطاب الشرعي على أنّه وحدة لغوية تتسم بالانسجام والترابط، ويرتكز تحليل هذه البنية انطلاقا من تحليل النظام الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي والتداولي، ويمكن أن أدمج هذه الجوانب المختلفة من التحليل في المستويين الآتيين :

المستوى البنوي: الذي يشكل النسق الداخلي الذي يتجلّى فيه تماسك الوحدات الصغرى المشكّلة لبنية الخطاب، بما هي نسيج متشابك يخفي وراءه الكثير من الدلالات والإيحاءات ومقاصد المتكلم.

المستوى التداولي: ونعني به ارتباط هذا البناء بسياق معين ويهدف إلى إفادة المخاطب غرضا ما.

1- الطيب دبه: تحليل الخطاب وأزمة المعنى عند الأصوليين، منشورات تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، العدد 8، 2011، ص11.

2- المرجع نفسه، ص ن.

ومن هذا المنطلق يمكن التعامل مع حقل علم الأصول على أنه المجال الحيوي الذي ساعد على تبلور هذا المصطلح، وترسيخ مفهومه في ثقافتنا العربية بوجه عام وفي الوعي البياني العربي بوجه خاص.

وتظل اجتهادات علماء الأصول عبارة عن إسهامات قيّمة وجادة لا يستهان بها في هذا المجال.

وما أخلص إليه مما سلف أن مصطلح **الخطاب** في تراثنا العربي لا يكتنفه الغموض أو اللبس إذ تتفق تصورات الدارسين على أن الخطاب يتأسس على المشافهة، لأنّه يحيل على الكلام المنطوق الذي يقتضي لحظة إنجازه وجود شركاء في الخطاب (مخاطِب ومخاطَب) ولفظ خطاب يندرج في سياق معين.

أما عند الغربيين فإن مصطلح **Discours** يحمل شحنات دلالية أخرى بما يتفق والبنية الثقافية للمجتمع الغربي، وهذه التحديدات تختلف نسبيا عن التحديدات اللغوية العربية له، إذ أن المطّلع على القواميس الفرنسية والإنجليزية يجد أن « لفظ Discours لم يكن متصلا باللغة اتصالا مباشرا»[1].

وهذا يستلزم تقصي دلالة الخطاب عند الغربيين.

ثانيا – أصول الخطاب في الدراسات الغربية

يشير المعجم الفرنسي إلى أن لفظ " **Discours** " يعود إلى الجذر اللاتيني **discurrere** بمعنى الجري هنا وهناك،[2] وهذه الدلالة ليست لها أيّ صلة بمفهوم الخطاب في العصر الحديث

أما لفظة Discoursus والتي ظهرت في القرن السابع عشر فقد دلت على معنى الخطاب.[3]

أما في العصر الحديث فقد اهتم الدارسون بخطابة أرسطو مدركين مدى أهميتها في بلورة القضايا المعاصرة، والتأثير في الرأي العام، وتوجيه سلوكه الوجهة المطلوبة، استنادا لمقولة **شوبنهور Schopenhauer** أن الخطابة " هي ملكة جعل الآخرين يشاركوننا آراءنا وطريقة تفكيرنا في شيء ما ... ويجب أن نصل إلى هذه النتيجة بغرس أفكارنا في أذهانهم بواسطة الكلمات، وذلك بقوة تجعل أفكارهم الخاصة تنصرف عن اتجاهها الأولي لتتبع أفكارنا التي ستقودها في مسارها "[4].

1- صابر محمود الحباشة: الأسلوبية والتداولية، مداخل لتحليل الخطاب، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010، ص 102.

2 -Carola strong et autres.Dictionnaire Hachette edition illustrée Paris 2009 p478.

3- صابر محمود الحباشة: الأسلوبية والتداولية، مداخل لتحليل الخطاب، ص 102. وانظر أيضا المعجم الفرنسي le petit Larousse 2003 paris p338.

4- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 13.

يؤكد آرثر شوبنهور في تعريفه السابق على أهمية الخطابة و مدى تأثيرها على الرأي العام ، فالخطابة هي فن القول المؤثر والمقنع الذي يهدف إلى استمالة الآخرين بشتى الوسائل، لتغيير نمط تفكيرهم فيسهل بذلك اقتيادهم إلى الوجهة المطلوبة.

وتشير كثير من الدراسات الحديثة إلى أن الفيلسوف الفرنسي بول ميشال فوكو **Paul Michel Foucault** كان له الفضل في حفر مفهوم دلالي لمصطلح الخطاب بما قدّمه من دراسات وأعمال متميزة.

وقد ألف ديان مكدونيل **Diane McDonnell** كتابا موسوما بـــ " مقدمة في نظريات الخطاب " بَحَثَ في الفصل الخامس منه حفريات المعرفة عند فوكو، حيث تناول فيه إشكالية الخطاب وعلاقته بالسلطة. [1]

أما فريدريك غرو **Frédéric Gros** فقد ألف كتابا موسوما بـــ " ميشال فوكو " استهله بتقديم معالم عن سيرة ميشال فوكو الذاتية، ثم خصّص الفصل الأول والثاني والثالث من الكتاب لدراسة ومناقشة أهم القضايا الفلسفية التي تناولها فوكو في كتاباته مثل (أركولوجيا العلوم الإنسانية، السلطة وكيفية الحكم، وممارسات إسباغ الطابع الذاتي ...).[2]

ويرى ميشال فوكو أن « وصف الخطاب يتعارض ومنهجية تاريخ الفكر. ففي هذا الأخير، لا نستطيع إعادة بناء منظومة فكرية ما إلا بالاعتماد على مجموعة من الخطابات، ويتم ذلك على نحو ما يكون الغرض منه هو العثور خلف العبارات نفسها على قصدية الذات المتكلمة، وعلى نشاطها الواعي، وما كانت ترغب في قوله، بل وعلى بعض التجليات اللاشعورية التي برزت إلى واضحة النهار، فيما قالته صراحة أو ضمنا، ومهما يكن من أمر، يتعلق الأمر في تاريخ الفكر بإعادة إنشاء خطاب جديد، وبالعثور على الكلام الأبكم الهامس الذي لا يتوقف ،... فتحليل الفكر هو دوما وباستمرار تحليل يسعى إلى البحث عن المعنى الحقيقي وراء المعنى المجازي ».[3]

1- ديان مكدونيل :مقدمة في نظريات الخطاب ،ترجمة وتقديم عز الدين اسماعيل ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، ط1، 2001، ص147.

2- فريدريك غرو: ميشال فوكو، ترجمة محمد وصفه مجد ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،لبنان،ط1، 2008، ص 159.

3- ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة سالم يافوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2005، ص 27.

فلا يرتكز الخطاب من منظور فوكو على مجرد وصف للوحدات اللسانية المشكلة لبنيته، وإنّما يتجاوز ذلك إلى البحث في الأنساق والسياقات المؤطرة له، والوقوف عند الدلالات غير المباشرة للعبارات، أي بمعنى آخر البحث عن مقاصد المتكلمين وفيما ترغب الذات المتكلمة الإفصاح عنه ، ولا يتأتى لنا ذلك إلا بفهم الخطابات اعتمادا على فهم المبادئ التداولية المختلفة التي ينتج فيها الكلام بوصفه خطابا.

والحفر في مفهوم الخطاب في الثقافة الغربية لم يكن حكرا على فوكو، بل تولدت جهود متتالية عكفت على تحديد مفهومه من منظور لساني تداولي، نذكر من بين هذه الجهود ما ذهب إليه **دومنيك مانقانو Dominique Mangueneau** في كتاب له موسوم بـــ (المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب) وكتاب آخر موسوم بـــ (تداولية من أجل الخطاب الأدبي)، وج .براون G. Brown وج.يول **G.yule** من خلال مؤلفهما المشترك (تحليل الخطاب)، و (معجم تحليل الخطاب) الذي ألفه باتريك شارودو **Patrick CHaraudeau** بمعية زميله دومنيك مانقانو، وغيرها من الدراسات التي تصب في هذا الميدان.

وقد تمكن الكثير من الباحثين العرب في مجال اللسانيات بكل فروعها من النهل من جهود هؤلاء الرواد في تحديد مفهوم الخطاب في الثقافة العربية المعاصرة، و تيسر لهم ذلك عن طريق الترجمة ونذكر من بينهم: محمد مفتاح (مشكاة المفاهيم)، محمد خطابي (لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب)، صلاح فضل (في بلاغة الخطاب وعلم النص)، أبو بكر العزاوي (الخطاب والحجاج)، عبد المالك مرتاض (تحليل الخطاب السردي) ،وغيرها كثير... .

وتنحو مدلولات هذا المصطلح في الثقافة الغربية المعاصرة منحيين رئيسيين يتمثل أولهما في المبحث اللغوي الأسلوبي المعروف بتحليل الخطاب وهذا النوع من الدراسة يتسم بالطابع اللساني المحض.

والثاني ببعض الاستعمالات في النقد ما بعد البنيوي، خاصة في التاريخانية الجديدة وما يعرف بالدراسات الثقافية [1] وهذا النوع من الدراسة يتسم بالطابع الأدبي.

وفي نطاق اهتمام اللسانيات بالفرضيات التي تتحكم في الظاهرة اللغوية باعتبارها خاصية إنسانية ووسيلة من أهم وسائل التواصل الاجتماعي، فقد سعت في الآونة الأخيرة إلى إخضاع هذه الفرضيات المصاغة للتساؤل حول ظاهرة " الخطاب وأسس تحليله "، مستعينة بما توصلت إليه العلوم الإنسانية وحتى التجريبية من نتائج في مجال تحليل الإنسان والمجتمع والتاريخ، فكانت اللسانيات الجسر الرابط بين هذه العلوم جميعها، وبما أن مشكلة الخطاب وتحليله شغلت حيزا كبيرا من مجال اهتمام اللسانيين منذ فرديناند دو دوسوسير **Ferdinand de Saussure** إلى الوقت الراهن، فإن هذه الرؤية تستدعي البحث في جذور الخطاب في الفكر اللساني الحديث.

ثالثا – مفهوم الخطاب في الدرس اللساني الحديث:

تعود جذور الخطاب* في الدرس اللساني الحديث إلى اللغوي السويسري " فرديناند دو سوسير" الذي يُعَدُّ مؤسس اللسانيات الحديثة بلا منازع.

ومن هذا المنطلق فرق هذا العالم السويسري بين لسانيات اللغة linguistique de la langue و لسانيات الكلام linguistique de la parole ،[2] وعَدَّ اللغة موضوعا للدرس اللساني في حين أخرج الكلام من دائرة الدراسة.

إن ما غَيَبَهُ دو سوسير عن مجال الدراسة صار محط اهتمام الدارسين من بعده، فعندما درس اللساني الفرنسي غوستاف غيوم **Gustave Guillaume** ثنائية اللغة **langue** مقابل الكلام **parole** عند سوسير، عوَّضَ هذا الأخير بمصطلح الخطاب discours لما يحمله مصطلح الكلام من

1- ميجان الرويلي وسعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب، ط4 ، 2005 ، ص 155.

*- دار جدال كبير بين الباحثين في السنوات الأخيرة عن مدى إدراك دو سوسير لمفهوم الخطاب، وأفضى بهم البحث إلى الاقتناع بمفهوم غياب الخطاب لديه، إما لجعل الخطاب مفهوما مرادفا للكلام وفي كلتا الحالتين كان دو سوسير مستبعدا الخطاب من مجال الدراسة في اللسانيات أو بدرجة أدق اللسانيات البنيوية، وإن كان دوسوسير يعتقد أن اللغة لا تتواجد إلا عن طريق الخطاب . انظر محمود طلحة: تداولية الخطاب السردي، دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط1، 2012، ص 19.

2-Ferdinand de Saussure cours de linguistique generale. Editions talantikit, Béjaia, 1994, p25.

معنى الاستعمال الشفاهي للغة لا الكتابي، فأصبحت الثنائية المشهورة عند غيوم هي اللغة مقابل الخطاب langue/discours ، لأن لفظ الخطاب يحمل الشحنة الدلالية نفسها لمصطلح الكلام. [1]

فالخطاب هو الاستعمال الفعلي للغة وفي الواقع أنه يخضع لقواعد وقوانين ذلك اللسان، وبما أنّ: «... اللغة بوصفها النظام السابق على الخطاب، فهي موجودة بالقوة،في حين أن الخطاب هو ما يوجدها بالفعل. وبالتالي يفرق في وضع العلامة اللسانية بين مستوى اللغة ومستوى الخطاب، إذ تكون العلامة اللسانية، في اللغة، دالا ذا مدلول واحد، في حين تتعدد مدلولاتها في مستوى الخطاب، لأنه ميدان استعمالها.".[2]

ما يفهم ممّا تقدم أن التحوّل في مسار النظرية اللسانية أدّى إلى تغير واضح في النظرة إلى اللغة ، فمن منظور بنيوي يلاحظ أن الهوة بين الدوال ومدلولاتها تضيق إلى الحد الذي تصبح فيه متطابقة إذ لا تحتمل أكثر من تأويل، ومع تطور النظريات اللسانية المعاصرة أصبح الخطاب مجالا خصبا للتحليل اللساني، بحيث كلّما اتّسعت فيه الهوة بين الدوال ومدلولاتها سمح ذلك بتعدد القراءات وتقبل مختلف التأويلات، فينفتح بذلك الخطاب على فضاءات متعددة، ويدرج ضمن ميادين وتخصصات مختلفة، فيصبح مفهومه انطلاقا من هذا التصور أعم وأشمل من مفهوم الكلام المباشر.

ويشير جون ديبوا **Jean Dubois** في قاموسه اللسانيات وعلوم اللغة إلى الجهود القيمة لهاريس **Zellig Harris** ومحاولته الجادة التي تهدف إلى ضرورة تجاوز الدراسة مستوى الجملة إلى النظر في العلاقات التوزيعية بين الجمل[3].

1- G. Sicouffi, D. Raemdonck: 100 fiches pour comprendre la linguistique, Bréal editions, 1999, P 78.

2- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا،ط1، 2004. ص37.

3-Jean Dubois et autres: Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, la rousse, 1994,p151.

ويتفق جون ديبوا مع باتريك شارودو ودومنيك مانقانو وغيرهم من الدارسين على الدور الرائد لزيليخ هاريس 1952 من خلال الدراسة القيمة التي قدّمها والموسومة بـــ" تحليل الخطاب l'Analyse du discours".[1]

ولأن هاريس تركز اهتمامه على النظر في العلاقات التوزيعية بين الجمل فإن دراسته لم تتخلص من القيود الشكلية الصارمة في تحليله للخطاب التي تعنى بتحليل ودراسة الوحدات الصرفية والتركيبية المشكلة لبنيته، دون النظر إلى جوانبه الدلالية والتداولية و"بذلك ظلت طريقة تحليل الخطاب عند هاريس وغيره من اللسانيين البنويين هي نفسها طريقة التحليل المطبقة في الجملة".[2] ومن ثمة عد تحوله هذا مجرد تحول شكلي ظاهري من وحدة صغرى تمثلها الجملة إلى وحدة كبرى يمثلها الخطاب ،وليس تحولا جوهريا يحيط بالظاهرة اللغوية ويدرسها من كل زواياها.

وفي الوقت الذي لقيت فيه آراء زيليخ هاريس الكثير من الشهرة والذيوع في الأوساط اللسانية في أمريكا، ظهر في فرنسا وتحديدا في الفترة الممتدة ما بين الخمسينات والسبعينات من القرن العشرين اللغوي الفرنسي إميل بنفينست **E.Benveniste** الذي استحدث تيارا لسانيا جديدا أطلق عليه اسم " اللسانيات التلفظية ".[3]

وفي الثمانينات من القرن العشرين بدا اهتمام الدارسين واضحا بما يعرف بالخطاب وتحليل الخطاب، وبناء على هذا يقر الباحث الفرنسي أوليفي روبول **Olivier Robol** أن مصطلح الخطاب في الوقت الحالي ينطوي على مدلولات عدة منها:[4]

1- Patrick Charaudeau et Dominique Maingueneau : dictionnaire d'analyse du discours Edition du Seuil, paris, p 185.

2 - بشير ابرير من لسانيات الجملة إلى علم النص مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية التواصل، جامعة باجي مختار عنابة الجزائر، جوان 2005، العدد14، ص66.

3- G. Siouffi, D. Van Reandanck, 100 fiches pour comprendre la linguistique, P 114 et 115.

« En France, il revient a Emile Benveniste d'avoir initie entre les années 50 et 70 un courant qu'on appellera plus tards linguistique de l'énonciation».

4- أوليفي روبول: لغة التربية تحليل الخطاب البيداغوجي، ترجمة عمر أوكان، افريقيا الشرق، المغرب، دط،2002 ، ص41و42.

1- المعنى الشائع: أن الخطاب تشكيلة من الجمل المترابطة والمنسجمة الصادرة عن شخص محدد ، ويعالج موضوعا محددا ، وقد يكون الخطاب منطوقا أو مكتوبا .

2- المعنى اللساني المختزل: ينظر إليه اللسانيون المعاصرون على أنه سلسلة من الجمل التي تشكل رسالة لها بداية ونهاية معينة، ومن منظور جون ديبوا فإن الخطاب قد يساوي الجملة أو يفوقها.

3- المعنى اللساني الموسع: تنظر اللسانيات إلى مصطلح الخطاب بمفهومه الواسع على أنه مجموعة مشتركة من الخطابات الصادرة عن نفس الجماعة اللغوية يسيرون وفق نظام لغوي مشترك.

ويبني **أوليفي روبول** مفهوما للخطاب انطلاقا من وجهات النظر المختلفة التي كانت سائدة آنذاك؛ إذ يعد الخطاب بالمعنى المتداول والشائع متتالية منسجمة من الجمل المنطوقة على حد تعبير **جون ليونز**، وهذا ما كان سائدا عند البنيويين بوجه عام ، أما من منظور جون ديبوا فإن الخطاب تشكيلة لغوية يفوق حدُّها حدُّ الجملة وقد تساويها، وهذا ما يجسد المعنى اللساني المختزل للخطاب، ويرمز الخطاب من المنظور اللساني الموَسِّع إلى مجموعة مشتركة من الخطابات التي يتم إنتاجها ضمن بيئة لغوية متجانسة ومشتركة.

وتشير الدراسات التي تمت مراكمتها في هذا المجال إلى أن عملية تحليل الخطاب يجب أن تتجاوز بنيته اللغوية الصرفة إلى البحث عن مقاصد المتكلمين، فيكون تحليل معاني العبارات والألفاظ رهين بتعيين أغراض المتكلم ومقاصده العامة من الخطاب، ومن ثمة بدا اهتمام اللسانيين واضحا بـــ: «دراسة استعمال اللغة».[1]

كما أن تحليل الخطاب يتعلق موضوعه "بدراسة الاستعمال الفعلي للغة من قبل ناطقين حقيقيين، في أوضاع حقيقية ».[2]

1-Jacques Moeschler et Anne Reboul ,Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, Editions du Seuil, Octobre1994 ,p17 .

2- دومنيك مانقانو :المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005، ص09,

وقد أورد في القاموس المشترك الذي ألفه بمعية باتريك شارودو ما يدعم هذا التوجه، بأن الخطاب ما هو إلاّ « استعمال اللغة في سياق معين ».[1]

ما نستخلصه من القول السابق هو مدى عناية الدارسين بالسياق أثناء تحليل الخطاب وخاصة في الآونة الأخيرة، فلا يمكن فهم الخطابات وتأويلها تأويلا مناسبا إلا بعد النظر في مختلف السياقات التي أسهمت في إنتاجها، وبروز هذا النوع من التحليل يرجع أساسا إلى انحسار التيار الشكلي الذي تعامل مع النصوص والخطابات على أنها بنى مغلقة لا علاقة لها بوقائع العالم الخارجي، مما أفضى إلى عدم الاهتمام بالنواحي التبليغية والتواصلية للغة، وقد تفطن بول غرايس **P. Grice** إلى أهمية تحليل السياق للوصول إلى مقاصد المتكلم فأشار إلى أن "للكلام دلالات غير ملفوظة يدركها المتحدث أو السامع دون علامة معلنة أو واضحة ومثال ذلك أن يقول شخص لآخر " ألا تزورني"؟ لا يفهم السامع من الجملة أنها سؤال، على الرغم من أن ذلك هو شكلها النحوي، وإنّما يفهم أنها دعوة للزيارة، وقد اتجه البحث فيما يعرف بتحليل الخطاب إلى استنباط القواعد التي تحكم هذه الاستدلالات أو التوقعات الدلالية ".[2]

يفهم من التحديد السابق أن ما يتلفظ به الإنسان من أقوال قد يحمل دلالة حرفية وهي الدلالة المباشرة التي يكشف عنها سياق التلفظ، ولكن هذه الدلالة الحرفية لا تعبّر أحيانا عن المقاصد الحقيقية للمتكلم أو ما تريد الذات المتكلمة الإفصاح عنه، مما يفرض على المستمع تحليل معاني العبارات وفك الرموز للوصول إلى الدلالات المستلزمة، فيصبح التواصل مع تحليل الخطاب لعبة للتفاعل والإبلاغ، ووسيلة نعول عليها لفك رموز الخطاب والتغلغل في أعماقه لاستجلاء الدلالات الكامنة فيه.

وعلى هذا الأساس يرى هايمس Haymes أنّه لابد للمتكلم من :"أن يحسن استعمال اللغة بكيفية مناسبة تتماشى والمقامات والأحوال المتنوعة".[3]

وما ذهب إليه هايمز لا يختلف عمّا أقره الدارسون العرب القدامى من ضرورة مراعاة المقام للمقام لإنجاح فعل التواصل، وفهم المقاصد الحقيقية للمتكلم .

1- Patrick Charaudeau et Dominique Maingueneau ,Dictionnaire d'analyse du discours p185.

2- ميجان الرويلي وسعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، ص 155.

3- دومينيك مانقانو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص21.

وانطلاقا من هذا التحديد الذي يتجلّى فيه الخطاب باعتباره وحدة تواصلية فإن ما يمكن ملاحظته أن هذا المصطلح يتماهى مع مصطلح آخر هو "النص"،[1] وهذا يحتم علي أن أقف عند حدود العلاقة بينهما لمحاولة الإجابة عن أسئلة كالآتي: ما طبيعة العلاقة التي تصل بينهما؟ وأيهما أشمل؟ وما موقف الدارسين من ذلك؟

رابعا– الخطاب وعلاقته بالنص:

ويمكن رصد الفرق بين الخطاب والنص من خلال الجدول الآتي[2]:

الخطاب	النص
– يفترض وجود مخاطب لحظة إنتاج الخطاب.	– يوجه النص إلى قارئ مؤجل.
– الخطاب يتأسس على المشافهة.	– النص يكون مكتوبا.
– الخطاب يفرض مستمعا لحظة إنجازه.	– النص له ديمومة الكتابة يقرأ في كل زمان ومكان.
– الخطاب محدود بالقناة النطقية.	– النص يستعمل نظاما خطيا.

أما جون ميشال آدام [J. M. Adam] فقد نظر إلى طبيعة العلاقة بينهما انطلاقا من المعادلة الآتية:[3]

النص = الخطاب – شروط الإنتاج. ⟸ الخطاب = النص + شروط الإنتاج.

تتفق تصورات بعض الدارسين على أن الخطاب يمثل الجانب المنطوق من الكلام وأن النص يمثل الجانب المكتوب منه، وبالرغم من هذا الاتّفاق فإن ما يلاحظ هو تعدد الآراء وتضاربها –في بعض

1- ابن منظور: لسان العرب، مادة [ن، ص، ص]، مج 14، ص 271.

تحمل دلالة "نص" اللغوية والمشتقة من الجذر اللغوي "نصص" مدلولات عدة نذكر منها:

– التوقيف والتعيين على شيء ما.

– بلوغ أقصى الشيء و منتهاه.

– الوضوح والظهور والتحريك، نص الشيء حركه.

– النصنصة: التحريك تحرك البعير، إذا نهض من الأرض.

2- بشير ابرير: من لسانيات الجملة إلى علم النص، ص93 (بتصرف).

3- J.M. Adam: Linguistique Textuelle des genres des discours aux textes, édition Nathan, Paris, 1999, P 39.

Texte = Discours – les conditions de production.

Discours = texte + les conditions de production.

الأحيان- حول طبيعة العلاقة التي تربط مصطلح الخطاب بالنص، فمن اللسانيين من يرى أن الخطاب أوسع من النص، ومنهم من يرى أن النص أوسع من الخطاب، إلا أن ما يجب الاعتراف به وإقراره، أن قضايا الخطاب والنص أصبحت جزءا لا يتجزأ من الواقع الفكري الراهن، وأن تحليل الخطاب أو تحليل النص يستعين بعلوم مختلفة وأدوات إجرائية متعددة، مما يمنح القارئ مشروعية القراءة والتأويل، خاصة وأن هذه المناهج الحداثية في مقاربة الخطابات جديرة بالإتباع لجدية أدواتها الإجرائية.

وعليه توجهت جهود كثير من الباحثين إلى العناية بتحليل الخطاب/النص وهذه المحاولات أخرجت الدراسات اللغوية من بوتقة التحليل البنيوي، لتتملص من دائرته الضيقة، فلم تعد اللغة مجرد بنية مغلقة قابلة للتمفصل إلى وحدات دنيا على- حد تعبير أندري مارتيني A. Martinet- ومن ثمة صار الاهتمام واضحا بفضاء رحب هو فضاء النص/أو الخطاب.

خامســـا_ أنواع الخطاب :

إن دعوات اللسانيين إلى ضرورة تجاوز حدّ الجملة إلى سبر أغوار الخطابات /النصوص أدّى إلى تحوّل واضح في مسار النظرية اللسانية، حيث أصبح الدارسون ينظرون إلى اللغة على أنّها وسيلة للتواصل والتفاعل والتأثير في الآخرين، وهذه النظرة الجديدة والمغايرة في التعامل مع اللغة جعلت فعل التخاطب يحظى باهتمام الدارسين من مختلف التخصصات.

وفي هذا السياق يؤكّد الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن أن "...موضوع التخاطب، في كلا وجهيه، التواصلي أو التبليغي والتعاملي أو التهذيبي، أخذ يشغل الباحثين من مختلف الآفاق العلمية، منطقيين ولسانيين وفلاسفة واجتماعيين ونفسانيين...كما يتولى فرع "التداوليات" من اللسانيات الحديثة النظر فيه لاختصاصه بدراسة الاستعمالات اللغوية في تعلقها بمقامات الكلام" [1]

وانطلاقا من هذه التصورات التي تعاملت مع الخطابات باعتبارها إنتاجية وفاعلية تواصلية فإنّها (أي الخطابات) " تتنوع بتنوع الطرق التي يتّخذها المتكلمون أو الكتاب كما تخضع لأطر ثقافية

1 – طه عبد الرحمن : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، دط، دت،ص237.

واجتماعية محددة، فتنتج بذلك أنواعا كثيرة من الخطابات، مثل الخطاب الديني والخطاب العلمي، والخطاب السياسي، والخطاب البيداغوجي ... ".[1]

ويتم التمييز بين هذه الأنواع بإعمال الفكر وإمعان النظر في العناصر التي تسهم بشكل مباشر في إدارة اللعبة الكلامية، كما أن مصطلح النوع يرتبط بأغراض الكاتب ومقاصده، ومع تعدد المقاصد تتعدد الأنواع، فلا يقتصر تحديد نوع الخطاب على النسيج اللغوي، إذ يلزم إلى جانب ذلك تحديد موضوعات النوع، والألفاظ المستخدمة في الخطاب وطرق توظيفها.[2]

يفهم من التحديد السابق أن ما ينطوي عليه الخطاب من أهداف ونوايا له تأثير مباشر على تحديد نوع الخطاب، فالبناء اللغوي وحده ليس كافيا لذلك. ومن هذا المنطلق نظر الدارسون إلى مقاصد المتكلم على أنّ لها أهمية كبرى في تفسير بنية النص واستجلاء مختلف الدلالات التي يتضمنها،كما أن لها دورا بارزا في تحديد نوع النص.

وفي هذا الإطار يشير دومينيك مانغانو إلى أن الخطاب قد تتسع دلالته ليشمل أنواعا كثيرة تتحدد هذه الأنواع حسب السياق الذي ترد فيه،ويذكر منها ما هو خبر عادي أو خبر ما في صحيفة أو ما يطلق عليه بـــ le fait divers أو مقالة افتتاحية l'éditorial والتقرير الطبي la consultation médicale، والاستجواب البوليسي l'interrogatoire-policier والإعلانات القصيرة les petites annonces والمحاضرة الجامعية la conférence universitaire ..[3].

---

[1] - نعمان بوقرة: المصطلح اللساني النصي، دراسة سياقية تأصيلية، أعمال ملتقى اللغة العربية والمصطلح، يومي 19-20ماي 2002، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة باجي مختار ، عنابة ، 2006،ص 235و236 .

[2] - حسام أحمد فرج : نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري ، مكتبة الآداب، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2007 ، ص 34.

[3] - Dominique Maingueneau : les Termes clés de l'analyse du discours ;Editions du Seuil, Février ,paris ,p44.

إذا كان دومينيك مانغانو يقسّم الخطاب إلى هذه الأنواع التي ترتبط بسياق لغوي وبيئي معين، فإن محمد الحداد [1] يقترح تقسيما مغايرا للخطاب العربي الحديث* انطلاقا من المراحل التاريخية الآتية:[2]

1- التراث النهضوي: وينقسم إلى حقلين خطابين : الخطاب الإصلاحي – الخطاب التحديثي ويشمل الخطاب الإصلاحي خطابات رواد الإصلاح في الوطن العربي مثل: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، محمد رشيد رضا أو كما أطلق عليهم الباحث ثالوث الإصلاح، أما الخطاب التحديثي فيشمل بحوث ودراسات تتعلق بـــ أحمد فارس الشدياق، وفرح أنطوان، وطه حسين.

2- التراث الثوري: وينقسم بدوره إلى حقلين خطابيين: الخطاب الأصولي – الخطاب العلماني – وبما أن دراستنا تنصب على الخطاب الإصلاحي [3] فإننا سنقف عند حدود هذه الأيقونة الدالة:

1- محمد الحداد هو أستاذ الحضارة وتاريخ الأفكار في الجامعات التونسية، متحصل على الدكتوراه في الدراسات العربية والإسلامية من جامعة السربون (باريس)، أول إصداراته هو كتاب الأفغاني دراسة ووثائق والكتاب الثاني هو محمد عبده قراءة جديدة في خطاب الإصلاح الديني وهو مشروع أطروحة دكتوراه قدمها في باريس بالفرنسية تحت إشراف محمد أركون.

*ويقسم الدكتور علي محافظة خطاب النهضة العربية إلى مراحل ثلاث حسب التسلسل الزمني الآتي:

المرحلة الأولى : تبدأ من النصف الثاني من القرن الثامن عشر وتستمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وظهرت خلالها دعوات سلفية وأخرى تجديدية ، وهذه النهضة شملت جميع ميادين الحياة والمرحلة الثانية وتمتد من نهاية الحرب العالمية الأولى أي فترة هيمنة المستعمر على البلاد العربية بعد انهيار الدولة العثمانية إلى غاية الحرب العالمية الثانية ، والمرحلة الثالثة : بدأت هذه المرحلة بعد الحرب العالمية الثانية وانتهت بنهاية القرن العشرين حيث نالت معظم الأقطار العربية استقلالها ما بين 1946 و 1971، ينظر علي محافظة شروط النهضة العربية ضمن كتاب حوارات في الفكر العربي المعاصر : المشروع الحضاري العربي بين التراث والحداثة مراجعة وتقديم فهمي جدعان تحرير غسان اسماعيل عبد الخالق مؤسسة عبد الحميد شومان ، الأردن ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1، 2002، ص 165 ، 166 ، 167 إلى غاية 171 .

2- محمد الحداد: حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي، دار الطليعة بيروت ط1 ، فبراير 2002- ص 31.

3- ابن منظور: لسان العرب مادة [صلح]، مج 8، ص 267.

الإصلاح لغة مشتق من مادة "صلح" وكما ورد في لسان العرب فإن الإصلاح نقيض الإفساد يقول في هذا الشأن " صلح:الصلاح:ضد الفساد، صلح يصلح صلاحا وصلوحا... والإصلاح نقيض الإفساد... والاستصلاح نقيض الاستفساد ،وأصلح الشيء بعد فساده أقامه ".

سادسا– الخطاب الإصلاحي:

أ– مفهومه:

يتأسس المشروع الحضاري لابن باديس على فكرة جوهرية وهي الإصلاح **Réforme** هذا المفهوم الذي يعدُّ من أكثر المفاهيم شيوعا وتداولا في ثقافتنا العربية، حيث أسال الكثير من الحبر قديما وحديثا .

ولا يقتصر تداوله على الثقافة العربية، بل هو مصطلح متداول وشائع في ثقافات أمم كثيرة و له شحنة دلالية خاصة تختلف باختلاف الرؤى والخلفيات الفكرية والفلسفية لكل مصلح، فمن المصلحين من يعتقد أن الإصلاح يختص بجانب العقيدة، ومنهم من يذهب إلى أنّه يتعلق بإصلاح الشأن السياسي، وفريق آخر يرى أن الإصلاح يبدأ بإصلاح أحوال الأفراد ثم المجتمعات "فلم تكن نظرة العلماء إلى الإصلاح نظرة شمولية ، إنما كانت نظرة جزئية". [1]

حيث حاولوا الاهتمام بجانب واحد من قضية الإصلاح وإسقاط من حسابهم جوانب أخرى، وذلك سعيا منهم لتغيير الأوضاع نحو الأفضل، ولتحقيق الأهداف المنشودة غير أن " ...النظرة الجزئية تكون دائما عقبة في سبيل الإصلاح، وما يصدق على الأسباب يصدق على أنواع العلاج ... وأما إذا نظرنا نظرة متكاملة .... فإن الإصلاح يتناول ميادين التوجيه الأخلاقي، والاقتصادي، والثقافي، والسياسي والصناعي، أما الانصراف إلى إصلاح حالة واحدة فإنه لا يؤدي إلى نتيجة، بل يؤدّي إلى الهدم والتخريب"[2]. فالإصلاح الحقيقي يجب أن يمسَّ كل مناحي الحياة، وأن يحيط بكل نشاطات الإنسان وسلوكياته، للأخذ بيده وتوجيهه الوجهة الحضارية المطلوبة، والسير به قُدُماً نحو التقدم والتطور والتغيير المستمر. أما عن طبيعة الفكر الباديسي فإنَّه يصدر عن نظرة متكاملة، حيث إن مسعى ابن باديس الإصلاحي يرتبط بإصلاح مختلف جوانب النشاط الإنساني، فكانت نظرته شاملة لأنه حاول أن" يجمع بين الفكر والعمل، بين النظر والتطبيق"[3] .

1– انظر الموقع الالكتروني: http://journals.iium.edu.my

2– عبد الحميد بن باديس:الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، ، مج1، ص 101 .

3– المصدر نفسه، ص 103 .

وبما أن الوعي بضرورة الإصلاح قد تحقق في إطار تفاعل حركات إصلاحية ظهرت في مشرق العالم العربي ومغربه، فمن هذا المنطـــلق يمكننا طرح إشكالات كالآتي:

-ما هي الأوضاع التي كانت سائدة في عالمنا العربي التي استدعت التفكير في خلق إستراتيجية إصلاح جدّية ومفروضة؟

- من أشهر الرواد المصلحين في الوطن العربي ؟ وعلى أي منهج استندوا في دعوتهم للإصلاح ؟

- كيف أسهمت الحركة الباديسية في سياسية الإصلاح الوطنية؟

- ما هي الخصائص التداولية للخطاب الإصلاحي عند ابن باديس؟ وما موقع مشروعه الإصلاحي في خضم مشاريع الإصلاح الحديثة؟

2- بوادر الإصلاح في المشرق العربي:[1]

إن النهضة التي شهدتها أوربا لم تكن بين عشية وضحاها، فقد عانت المجتمعات الغربية من مآزق كثيرة، ومشكلات مستعصية "إذ إن مسألة الخروج من القرون الوسطى، وفتح المجتمعات الأوروبية على أنماط جديدة من التفكير والسلوك استغرقت ما بين أربعة وخمسة قرون حصلت أثناءها أحداث جسام وتغيرات كبرى في حياة الشعوب الأوروبية وثقافاتها كالثورة الصناعية، والثورة الفرنسية والحمى الاستعمارية..." .[2] هذه الثورات التي شهدها المجتمع الغربي مكّنته من أن يخطو خطوات كبيرة في مجال: الفكر والأدب والعلوم والصناعة والزراعة وغيرها. فنتج عن ذلك زيادة في المطامع الاستعمارية ورغبة في إسقاط المجتمعات الضعيفة، ونهب خيراتها حتى تتمكن هذه الدول من تعزيز كيانها، وإحكام سيطرتها أكثر فأكثر، فكانت الدول المتاخمة لحوض البحر الأبيض المتوسط المستهدف الأول، مما جعل الدول العربية تفيق من سباتها العميق على "وقع مدافع نابليون بونابرت وهي تدك الثغور المصرية والمشرقية، فإن ردة الفعل الأولى التي عبرت عنها كانت الذهول والصدمة: صدمة المغزو أمام الغازي المدجج لا بالأسلحة والأعتدة الحديثة فحسب، وإنما أيضا بلفيف من العلماء والمستشرقين". [3]

1-إن مصطلح الإصلاح يرادف مصطلحات أخرى منها: النهضة، اليقظة، التنوير، الحداثة، التغيير، التجديد. انظر جمال شحيد ووليد قصاب: خطاب الحداثة في الأدب الأصول والمرجعية، دار الفكر، دمشق، ط1، 2005، ص 31 .

2-المرجع نفسه، ص 33.

3-المرجع نفسه، ص 34.

وأثبتت كتب التاريخ أن من العوامل التي ساعدت على انحطاط الأمة العربية وجمودها "السيطرة العثمانية التي أخضعت مختلف البلدان العربية وحولتها إلى مقاطعات تابعة لها، غير أن الإلحاقات العنيفة التي قامت بها روسيا وما تزال حقيقة ماثلة إلى يومنا هذا ثم الاستعمار الانجليزي والفرنسي والهولندي والإيطالي والإسباني من العوامل التي حرمت هذه البلدان بصورة خاصة، لا من استقلالها فحسب، بل ومن ذاتيتها وهويتها وشخصيتها أيضا، وبذلك حرمتها من إمكانيات الوجود الذاتي بالحد من انتشار اللغة والدين والتكوين، ومن الفرص المهنية، ومن تقدم العرب وهكذا أصبح الجمود شاملا". [1]

فقد عاش الوطن العربي يكابد أوجاع المستعمر الأوروبي الشديدة الذي ظل عقودا طويلة ينهش جسمه العليل حتى أصابه الشلل والعجز والوهن، وصار يتخبط في ظلمات الجهل والعبودية والانحطاط إلى أن قَيَّضَ الله له رجالا لم يألوا جهدا لمحاولة بعث هذه الأمة من جديد، وخاضوا نضالا بطوليا من أجل إيقاظ الضمائر، وشحن النفوس والهمم في سبيل الحفاظ على مقومات هذه الأمة، وتوجيهها للنهل من النبع الصافي الذي ارتوى منه السلف الصالح ألا وهما كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. والحقيقة أن فكرة الإصلاح كانت ولازالت متداولة في ثقافتنا العربية، كيف لا ونصوص القرآن تدعو لمحاربة الفساد. "ومن هنا يمكن اعتبار الإصلاح من بين تعاليم الإسلام الأساسية، لأن جذوره مستمدة من القرآن ذاته".[2]

كما أن الإصلاح مستمد أيضا من الهدي النبوي باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي. والحق أن من كان له الفضل في إرساء دعائم الحركة الإصلاحية في المشرق العربي جمال الدين الأفغاني (ت1897 م)، وقد أشار محمد عبده (ت1905 م) الذي كان من مريديه وأتباعه إلى "تخالف الناس في أمره وتباعد ما بينهم في معرفة حاله وتباين صوره في مخيلات اللاقفين لخبره، حتى كأنه حقيقة كلية تجلت في كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل نظر يشاكله".[3]

1- سغريد هونكه: تحجر الحضارة الإسلامية وانبعاثها من جديد النظريات العلمية أمام محكمة الواقع ، ضمن كتاب الأصالة ، محاضرات الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر،ج4 ، 1979، ص178.

2- عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2009، ص 52.

3- محمد الحداد :حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي، ص 196.

لقد استقطبت هذه الشخصية التاريخية العظيمة اهتمام الدارسين العرب والغرب على حد سواء، لما قدمته من أعمال جليلة لخدمة الإسلام والمسلمين، وإن كانت سيرة هذا الرجل ما زالت إلى حد اليوم تحوم حولها العديد من التساؤلات، وتدور حولها الكثير من الشبهات حتى أن من الدارسين من شكك في عقيدته وانتمائه وصدق نواياه.[1]

ومهما تضاربت الآراء حوله إلا أن بعض المصادر التاريخية تقر بأن هذا المصلح لم يدَّخر جهدا في تلقين الناس تعاليم الدين الحنيف، وتدريسهم أصول الشريعة الإسلامية، حيث كان يرى أن السبيل الأمثل لنهضة الأمة، والالتحاق بالركب الحضاري إصلاح الشأن السياسي، ومقاومة الاستعمار، والحرص على تجديد الخطاب الديني لتطهيره من كل ما علق به من شوائب وخرافات وأوهام وبدع، كان للمحتل يدا في إشاعتها رغبة منه في تضليل العقول ، وإبعاد الناس عن الدين الحنيف.

وقد أشاد المفكر الجزائري مالك بن نبي (ت 1973 م) في بعض مؤلفاته بعبقرية هذا الرجل ومواهبه الفذة، يقول في هذا الشأن: "لقد كان جمال الدين –إلى جانب أنه رجل (فطرة)– رجلا ذا ثقافة فريدة عدت فاتحة عهد (رجل الثقافة والعلم) في العالم الإسلامي الحديث..."،[2] ويضيف قائلا أن الهدف الأول الذي كان يسعى إليه الأفغاني هو إصلاح نظام الحكم السائد من خلال تقويضه وإعادة بناء تنظيم سياسي في العالم الإسلامي يقوم على أساس الأخوة الإسلامية.[3]

وإذا كان الأفغاني يقيم نظريته على أهمية العمل السياسي وأولويته فإن محمد عبده سلك سبيلا مغايرا، إذ يرى أن الإصلاح الديني التربوي هو الأرضية الخصبة لانبعاث الأمة العربية ونهضتها من جديد حيث " كان المسار الإصلاحي الذي انتهجه محمد عبده في بداياته أقرب إلى المطالبة بالإصلاح الديني والتعليم والنهضة بعيدا عن الانشغال بالسياسة، ثم عاد مع الثورة العرابية إلى المشاركة السياسية الفاعلة،

1- قدم كتاب عرب معلومات عديدة حول الأفغاني والإيرانيين اتجهوا بدورهم إلى تقديم معلومات مختلفة تقطع بأن عائلة الأفغاني كانت فارسية شيعية ، وقد روج لهذه الأفكار ميرزا لطف الله أسد أبادي الذي يقول إنّه ابن أخت جمال الدين الأفغاني واهتم بالأفغاني بعض الدارسين الإيرانيين منهم هوما يكدمان و ألبرت قدسي زاده ...، ومن المستشرقين الباحثة نيدي كيدي حيث قدمت دراسات وأبحاث تتعلق بشخصية الأفغاني، وإن كانت الباحثة تتسم بالروح العدوانية تجاه الرجل، انظر محمد الحداد ، حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي، ص 196-197.

2- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط6، 2006، ص49.

3- المرجع نفسه، ص 50.

ما أدّى إلى سجنه ونفيه وخروجه إلى لبنان، ثم ذهب إلى فرنسا، حيث التحق بأستاذه جمال الدين الأفغاني وأصدر مجلة العروة الوثقى إلى أن عاد عبده إلى القاهرة بشرط عدم ممارسة النشاط السياسي، فحدث الاختلاف بينه وبين الأفغاني".[1]

ما نستنتجه ممّا سلف أن المسار الإصلاحي لمحمد عبده اعترضته الكثير من العقبات وواجهته العديد من الصعوبات من الاضطهاد إلى السجن إلى النفي، ولكن كل هذه العقبات لم تحل بينه وبين ما عقد العزم عليه في بادئ الأمر من نشر للفكر الإصلاحي ورفض الجمود الفكري والركود الحضاري .

كما كانت للحركات الإصلاحية في الغرب تأثيرا كبيرا على فكر هذا المصلح الاجتماعي، حيث وجدت آراء مارتن لوثر **Martin luther** الإصلاحية المبنية على أسس دينية تربوية صدى كبيرا في البلاد الأوروبية، وحتى لدى بعض المصلحين العرب وعلى رأسهم الإمام محمد عبده – كما ذكرنا سابقا – .

لقد حاول مارتن تخليص الدين المسيحي من الخرافات والبدع التي علقت به، وهذا بعد الصراع المحتدم بين تيارين دينيين بارزين آنذاك هما: التيار الكاثوليكي والتيار البروتستانتي، وتحديدا عندما بدأ الصراع يزداد في القرن السادس عشر في الكنيسة الكاثوليكية .[2]

ونتيجة تأثر الشيخ عبده بحركة الإصلاح الديني البروتستانتي في الغرب، فقد أولى لهذا الجانب عناية فائقة فدعا إلى ضرورة " تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفها إلى ينابيعها الأولى، واعتبارها ضمن موازين العقل البشري".[3]

فالإصلاح الديني عند عبده يعني العودة إلى السلف الصالح، وإعلاء سلطان العقل في التعامل مع مستجدات الحياة اليومية.

1- محمد أبو رمان : الإصلاح السياسي في الفكر الإسلامي ، المقاربات،الأولويات، الاستراتيجيات، الشبكة العربية للأبحاث الدراسات، بيروت، ط1، 2010، ص 33و34.

2- مارتن لوثر ولد في ايسلين في شمال ألمانيا سنة 1483، وتوفي سنة 1546، وتعلم في مدارس مكدبورك، المذهب البروتستانتي المسيحي ، انظر الموقع الإلكتروني: www. Wikipedia.org

3- محمد أبورمان: الإصلاح السياسي في الفكر الإسلامي، ص 39 .

وإذا كان الأفغاني يُقيمُ حركته الإصلاحية على أولوية النشاط السياسي ومحمد عبده يُقَيمُهَا على أهمية الإصلاح الديني، فإن مالك بن نبي يرى أن التوفيق بين الاتجاهين هو السبيل الأمثل لنهضة الشعوب وتغيير ما يمكن تغييره من فساد وركود وانحطاط يقول في هذا الشأن: "وربما لم تكن هذه الاعتبارات، لتخفى عن أعين القائمين على المدرسة الإصلاحية، لو أنها استطاعت أن تقوم بتجميع أفكارها، وتجميع عناصرها، لتوحد ما بين الأفكار الأصول التي ذهب إليها الشيخ محمد عبده، وبين الآراء السياسية الاجتماعية التي نادى بها جمال الدين ...".[1]

وهذا ما جعل مالك بن نبي يؤمن إيمانا جازما بأن "المرفأ بالنسبة لكل سفينة مهددة بالغرق، أعني لكل مجتمع إنساني هو أمران:

1-دينه

2-حضارته ".[2]

فمشكلة الإنسان -من منظور مالك بن نبي -هي مشكلة حضارية بالدرجة الأولى الذي يعمل على حل هذه المشكلة هي الفكرة الدينية التي تعمل على تحرير الفرد من قيد التبعية و العبودية والاستبداد، وتدفعه قدما نحو التقدم.

ورغم هذا النقد الذي وجَّهَهُ مالك بن نبي لرائدي الحركة الإصلاحية في المشرق العربي إلا أننا نجده من جهة أخرى ينصف محمد عبده وحركته حيث يرى أن: "...جزءا كبيرا مما حقّقه العالم الإسلامي، وما قدّره راجع إلى مجهود الشيخ عبده ومدرسته...".[3]

ونجد أن من أكثر المصلحين تأثرا بمحمد عبده تلميذه محمد رشيد رضا (ت1935م)، فقد اطلع هذا الأخير على أعداد من العروة الوثقى، وأعجب بها كثيرا ولما انتقل إلى مصر لازم محمد عبده وأصدر مجلة المنار التي دام نشاطها ما يقارب الأربعين سنة، فكانت هذه المجلة نورا وضياء وهداية للناس، وكان

1- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص54-55.

2- مالك بن نبي: مجالس دمشق، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013. ص61.

3-مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص55.

محمد رشيد رضا يتصدى فيها للآراء العلمانية ، ويناقض أطروحاتهم، ويجيب عن أسئلة المسلمين المتعلقة بما استجد عن الغرب من قضايا وأحداث نتيجة التقدم العلمي والصناعي في العالم الغربي[1].

ويتوافق التيار التجديدي الذي تزعمه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا مع التيار السلفي الذي انبثق عن الوهابية في نجد نسبة **لمحمد بن عبد الوهاب** (ت 1791م) والسنوسية في ليبيا نسبة **لمحمد بن علي السنوسي** (ت1859م)، والمهدية في السودان نسبة **لمحمد بن أحمد المهدي** (ت1885م) وهؤلاء جميعا حرصوا على فتح باب الاجتهاد وإعلاء سلطة العقل، وتطهير الدين الإسلامي من البدع والخرافات والسعي إلى هداية الناس إلى جادة الصواب من خلال تعليمهم أحكام الدين الصحيحة، كما برزت إلى جانب هذه الدعوات دعوة محمد بن علي الشوكاني في اليمن (ت1839 م)، وأبو الثناء محمود الألوسي في العراق (ت 1854م) وإن ساروا في الاتجاه نفسه للتيار السلفي إلا أنهم اختلفوا في اجتهاداتهم. [2]

وقد نادى الكثير من المصلحين والعلماء في ذلك العصر بضرورة الاستفادة من منجزات الحضارة الغربية والدعوة إلى إصلاح الشأن السياسي، بمحاربة الاستبداد وتكريس مبدأ التداول على السلطة، ومن بينهم رافع **رفاعة الطهطاوي** (ت 1873م) وعبد **الرحمن الكواكبي** (ت1902م)، وقد تأثر بالمنحى الفكري لهؤلاء الرواد المشارقة الكثير من المصلحين المغاربة، فاقتفوا أثرهم وسارو على نهجهم بخطى ثابتة حالمين بغد أفضل يحمل بين طياته بذور التغيير .

3- أشهر رواد الإصلاح في المغرب العربي:

بزغ فجر الحركة الإصلاحية في المغرب العربي بعد أن تمكن رواد الإصلاح في المشرق العربي من نثر بذور الإصلاح في كل أرجاء العالم العربي، ليكون بذلك المحضن الثاني الذي يجب أن تترعرع فيه هذه الحركة الفكرية التنويرية ــإن صح التعبيرــوقد كان اتصال الشرق بالغرب عن طريق رحلات الحج

1- محمد أبو رمان:الإصلاح السياسي في الفكر الإسلامي ، ص33و34 .و للاستزادة حول نشاط محمد رشيد رضا انظر علي المحافظة شروط النهضة العربية ، ص 166 . ومحمد مشاش: رؤية نهضوية لتطوير اللغة العربية رشيد رضا أنموذجا ضمن كتاب قراءات في الفكر العربي مركز دراسات الوحدة العربية ط2 ، 2006، ص107 .

2- علي محافظة: شروط النهضة العربية، ص166.

والصحف والمجلات وعودة بعض المثقفين من المشرق إلى أوطانهم عاقدين العزم على النهوض بالأمة والحفاظ على ثوابتها وإصلاح ما يمكن إصلاحه من أوضاع متردية .

وأشهر من حمل شعلة الإصلاح في المغرب العربي وتحديدا في الجزائر **عبد الحميد بن باديس** (ت1940م) **والعربي التبسي** (ت1957م) **والبشير الإبراهيمي** (ت1965م) وغيرهم من رواد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أما في تونس فنجد **بشير الصفر** (ت1917م) والشيخ **محمد النخلي**(ت 1924) **والطاهر بن عاشور** (ت 1973)، ومن الرواد المصلحين في المغرب الأقصى السلطان سيدي **محمد بن عبد الله** (ت 1790م) ، وغيرهم كثير.[1]

و قد حرص رواد الإصلاح في المغرب العربي على تصحيح المفاهيم المغلوطة ، وتنقية فكر المسلم من الادعاءات المغرضة التي كان يروج لها المستعمر، حتى يجعل من هذا الكائن الضعيف أداة طيعة سهلة الانقياد، يمارس عليه التأثير الفكري والعاطفي كما يحلو له، ولقد تفطن هؤلاء الرواد لهذه المخططات التغريبية، فأعدّوا للأمر عدته، وخير مثال على ذلك عبد الحميد بن باديس زعيم الإصلاح في الوطن الجزائري، وقد اتسمت مضامينه الإصلاحية بسمات خاصة أكشف عنها في العنصر الموالي:

4- الخصائص التداولية للخطاب الإصلاحي عند ابن باديس:

كان لعبد الحميد بن باديس[2] دور عظيم في إحياء نهضة الأمة والمحافظة على الثوابت والذود عن حمى هذا الدين، وقد كان شديد التأثر بالحركة الإصلاحية في المشرق العربي و كان أيضا على اتصال ببعض

1- سبق هؤلاء الرواد المصلحين في العصر الحديث برواد آخرين من أهل العلم المغاربة حاولوا إصلاح ما يمكن إصلاحه في مجال محاربة البدع والخرافات نذكر من بينهم:

- **الإمام القشيري** 5 هـ **وأبو بكر الطرشوشي** في ق 6 هـ **وأبو حيان الأندلسي** ق 7 هـ **وأبو اسحاق الشاطبي** ق 8 هـ ، الإمام **القلصادي المالكي** ق 9 هـ ، **عبد الرحمان الأخضري** ق 10 هـ ، **عبد الكريم الفكون** ق 11 هـ ، **مصطفى العروسي** ق 13 هـ ، **وعبد القادر المجاوي** ق 14 هـ ، انظر: سعيد هرماس: أدبيات الحركة الإصلاحية في الجزائر ضمن أشغال الملتقى الوطني للفكر الإصلاحي في الجزائر، شركة دار الهدى للنشر، الجزائر،أفريل 2003 ، ص 177 .

2- يعد عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإصلاحية في الجزائر تعود أصوله إلى الأمير المعز لدين الله بن باديس الزيري الصنهاجي (406-452 هـ) الذي ثار على الدول الفاطمية في مصر ،ولد بمدينة قسنطينة يوم الأربعاء 11 ربيع الثاني 1307 الموافق لـ 4 ديسمبر 1889، وترعرع في أحضان أسرة عريقة اشتهرت بالجاه والعلم والمال والوظيف والنضال ،وليس غريبا أن يكون سليل أجدادها العلماء فكان خير خلف لخير سلف ، حفظ القرآن الكريم وهو ابن الثالثة عشرة من عمره ، وتعلم قواعد اللغة العربية على يد علماء المدينة وشيوخها ، و لم يتلق التعليم الفرنسي كما هو الشأن بالنسبة للطبقة الارستقراطية بل أراد له والده أن يسير على نهج أجداده في دراسة علوم الدين انظر عبد العزيز فيلالي وثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، دار الهدى ، الجزائر ، ط1 ، 2012 ، ص 15 .

الرواد المصلحين من بينهم " محمد رشيد رضا " ومفتي الديار المصرية آنذاك محمد بخيت المطيعي (ت1354ه)،كما تأثر ابن باديس بآراء بعض المصلحين والمجددين المشرقيين وعلى رأسهم عبد الرحمن الكواكبي وشكيب أرسلان (ت 1946 م)،كما كان للمجلات دور بارز في نشر الفكر الإصلاحي في العالم العربي ونذكر تحديدا مجلة المنار والعروة الوثقى التي أنشأها الأفغاني بمعية رفيق دربه محمد عبده في العاصمة الفرنسية باريس.[1]

ورغم توفر كل هذه العوامل الخارجية غير أنه يظل العامل الداخلي والمتمثل في الظرف الاستعماري وما خلفه من جنايات مختلفة من قتل وتشريد وتجويع وهتك للأعراض، واستيلاء على الممتلكات، وحرمان الشعب من أبسط حقوقه من ملبس ومأكل ومشرب وتعليم ووظيفة ومسكن كل هذه الأوضاع غير الإنسانية كانت عاملا أساسيا ومباشرا للتفكير بجدية في وضع مخطط إصلاحي شامل يمس جميع مناحي الحياة (دينية وتربوية واجتماعية وسياسية). وقد خلف هذا المصلح آثارا جمعت بعد وفاته [2] ضمت بين دفتيها مجموعة من الخطابات مؤطرة تأطيرا سلفيا من ناحية وتجديديا من ناحية أخرى، [3] تهدف جميعها إلى تحليل واقع المجتمع الجزائري تحليلا نقديا كون الخطاب "لا يعكس آليا الواقع لكن يعيد صياغته ليصبح وجودا ذهنيا ، ويتشكل ذاته حسب عملية إعادة الصياغة التي لا تحدث في حياد، بل تحدث غالبا في خضم استراتيجيات متنافسة لمستعملي اللغة الواحدة، لكن المقصود ليس فصل الخطاب عن ظروفه الاجتماعية، بل على العكس الكشف عن هذا الترابط في صورته الحقيقية البالغة التعقيد".[4]

ومن أبرز الشيوخ الذين انتخبهم والده لتدريسه أحمد أبو حمدان لونيسي الذي كان منتميا للطريقة التيجانية ، ومن أساتذته في تونس محمد النخلي والخضر بن الحسني والطاهر بن عاشور الذي كان من رواد النهضة الحديثة في تونس ، انظر محمد بهى الدين سالم: ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير ، دار الشروق القاهرة ، ط1 ، 1999 ، ص 31 و ص 32 .

تزوج في سن الخامسة عشر وأنجب ولدا سماه (عبده اسماعيل) توفي وعمره سبعة عشر عاما ، المرجع نفسه ، ص 32.

و توفي عبد الحميد بن باديس يوم 16 أفريل 1940 وتاريخ وفاته صار شعارا لعيد العلم في بلده الجزائر يحتفل به كل سنة لإحياء ذكرى هذه العلامة وهو أيضا رائد جمعية العلماء المسلمين التي تأسست في 5 ماي 1931 أي بعد احتفال الفرنسيين بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر وقد قامت الجمعية على أسس دينية تربوية تثقيفية أما النشاط السياسي فقد كان يمارسه سرا حتى لا تأمر السلطات الفرنسية بحل نشاط الجمعية .

1- عبد القادر فوضيل ومحمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، شركة دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2012، ص101. وانظر أيضا عمار بن مزوز: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، دار الأمل للنشر والطباعة و التوزيع، المدينة الجديدة تيزي وزو،الجزائر،دط،ص61و62.

2- قام الدكتور عمار طالبي بجمع آثار عبد الحميد بن باديس في مجلدات ست وقد كانت هذه الأعمال موضوع دراستنا التداولية.

3- يرى بعض الدارسين أن " الخطاب الإصلاحي التوفيقي" يحاول الجمع بين حداثة الغرب والحضارة العربية الاسلامية وتجسد هذا النوع من الخطابات في كتابات بعض المفكرين وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده ، انظر عبد الجليل أبو المجد وعبد الغالي حرث تجديد الخطاب الإسلامي وتحديات الحداثة ، افريقيا الشرق، المغرب ، دط ، 2011 ، ص90 و91.

4- محمد الحداد حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي ، ص 31 .

ففهم الخطاب وتأويله لا يتم إلّا بالرجوع إلى السياقات اللغوية و غير اللغوية (المكانية، الزمانية...) التي أسهمت في تشكله، ومن ثم لا يمكن قراءة خطابات عبد الحميد بن باديس بمعزل عن سياقاتها الحيوية التي نمت وترعرعت فيها خاصة وأن لغته تكتنز بشحنات تعبيرية وطاقات فكرية ووجدانية، تكشف عن ثراء هذا النوع من الخطابات وتميزه ، وكل هذه الخصائص جعلت منه حقلا خصبا للتحليل التداولي.

ومن السمات التداولية التي تميز هذا النوع من الخطابات:

1- **الشمولية**:[1] فالإصلاح من منظور ابن باديس لا يكون في مجال العقيدة وحدها بل لا بد أن يكون شاملا لجميع الميادين من (سياسية ، دينية ، تربوية ...) على خلاف ما ذهب إليه الأفغاني الذي عني بالإصلاح السياسي، ومحمد عبده الذي اهتم بالإصلاح الديني التربوي، فحاول عبد الحميد بن باديس أن يوفق بين الاتجاهين، والشمولية عنده تعني أيضا شمولية الأهداف فالإصلاح يبدأ بالفرد مرورا بالأسرة وصولا إلى المجتمع ثم إصلاح أحوال العالم الإسلامي ككل لتحقيق أهداف الإسلام كاملة غير منقوصة، وكذا شمولية المكان بحيث يجب أن يصل الفكر الإصلاحي إلى أبعد رقعة من جغرافية الجزائر، ومن خريطة العالم العربي الإسلامي، وحتى العالم ككل مصداقا لقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.(الأنبياء 107)؛ وكذا شمولية الزمان فالإصلاح يكون في كل زمان وفي كل عصر وفي كل الأوقات.[2]

2- **العالمية**: [3] إن الحديث عن شمولية الأهداف المكان والزمان يفضي بنا للحديث عن عالمية هذه المدرسة الإصلاحية الباديسية وتعني العالمية عالمية الفكر والفهم الصحيح للإسلام ولمعاني الأخوة، لذا أسهم هذا المصلح بقسط وافر في نشر رسالة التوحيد، وإحياء الثقافة العربية الإسلامية، وإعادة بعث المبادئ الأخلاقية السامية، وتربية النشء على حب الوطن والإخلاص إليه، والحفاظ على القومية العربية والوحدة الإسلامية، ومناصرة القضايا الإنسانية العادلة في كل أرجاء العالم .

1- ذكر الدكتور نذير بومعالي نقاط تقاطع في فكر مالك بن نبي وبعض مدارس الإصلاح في العالم الإسلامي ومن بين هذه النقاط: العالمية والشمولية وتصحيح المفاهيم، وقد استفدنا من هذه النقاط واستثمرناها في تحديد السمات التداولية للخطاب الإصلاحي عند ابن باديس انظر مجلة دراسات إسلامية مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية ،الجزائر، سبتمبر 2009 ، العدد06، ص 113 .

2- المرجع نفسه، ص ن.

3- المرجع نفسه، ص 115.

3- يرى هذا المصلح أنه لا جدوى من مهادنة الاستعمار لأن " **ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة**" فكان ينتهز الفرص الملائمة للتعبير عن رفضه للوجود الاستعماري، أما محمد عبده فقد كان يصر على مهادنة الاحتلال الانجليزي بغية تحقيق أهداف نفعية متعلقة أساسا بتمرير خطته الإصلاحية.

4- آثار ابن باديس على الناشئة واضحة المعالم، وبصماته جلية على الأجيال الصاعدة بعد وفاته، لقد أسس لعمل جماعي ودرب تلاميذه على حمل هذا الفكر التوعوي ونشره من بعده ، أما محمد عبده فتتسم شخصيته بنوع من الغموض [1]، وما يصدق على محمد عبده يصدق على الأفغاني إذ كانت ولا تزال شخصيته مثار جدل ، وتطرح حولها الكثير من التساؤلات .

5- تصحيح المفاهيم:[2] قام ابن باديس بتصحيح كثير من المفاهيم المغلوطة التي كان يروج لها المستعمر وأعوانه من شيوخ الطرقية والصوفية كفكرة أن الاستعمار قضاء وقدر، ومن ثمّة لا يجوز محاربته أو التصدي له، مما يجعل حلم الاستقلال صعب المنال .لذا حاول أن يتخذ من خطاباته وسيلة للتواصل والتفاعل والتأثير في مواطنيه للسير بهم قدما نحو التحرر من براثن الاستعمار .

نهل ابن باديس من النبع الصافي الذي ارتوى منه الكثير من أفراد أسرته من ثقافة عربية إسلامية وذلك بعد أن خيره والده بين أن يسلك طريق أجداده أو سبيلا آخر يختاره هو لنفسه ، فاختار طريق أسلافه في طلب العلم ورفع راية الجهاد. [3]

وقد مكنته هذه الثقافة الأصيلة من غرس بذور الإصلاح في المجتمع الجزائري، فكان يؤمن إيمانا جازما بأن الإصلاح الحقيقي يبدأ من الداخل أي بتغيير ما في النفس مصداقا لقوله تعالى،﴿إِنّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:11)، وهذه الآية أصبحت شعارا للحركة الإصلاحية فيما بعد، وهذا ما يجعل توجهات هذا المصلح تنسجم مع تصورات مالك بن نبي الذي يرى أن حل مشكلة

1-محمد الحداد: حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي ، ص201.

2-نذير بومعالي: نقاط تقاطع في فكر مالك بن نبي وبعض رجال الإصلاح في العالم الإسلامي ، ص 110 .

3- محمد بهي الدين سالم:ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، ص32و33.

المجتمع الإسلامي تبدأ من مراجعتنا لأخطائنا ومحاسبتنا لأنفسنا، وقد أكد هذا الطرح في كتابه شروط النهضة بقوله: "وإنها لشرعة السماء غير نفسك تغير التاريخ".[1]

وإذا كان مالك بن نبي يتفق مع ابن باديس في بعض المنطلقات، ويشترك معه في بعض التصورات والأهداف، إلا أننا نلاحظ أن مالك بن نبي لم يتوان عن توجيه بعض الانتقادات لجمعية العلماء المسلمين لا يتّسع المقام لسردها بالتفصيل، ولكن نشير إلى بعضها فقط على سبيل التمثيل حيث يشير في هذا السياق إلى أنه:"...مهما كان شأن جمعية العلماء إزاء ذلك الانحراف، ومهما كان ركونها أحيانا إلى التفكير غير المنهجي، فإنها لا تزال في طليعة النهضة الجزائرية الصحيحة ،ومن أقوى محركاتها."[2]

ويعود سبب انحراف الجمعية عن خط السير الذي رسمته لنفسها بادئ الأمر_ حسب تصورات مالك بن نبي_ انخراطها في العمل السياسي من خلال مشاركتها في المؤتمر الذي عقد في باريس سنة 1936، وقد كانت نتائجه مخيبة للآمال، ويؤكد مالك بن نبي ذلك في قوله:"...فبأي غنيمة أرادو أن يرجعوا من هناك، وهم يعلمون أن مفتاح القضية في روح الأمة لا في مكان آخر."[3]

وبرغم الانتقادات التي وجهت للحركة الإصلاحية في الجزائر إلا أنه لا يمكن إنكار جهود ابن باديس يوما ما، حيث استطاع هذا الرجل بصيحته المتعالية أن يوقظ أمة كاملة من سباتها العميق، فقد اتخذ من مضامينه الإصلاحية وسيلة للتأثير في الواقع الجزائري وتغييره .

و نلاحظ أنه مهما تعددت الخلفية المعرفية لرواد الحركة الإصلاحية في العالم العربي، ومهما اختلفت منطلقاتهم الفكرية فإنه يظل الهدف الذي ينشدونه جميعا واحدا هو تحقيق نهضة شاملة تخص جميع ميادين الحياة، حيث اتخذوا من مضامينهم الإصلاحية وسيلة للتغيير والتأثير وتفعيل الطاقات المعطلة، ومن ثمة يحق لنا القول أن هؤلاء المصلحين "...لا ينشؤون ألفاظا تحوي بنى نحوية وكلمات

1- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، دط، 1986 ص32.

2- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص26.

3- المرجع نفسه. ص ن.

فقط، وإنما ينجزون أفعالا عبر هذه الألفاظ"[1].فقد سخروا أقلامهم، وأفنوا أعمارهم لخدمة أوطانهم عملا بالقول السائر "حب الوطن من الإيمان".

1- جورج يول: التداولية، ترجمة قصي العتابي، دار الأمان الرباط،المغرب، ط1، 2010، ص81.

خلاصة:

ومما سبق عرضه أخلص إلى أنني حاولت أن أرصد تطور مفهوم كلمة "خطاب" ومجالات تحليله عند العلماء العرب والغربيين على حد سواء ،وذلك انطلاقا من مختلف التعريفات التي قدمت له في حقل الدراسات اللسانية حيث سجلنا الملاحظات الآتية:

1– إن مصطلح الخطاب في ثقافتنا العربية ينحدر من أصل واحد وهو "الكلام" ومن ثمة فهو لا يثير أية إشكالية لا في المعجم ولا في النص الديني ولا في حقل علم الأصول .

2– إن مصطلح الخطاب في المعجم الفرنسي تضمن معنى الركض أو الجري هنا وهناك وهذه الدلالة اللغوية ليست لها أي صلة بدلالته الاصطلاحية في العصر الحديث.

3– يعود أصل الخطاب في الدرس اللساني الحديث إلى دو سوسير حيث فرق بدقة بين لسانيات اللغة و لسانيات الكلام، وقد أبعد الكلام من مجال الدراسة لأنه متغير وغير ثابت –و تأثر بآرائه الكثير من الدارسين ممن اقتفوا أثره–.

4– إن التعريفات التي قدمت للخطاب متعددة، نظرا لتعدد وجهات نظر الباحثين في هذا الميدان.

5– إن مصطلح " تحليل الخطاب " جامع لأنشطة إنسانية مختلفة مما يؤكد صعوبة وضعه تحت لواء مفهوم واحد.

هذا بالنسبة لمفهوم الخطاب عموما أما فيما يخص الخطاب الإصلاحي على وجه الخصوص فإن:

6 – مفهوم الإصلاح يعد من أكثر المفاهيم شيوعا وتداولا في ثقافتنا العربية، وقد أسال الكثير من الحبر قديما وحديثا.

7– لفظ الإصلاح له شحنة دلالية خاصة تختلف باختلاف الرؤى والخلفيات الفكرية والفلسفية لكل مصلح، فمن المصلحين من يعتقد أن الإصلاح يختص بجانب العقيدة، ومنهم من يذهب إلى أنه يتعلق بإصلاح الشأن السياسي، وفريق آخر يرى أن الإصلاح يبدأ بإصلاح أحوال المجتمع فقد كانت نظرتهم للإصلاح نظرة جزئية.

8– يتميز الخطاب الإصلاحي لابن باديس بخصائص تداولية كثيرة منها الشمولية أي شمولية الأهداف والمكان والزمان ،فمفهوم الإصلاح عنده يشمل الجوانب الدينية والاجتماعية والسياسية، فهو لا يركز

على جانب ويسقط من حسابه جوانب أخرى، فقد اتخذ من مضامينه الإصلاحية أداة لتغيير الواقع والتأثير فيه.

9- استطاع هذا المصلح بمنطقه الصائب وبطرحه العقلاني المستمد من رؤية قرآنية أن يكون جيلا يمجد الفكر الإصلاحي ،ويؤمن بمنطق التغيير والتجديد والتطور وهذا هو سر نجاح مشروعه الحضاري، حيث تتوفر خطاباته على كثير من آليات الإقناع ووسائل الحجاج موجهة للمتلقي غرضها تحقيق الإبلاغ والتأثير.

ومن هذا المنطلق ارتأيت أن أقدم دراسة لنماذج مختارة من خطبه في ضوء مفاهيم وتصورات جادة وقيمة، علني أقدم قراءة جديدة ومغايرة لهذا الموروث العربي الأصيل، وقبل الشروع في تحليل هذه النماذج المختارة تحليلا تداوليا بدا لي أنه من باب أولى تقديم توطئة نظريـــة للحقل التداولي لتقديم لمحة عن نشأته وأبرز رواده ، ثم أعرج بعدها للحديث عن الإسهامات العربية في هذا المجال، وهذا ما سأحاول عرضه في الفصل الموالي.

الفصل الأول

التداولية بين التأسيس الغربي والتلقي العربي

أولا– التداولية الماهية وإشكالية المصطلح

ثانيا– التداولية النشأة والتطور

ثالثا– مبادئ التحليل التداولي

رابعا– الإسهامات العربية القديمة في مجال الدراسة التداولية.

خامسا– تلقي التداولية في الثقافة العربية المعاصرة

سادسا: أهداف المقاربة التداولية

الخلاصة

توطئة

ظلّ التيار الشكلي مكتسحا ساحة الدراسات اللغوية والنقدية الحديثة ردحا من الزمن، ومع بدايات النصف الثاني من القرن العشرين بدأ يترسّخ اعتقاد لدى كثير من الباحثين، ومن مختلف أنحاء العالم أمثال: **فان ديك Van dyjk وهارفج Harveg وهاليداي Halliday وليتش Leech** ...، بأن الدراسة الشكلية للغة قاصرة، وأن التقوقع عند حد الجملة والنظر إليها على أنّها الوحدة الكبرى للتحليل لم يعد "كافيا ومقنعا، وربما تغير الحال إذا اتجّه الوصف إلى الحكم على هذه الظواهر في إطار وحدة أكبر من الجملة، ويمكن أن تكون هذه الوحدة هي **النص**." [1].

فقد أعلن هذا النوع من التحليل عجزه عن تقديم تفسير للخطاب ينسجم وطبيعة اللغة ومنطقها. وفي ظل هذا المخاض العسير ولد من رحم اللسانيات حقل معرفي جديد أطلق عليه الدارسون الغربيون مصطلح **Pragmatics**، وينضوي هذا الأخير تحت تيار عام يسمى بالتيار التواصلي*. « وبهذا يتجلى الفرق بين الاتجاهين، وذلك بأن المنهج الأول، بشقيه*، لا يعتد بما هو خارج نظام اللغة، ولا يعترف بتأثيره في بنيتها، في حين يعتد الاتجاه الآخر بسياق الإنتاج، وأثره في بنية الخطاب»[2].

وبهذا تظل مهمة التيار التواصلي العمل على تحرير الخطاب من قيد النسق وعبودية النظام، إلى النظر في كل الطبقات المقامية المختلفة التي أُنتج فيها الخطاب، وهي الغاية التي ينشدها أعلام التداولية في العصر الحديث .

---

[1]- أحمد عفيفي: نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2001، ص 39.

*يتمثل التيار التواصلي في مناهج كثيرة منها: التداولية، والنحو الوظيفي واللسانيات الاجتماعية، وتحليل الخطاب، ... ورغم تعدد هذه الدراسات وانشغال كل منها بجانب معين، فإنه يمكن إدراجها كلها ضمن تيار عام هو التيار التواصلي، انظر عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 09وص10.

*تعني عبارة المنهج الأول بشقيه هي (البنيوي والتوليدي) لأن الدراسة اللسانية وإلى غاية الستينات من القرن العشرين كان يهيمن عليها الفكر البنيوي والفكر التوليدي، وبعد ذلك انفتح الباب على مصراعيه أمام المقاربة الدلالية والتداولية التي يعود لها الفضل في إثراء الدرس اللغوي. انظر حسن بدوح: المحاورة مقاربة تداولية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012، ص 06.

[2]- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، ص 11.

أولا– التداولية: الماهية وإشكالية المصطلح:

بما أن " مفاتيح العلوم مصطلحاتها "[1]– على حد تعبير عبد السلام المسدي–، أو كما قال **فولتير** Voltaire:« قبل أن تتحدث معي حدّد مصطلحاتك »[2] من هنا تأتي أهمية تحديد مصطلح التداولية وإشكالية ترجمته.

قابل الدارسون العرب المصطلح الغربي Pragmatics بالإنجليزية أو la **Pragmatique** بالفرنسية بمقابلات عربية كثيرة، والملاحظ أن الاختلاف الحاصل بين هذه الترجمات ، يرجع إلى اختلاف الدارسين في مشاربهم الثقافية، وخلفياتهم الفكرية والمعرفية، وفيما يلي سرد لهذه المصطلحات بلغاتها الأجنبية، وما يقابلها بالعربية عند من استطعنا الاطّلاع عليهم وذلك على سبيل التمثيل لا الحصر.

المصطلح الأجنبي		الترجمة العربية	الباحث	عنوان الكتاب
إنجليزي	فرنسي			
Pragmatics	La Pragmatique	التداولية*	– مسعود صحراوي – عبدالهادي بن ظافرالشهري	– التداولية عند العلماء العرب – استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية.
			– أحمد المتوكل	– الوظائف التداولية في اللغة العربية.
			– صابر الحباشة	– الأبعاد التداولية في شرح التلخيص

[1]– عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات عربي– فرنسي ،فرنسي – عربي مع مقدمة في علم المصطلح، الدار العربية للكتاب، دط، دت ، ص 11.

[2]– ينظر عبد القادر شرشار: تحليل الخطاب السردي وقضايا النص، دار القدس العربي، للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، ص 15.

*اعتمدنا في هذه الدراسة مصطلح " التداولية " لأنّه المصطلح الأكثر توظيفا، وبناء أيضا على اختيار الفيلسوف طه عبد الرحمن له، وما يجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن كثيرا من الكتب الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية حملت هذا الاسم أي "التداولية" ونذكر على سبيل المثال لا الحصر **جورج يول**: (التداولية)، ترجمة قصي العتابي وكتاب التداولية اليوم (علم جديد في التواصل) **لآن روبول وجاك موشلار** ترجمة سيف الدين دعفوس، ومحمد الشيباني، و **فيليب بلانشيه** " التداولية من أوستين إلى غوفمان " ترجمة صابر الحباشة.

			– نواري سعودي أو زيد	للقزويني. – في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء.
		التداوليات*	– حافظ اسماعيلي علوي	– التداوليات (علم استعمال اللغة) – الدلاليات والتداوليات (أشكال الحدود البحث اللساني والسميائي)
		اللسانيات التداولية	– مرتضى جبار كاظم – الجيلالي دلاش	– اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني – مدخل إلى اللسانيات التداولية
		البراغماتية	– حامد خليل – محمد صلاح الدين شريف	– المنطق البراغماتي عند شارل سندرس بيرس مؤسس الحركة البراغماتية – تقديم عام للاتجاه البراغماتي ضمن أهم المدارس اللسانية.
		علم التخاطب	– محمد يونس علي	– مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب – علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص
		البراجماتية اللسانية*	– محمود عكاشة	– النظرية البراجماتية اللسانية التداولية

*يفضل فيليب بلانشيه (باحث فرنسي) تسمية هذا الحقل المعرفي باسم التداوليات des Pragmatiques بصيغة الجمع بدل التداولية بصيغة المفرد، لأنه يرى أن صيغة الجمع هذه تحمل دلالة تحقيرية Péjoratif لأن هذا النسق المعرفي ما زال محل تساؤل حول أسسه النظرية والمنهجية ووضعيته الاختصاصية، وهي تندرج ضمن حقل فلسفي وهو حقل متشعب وواسع. انظر: فيليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة وعبد الرزاق الجمايعي،عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012 ص 09 وص 10.

ويذهب بعض الدارسين وعلى رأسهم الفيلسوف المغربي " طه عبد الرحمن "*إلى أن المقابل العربي الأنسب هو " التداوليات " وصرّح بذلك في قوله :"وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح التداوليات مقابلا للمصطلح الغربي البراغماتيقا لأنه يوفي المطلوب حقه ...". (1)

والملاحظ أن مصطلح التداوليات يتطابق مع المصطلح الإنجليزي Pragmaticsبدقّة متناهية، إذ تدل اللاحقة (S) في الإنجليزية على الجمع وتقابلها اللاحقة (ـــات) في العربية وهي دالة أيضا على الجمع.(2)

ويبني اختياره لهذا المصطلح انطلاقا من تعدد مصادره الثقافية، وقراءاته المعمقة للتراث العربي لأن التداولية مشتقة من الجذر اللغوي "دول" وهذه الصيغة وردت بمختلف اشتقاقاتها في القرآن الكريم* وفي المعاجم العربية القديمة *** وتدل على التعاقب والدوران والحركة، وانتقال الشيء من طرف إلى آخر وقد تجسدت هذه المعاني في قول طه عبد الرحمن :« من المعروف أن الفعل " تداول " في قولنا: " تداول الناس كذا بينهم "، يفيد معنى " تناقله الناس وأداروه فيما بينهم "، ومن المعروف أيضا أن مفهوم " النقل " ومفهوم " الدوران " مستعملان في نطاق اللغة الملفوظة كما هما مستعملان في نطاق التجربة

---

*يفضل محمود عكاشة مصطلح البراجماتية لأنها تماثل من حيث الصياغة مصطلح الراديكالية (Radicalism) والفاشية "Facism" ثم يضيف قائلا:« ومن التعسف أن نطوع لها بديلا عربيا وأن نفرضه على ثقافتنا ». انظر: محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب، القاهرة ،مصر،ط1، 2013، ص 6. ويؤكد في موضع آخر أنه اختار مصطلح البراجماتية اللسانية لأنه يدل على المفهوم الغربي الدقيق، المرجع نفسه، ص 3.

★طه عبد الرحمن فيلسوف مغربي متخصص في المنطق وفلسفة الأخلاق ولد بالجديدة سنة 1944 ويعد من أبرز المفكرين في مجال التداول الإسلامي العربي اشتهر بالجمع بين التحليل المنطقي والاشتقاق اللغوي من مؤلفاته اللغة والفلسفة 1979، اللسان والميزان (التكوثر العقلي) 1988، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي 2002. انظر الموقع الإلكتروني: ar.wikipédia.org

1ــ طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2000، ص 28.

2 - استلهمنا فكرة تفكيك مصطلح التداوليات بالعربية وما يقابله باللغة الأجنبية من عند الدكتور رابح بوحوش وذلك في معرض مناقشته لإشكالية نقل وترجمة مصطلح "الشعريات" الذي يقابل مصطلح poetics ينظر رابح بوحوش: الأسلوبيات وتحليل الخطاب، مديرية النشر، جامعة باجي مختار عنابة ، دط، دت، ص57.

* ورد في القرآن الكريم قوله تعالى:﴿ **وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:188]. وفي قوله تعالى:﴿ **إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾[آل عمران: 140].

*****★ذكر ابن فارس (ت 395 ه) « دول أن الدال والواو واللام أصلان :أحدهما يدل على تحول شيء من مكان إلى مكان، والآخر يدل على ضعف واسترخاء ...فقال أهل اللغة: اندال القوم، إذ تحوّلوا من مكان إلى مكان .ومن هذا الباب تداول القوم الشيء بينهم: إذ صار من بعضهم إلى بعض ...». ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون،دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، دت، مج2، مادة "دول"، ص314. وقد دلّ التداول على التعاقب على الأمر.

المحسوسة، فيقال " نقل الكلام عن قائله " بمعنى رواه عنه، كما يقال:" دار على الشيء " بمعنى طاف حوله، فـــ" النقل " و" الدوران " يدلان بذلك في استخدامهما اللغوي، على معنى النقلة بين الناطقين، أو قل معنى " التواصل "، ويدلان في استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين، أو قل على معنى " التفاعل "، فيكون التداول جامعا بين جانبين اثنين هما: التواصل والتفاعل،... »[1].

يفهم من التحديد السابق لمفهوم التداول أنه يعني التناقل والدوران والحركة، وفي الاستخدام اللغوي يعني التواصل والتفاعل والتحاور والتخاطب، فيصبح الدال " تداول " يشمل الجانبين الحسي والمعنوي.

ويؤيّد بعض الدارسين*طه عبد الرحمن في هذا الطرح إذ يفضلون مصطلح التداولية أو (التداوليات بصيغة الجمع) بدلا من البراغماتية، أو المقامية، أو النفعية، أوالوظائفية « خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الـــ Pragmatics هي بالأساس دراسة اللغة من منظور تداولها بين مستعمليها.»[2].

وبهذا يكون الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن قد أحرز شرف السبق في تعريف القارئ العربي بالفكر التداولي،[3] ونقل هذا النسق المعرفي الغربي إلى أحضان الثقافة العربية الإسلامية، ولعل بفهمنا لهذه الآليات التداولية يتشكّل لنا وعي جديد وفهم مختلف وأكثر عمقا لكل ما أنتجته وتنتجه ثقافتنا من خطابات أدبية وسياسية وعلمية .

---

[1]– طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، دت، ص 244.

*ـ من بين هؤلاء الدارسين قصي العتابي مترجم كتاب التداولية لجورج يول الذي ذكر في مقدمة ترجمته له أن كل الترجمات الأخرى غير دقيقة ولا صائبة، وكلّها لا ترتقي إلى ترجمة طه عبد الرحمن، انظر جورج يول: التداولية، ص 15. ولا يزال المشارقة يفضّلون استخدام مصطلح البراغماتية والذرائعية والنفعية والوظائفية وعلم التخاطب ... وهي ترجمات ملبسة وتتسم بالغموض وغير موفقة. انظر: إدريس مقبول: الأفق التداولي نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، دط، 2011، الهامش ص 8.

وقد استعير لمصطلح Pragmatics مقابلات عربية تراثية ذات أبعاد إسلامية مثل " علم المقاصد " أو " المقاصدية " و" علم الذرائع " أو "الذرائعية " ولهذه الاختيارات أثر سلبي. انظر محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية، ص 5.

[2]– جورج يول: التداولية، ص 15.

[3] - انظر إدريس مقبول: الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، ص 7.

وإذا ما نقّبنا البحث في تضاعيف المعاجم الغربية[1] نجد أن Pragmatics مشتقة من الجذر اللغوي Pragma وتعني الفعل أو العمل.[2]

ويظهر أن لفظ Pragmatique قد لحقته تغييرات صوتية ودلالية:

الإغريقية: Pragma – tikos (Pragma + ikos)

اللاتينية: Pragmaticus

الإنجليزية: Pragmatics

الفرنسية: Pragmatique[3]

ويقترن مصطلح Pragmatique في اللغة الفرنسية بالمدلولين التاليين: محسوس وملائم للحقيقة، أما مصطلح Pragmatics الانجليزي فيحيل إلى كل الأعمال والأفعال والوقائع الحقيقية. [4]

وبمقارنة ما ورد في اللغتين الفرنسية والإنجليزية نجد أن دلالة المصطلحين متقاربة، إلا أنّ دلالة المصطلح الإنجليزي Pragmatics تحيل مباشرة إلى دلالة الجذر اللغوي Pragma الذي يعني فعلا أو عملا حسب ترجمة بعض الدارسين العرب له، باعتبار أن مصطلح Pragmatics الإنجليزي يتعلق بكل ما له صلة بالأعمال والوقائع. ومن ثمة نستنتج أن الدلالة اللغوية تعضّد الدلالة الاصطلاحية.

وبالرغم من أنّ التداولية – في الآونة الأخيرة– اكتسحت ساحة الدراسات الأدبية والنقدية، وصارت مجالا خصبا لمعالجة الكثير من القضايا اللغوية التي عجزت الكثير من المذاهب اللسانية عن تفسيرها وتحليلها، إلا أنّها لم تحظ بالعناية اللازمة، حيث توصل بعض الدارسين للحطّ من قيمتها، والتشكيك في نتائجها وأهدافها، ونعتها بنعوت سلبية فأطلقوا عليها "سلة المهملات Waste basket [5]". ووصفها البعض بأنّها قمامة اللسانيات La poubelle

---

[1]– ورد تحديد مفهوم التداولية في معاجم غربية كثيرة نذكر منها:

- Patrick Charaudeau et Dominique Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, éditions du Seuil, Paris, Février 2002, P 454.
- JacqueMoeschler et Anne Reboul, Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, éditions du seuil, Octobre 1994, P 17.

[2]– ينظر السعيد بوطاجين: الترجمة والمصطلح، ص 147.

[3]– المرجع نفسه، ص 151.

[4]– فيليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 09.

[5]– جورج يول: التداولية، ص23.

de linguistique »[1]. ونعتها البعض الآخر بمرقعة الدراويش وهي ترجمة حرفية للمصطلح الذي استعملته الباحثة أوركيوني **Orecchioni**[2] ، و يضيف باحث آخر بأن التداولية قد« عُومِلَتْ في تلك الأيام البعيدة ككيس من الفضلات محشوٌّ بمعلومات »[3].

فكل ما لم يتم معالجته في إطار النظرية اللسانية، يطرح في سلة مهملات التداولية. ومن الملاحظ أن « محتويات سلة المهملات تلك لم يتم ترتيبها في بادئ الأمر تحت تصنيف معين، ولكنها عرفت سلبيا على أنها المواد التي لم تعالج بسهولة ضمن طرائق التحليل الشكلية. لذا، فإذا أردنا فهم بعض المواد التي سنستخرجها من سلة المهملات، علينا أن نتعرف على كيفية وصولها إلى السلة أصلا»[4].

وفي المقابل نجد فريقا آخر يقف موقفا مناقضا، فاعتبر التداولية هي الحل السحري لكثير من المشكلات اللغوية التي لم يتم معالجتها في إطار الدراسة الشكلية، فقد أشيعت تصورات خاطئة ومفاهيم مغلوطة عنها_على حد تعبير مسعود صحراوي_ قصد التقليل من شأنها و الحطّ من قيمة نتائجها.

حيث يشير في هذا السياق بقوله:"...ليست سلة لمهملات اللسانيات، بحيث تعتبر كل ظاهرة عجزت اللسانيات عن حلها مجالا للبحث التداولي، وهذا يقتضي أن الظواهر التي تدرسها التداولية ليست مهملة ولا متروكة بالضرورة. ومن ثمّ فهي تقوم بإزالة الغموض عن عناصر التواصل اللغوي، وشرح طرق الاستدلال ومعالجة الملفوظات ...بل هي تشبه أن تكون مرحلة وسيطة بين المعارف اللغوية و المعارف الموسوعية ..." [5] .

وبين مطرقة الرفض وسندان القبول تمكّنت التداولية في الآونة الأخيرة ، من احتلال موقع استراتيجي هام على خارطة البحث اللغوي ، بما قدمته من نتائج قيمة في مجالات معرفية عديدة، وهذا

---

[1] - Jacques Moeschler et Anne Reboul: Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, p493.

[2]- ينظر عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013، الهامش، ص 07.

[3]- ينظر منال النجار: مفهوم البراغماتية ونظرية المقام في المقولات المعرفية ولدى علماء العرب ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة، ص63.

[4]- جورج يول: التداولية، ص 23.

[5] - مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب، ص27.

ما أفضى إلى اعتناق كثير من الباحثين ومن مختلف أنحاء العالم لها ، ومن ثم عُدّ الأفق التداولي فتحا جديدا في مجال الدرس اللغوي.

وعلى هذا الأساس يمكن أن ننظر إلى هذا الأفق على أنّه"أفق انعتاق المعنى من إسار التوظيف والاستخدام بتعبير أمبرتو إيكو، وهو أفق لمواجهة العنف التأويلي في غضب النصوص على قول ما لا تقوله...". [1]

وما يميّز الحقل التداولي هو احتواؤه على الكثير من النظريات والأفكار،وانفتاحه على الكثير من المعارف والعلوم وقد صار –على حد تعبير- جورج كليبارGeorge Clebar « علما متناميا، ومجالا رجراجا شديد الانفتاح ».[2]

إن تشعب التداولية واستقاء أسسها ونظرياتها من علوم مختلفة، وتداخلها مع تخصصات ومجالات معرفية متاخمة لها، يعدّ كل ذلك سمة جوهرية مميّزة لها، بل ولكثير من التخصصات التي ظهرت في القرن العشرين على غرار لسانيات النص وتحليل الخطاب والبلاغة الجديدة ... وكل هذه الفروع اللغوية تسعى جاهدة لوضع مفاهيم ومقولات جديدة، تتضمن آليات لغوية وغير لغوية، تساعد على الإحاطة بعالم الخطاب الداخلي والخارجي بما في ذلك منتجه ومتلقيه والظروف التي أسهمت في تشكله.

وحتى لا يسود الحقل التداولي اضطراب وفوضى وتداخل في المصطلحات يؤكد المختصون في هذا المجال على ضرورة وضع حدود فارقة بين مصطلحي Pragmatics وPragmatism* وإن كان «اللفظان الأجنبيان من أصل واحد ».[3]

إلا أن المصطلح الأول يمثّل ذلك الفرع اللساني الذي يعنى بمعالجة الظاهرة اللغوية في إطار سياق التواصل، ومن ثمة انصب اهتمام الباحثين على دراسة المسائل المرتبطة بالطريقة التي تستعمل بها

---

[1] – ينظر ادريس مقبول : الأفق التداولي، ص03.

[2] – ينظر فيليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، مقدمة المترجم، ص 01.

*اشتق الرومان Pragmaticus وقصدوا بها المتمرس في المسائل القانونية خاصة، وتنسب الموسوعة البريطانية أول استعمال لها إلى المؤرخ الإغريقي بوليبوس المتوفي سنة 118 ق.م وقد أطلق هذه التسمية على كتاباته لتعني تعميم الفائدة العلمية، ولتكون منبرا تعليميا وقد استخدمت في اللاتينية Pragmaticus وقد اشتقت منها اللغة الإنجليزية جميع المفردات التي ترتبط بكلمة Practice وأهمها Pratical التي خرجت من رحمها الفلسفة البراجماتية Pragmatism ، انظر محمود عكاشة :النظرية البراجماتية اللسانية، ص 09.

[3] – محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية ، ص 05.

اللغة في التواصل وبالكيفية التي تمكّننا من فهم مقاصد المتكلمين ، وما هي الإمكانيات التي تتيحها لنا اللغة للتأثير في الآخرين واستمالتهم ؟ وكيف يمكن تغيير "عادات القراءة التقليدية ،وطرق التحليل النحوي المعروفة ،التي خدمت اللغة قرونا طويلة،وما زال." [1] وكيف يمكن عقد صلة بين البنى اللغوية وسياقاتها الخارجية من أجل الوصول إلى فهم أعمق للنصوص؟

وكل هذه الإشكالات و المسائل تتولّى الإجابة عنها التداولية أو البراجماتية.

أما المصطلح الثاني فقد ترجم إلى النفعية والذرائعية والغائية وهو مذهب فلسفي أسّسه الفيلسوف الأمريكي تشارلز **ساندرس بيرس Ch. S. Peirce** في القرن التاسع عشر « إذ أصبح مصطلحا فلسفيا في عام 1878، غير أن بيرس صاغ المصطلح برسم مختلف (Pragmaticism) في عام 1905 ليكون شارة على منحاه الخاص في هذا الاتجاه ».[2]

أما من كان له فضل السبق في إذاعتها ونشرها الفيلسوف الأمريكي **وليام جيمس** William James، وتتأسس نظرته لهذه الفلسفة على « أن قيمة الأفكار المجردة تقاس بمدى انطباقها على الواقع أو بإمكانية تبلورها عمليا، وأنّه حتى حين تكون الأفكار غير عملية فإن الواقع التاريخي والعملي يظل مهيمنا عليها، ومن هنا أمكن تسمية هذه الفلسفة، التي أصبحت سمة على الثقافة الأمريكية، الفلسفة العملية ».[3]

و نتج عن هذا التيار الفلسفي ذو النزعة العملية ظهور تداولية أمريكية صارت فيما بعد سمة على الثقافة الأمريكية، حيث مكّنت هذه الخلفية الفلسفية التيار التداولي من دراسة القضايا اللغوية من خلال آثارها العملية. ويذهب الدارسون إلى أن مصطلح Pragmatique هو اصطلاح لـــ**كانط** Emmanuel Kant وقد أدرجه شارل موريس **Charles W. Morris** في مجال الدراسات اللسانية، ثم تبناه **بيرس** في بناء نظرية عامة للعلامات.[4]

---

[1]- أحمد عفيفي: نحو النص، ص09.

[2]- ميجان الرويلي وسعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005، ص 168.

[3]- المرجع السابق، ص ن.

[4]- ينظر عبد السلام اسماعيلي العلوي: ما التداوليات ؟ ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة، لحافظ اسماعيلي علوي، ص 19.

و استعمل **موريس** مصطلح Pragmatique* في دراسته الشهيرة " تأسيس نظرية العلامات " التي نشرها سنة 1938[1]. ويعد تعريفه للتداولية من أقدم التعريفات التي قدمت في هذا الشأن حيث يرى موريس أن:« العلاقة التداولية و(هي علاقة العلامات بالمتخاطبين أو المؤولين)».[2]

نلاحظ أن شارل موريس تحدث عن العلامات ولكن بشكل عام، أي أنّه لم يحدد لا نوعها ولا طبيعتها ،لأن العلامات التي يتداولها المخاطبون فيما بينهم في سياق تواصلي معين تكون إمَّا علامات لغوية تتمثل في النظام اللغوي العادي الذي نستعمله في سياق التخاطب اليومي، أو تكون علامات غير لغوية كالإشارات والرموز وكلها أنظمة تستخدم للتبليغ والتفاعل، وانطلاقا من هذا التصور عدَّ موريس التداولية أحد فروع علم السيمياء.

وقد أورد جون ديبوا **J.Dubois** في معجمه اللساني تحت اسم التداولية إمكانية تصنيف اتجاهات متعددة، فقد كانت تعنى بخصائص اللغة في الاستعمال، أي المحفّزات النفسية للمتكلمين، وردود أفعال المتلقين، والنماذج الاجتماعية للخطاب وموضوعه،من خلال مراعاة الظواهر التركيبية الدلالية، ثم تركّز اهتمام ج.ل. أوستين فيما بعد على دراسة أفعال اللغة.[3]

يرى جون ديبوا أنّه وإن تعددت موضوعات التداولية، وتنوعت قضاياها، فإن نظرية أفعال الكلام ستظل من أهم مباحثها، وقد حظيت بنصيب وافر من اهتمام الفيلسوف الانجليزي أوستين، حيث ذهب إلى أن تلفظنا بعبارات اللغة ما هو إلا إنجاز لأفعال معينة .

---

*- نشأ مصطلح التداولية أو البراجماتية في أحضان الفلسفة الكلاسيكية، ثم انتقل إلى الفلسفة الحديثة على يد شارل ساندرس بيرس ووليام جيمس، ثم انتقل إلى اللسانيات في أعمال بيرس وموريس. انظر محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية، الهامش ص 09. وقد حدّد بيرس مفهوم البراجماتية من خلال اطّلاعه على جهود الفلاسفة التجريبيين وجهود إيمانويل كانط.، انظر المرجع نفسه، ص 10.

1- فيليب بلانشيه:التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص32.

2- المرجع نفسه ، ص ن.

3- " Sous le nom de pragmatique, on regroupe des orientations très diverses. A l'origine, elle à concerné les caractéristiques de l'utilisation du langage (motivations psychologiques des locuteurs types socialises de discours, objet du discours, etc) par opposition à l'aspect syntaxique et sémantique … en suite avec l'étude des actes de langage … ".Jean Dubois et autres: dictionnaire de linguistique et des sciences du langage la rousse,1994,Quebec , P 375.

ويمكن أن تكون هذه الأفعال _حسب تقديرنا _ بيعا وشراء ومواثيقا ونذورا وعقودا فيتحول بذلك القول إلى فعل.

ويتقاطع تعريف جون ديبوا مع تحديدات جورج يول للتداولية إذ يرى هذا الأخير أن:[1]

– التداولية تعنى بدراسة مقاصد المتكلم.

– التداولية هي دراسة معاني العبارات اللغوية في إطار سياق تواصلي معين .

_ تتجاوز التداولية الدلالة الحرفية لفعل التخاطب إلى البحث في الدلالات الخفية والتي لم يتم التصريح بها في عالم الخطاب.

– تعنى التداولية بذلك القدر المشترك من المعلومات بين المتكلم والسامع، ودرجة قربهما من بعض أثناء العملية التواصلية.

وينظر جورج يول إلى التداولية من زوايا متعددة:

– الزاوية الأولى هي زاوية المخاطب/المتكلم حيث يتم التركيز على المعاني القائمة في نفس من يوجه الخطاب (المتحدث).

– وتتعلق الزاوية الثانية بدراسة ما يقصده الناس بكلامهم في مقام معين باعتبار أن لكل " مقام مقال "، ومدى تأثير السياق فيما يُتَلَفَظُ به.

– وتختص الزاوية الثالثة للتداولية بتجاوز الدلالة الحرفية للمقول والنظر في المعنى المستلزم على أنّه جزء من المعنى الحرفي الذي تم تبليغه.

– أما الزاوية الأخيرة فتتضمن مفهوم التباعد النسبي، وتعني هذه العبارة الخلفية المعرفية المشتركة بين طرفي التخاطب ، بحيث يحدّد المتكلم الكم المناسب من العبارات المتلفظ بها على حسب درجة قرب المستمع منه أو بعده عنه.[2]

---

[1]– جورج يول: التداولية، ص 19-20.

[2]– المرجع السابق، ص ن.

كما تُعَرَّفُ التداولية على أنَّها « مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية (...) وهي كذلك الدراسة التي تعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية... »[1].

ويُفْهَمُ من التعريف السابق أن التداولية تعنى بدراسة اللغة في إطار سياق التواصل، وتنظر إلى مدى ملائمة الرموز والإشارات اللغوية المستعملة في الخطاب للسياق أو مقام التلفظ.

ويرى **ليفنسون Levinson** أن التداولية تختص بدراسة الأسس والمبادئ التي تمكننا من فهم وإيضاح الشذوذ في بعض التراكيب [2] أو "عدم ورودها في لغة المتكلم"[3].

بهذا التحديد يلخص ليفنسون أهداف التداولية في كونها قادرة على معالجة الظواهر اللغوية التي عجزت اللسانيات البنيوية عن تفسيرها،كتعليل بعض العبارات التي تتّسم بالغرابة والغموض، وكذا الملفوظات التي لا تحظى باستحسان المستمع أو قبوله.

ويلاحظ الدارسون أن المعنى ينقسم إلى المستويات الآتية[4]:

- معنى الكلمات والجمل والضمائم ويمثل-حسب تصوري- الدلالة الحرفية للقول المنجز أو المعنى المباشر.
- معنى سياقي يستشف من السياق أو مقام التلفظ.
- معنى المتكلم أو ما يسمى بمقاصد المتكلم ويمكن أن أطلق على هذين المستويين الأخيرين بالمعنى المستلزم أو غير الحرفي.

وبناء على ما سبق نستنتج أن مختلف التعريفات التي قُدِّمَتْ للتداولية تجمع بينها بعض القواسم المشتركة تتمثل في:

1-التركيز على الاستعمال الفعلي للغة داخل السياق.

2-دراسة المعنى السياقي.

---

[1]- فيليب بلانشيه التداولية :من أوستين إلى غوفمان، ص 10.

[2] - انظر محمود أحمد نحلة:آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 11.

[3]- انظر نور الدين أجعيط: تداوليات الخطاب السياسي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012، ص 51.

[4]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 13.

3- دراسة مقاصد المتكلمين.

4- عدم الاكتفاء بالدلالة المباشرة للملفوظ.

5- دراسة العلامات اللغوية وعلاقتها بمؤوليها.

6- تعليل وتفسير القضايا اللغوية بالاعتماد على الاستدلالات غير اللغوية.

وبرغم ما قدّمه الكثير من الدارسين من تعريفات للتداولية، إلاّ أنّه لم يسلم تعريف منها من بعض المآخذ أو الثغرات. ومن التعريفات التي تتّسم بالوضوح والدقة والإيجاز والإلمام بجوانب الموضوع وأهداف الدراسة التعريف الآتي الذي يقرّ فيه فان دايك بأن التداولية:« تختص بوصفها علما بتحليل الأفعال الكلامية ووظائف منطوقات لغوية وسماتها في عمليات الاتصال بوجه عام...ولذلك تعد البراجماتية في حد ذاتها ابتداء وصفا للعلاقات بين العلامات ومستخدمي العلامات."[1] .

يركّز هذا التعريف على مختلف جوانب البحث التداولي، فالتداولية عموما تنظر إلى اللغة على أنّها لعبةٌ يتجاذبها طرفان (المتكلم والمستمع)، وحتى يتمكن المستمع من فهم قواعد هذه اللعبة الكلامية للوصول إلى المقاصد الحقيقية للمتكلم، عليه أن يحيط بكل الظروف والملابسات التي أنتج فيها الخطاب لفهم ما غمض من معانيه. وبالنظر إلى كل هذه الجوانب يُحَوّلُ اللغة من موجود بالقوة إلى موجود بالفعل، ومن هنا كان تركيز التداولية على الاستعمال الفعلي للغة في إطار سياق تواصلي محدد.

ثانيا– التداولية: النشأة والتطور:

1: نظرة موجزة في الجذور التاريخية للعلم

يُرْجِعُ الدارسون البدايات الأولى للتداولية إلى العصور الكلاسيكية، وتحديدا منذ ظهور الدراسات البلاغية القديمة حتى العصر الحديث، مرورا بما أبدعه الفكر العربي في مجال الإنشاء والخبر تحت ما يسميه أعلام البلاغة العربية بعلم المعاني، حيث تتلاقى هذه الدراسات جميعها في التعامل مع المؤسسة اللغوية في نطاق مقام اجتماعي عام.[2]

[1]– فان دايك: علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد حسن البحيري، دار القاهرة للكتاب، مصر،ط1، 2001. ص114و115.

[2]– محمد صلاح الدين الشريف: أهم المدارس اللسانية، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط2، 1990، ص 98.

كما عكف الفلاسفة منذ القديم على النظر في القضايا اللغوية، حيث اصطبغ عملهم بصبغة تداولية من خلال إيجاد وشائج تصل بين اللغة وخاصة المنطق الحجاجي من جهة، والآثار التي يحدثها الخطاب في المستمع من جهة أخرى، "وقد طوروا منذ أفلاطون وأريسطو ووصولا إلى سيناك " Sénéque " وشيشرون " Céréron " وكونتليان "Quintilien" منوالا كلاسيكيا للبلاغة ،يقوم على معرفة الانفعالات والطبائع ".[1]

يتبين أن المقولات الفلسفية وكذا البلاغية القديمة تشترك مع البحوث والدراسات الحديثة في العناية بالسياق التخاطبي، وما يتعلق به من أحوال المخاطبين وأغراض الخطاب، وتأثير كل ذلك على المتلقي عن طريق استعمال الحجج المنطقية للتأثير في جمهور المخاطبين.

ويتسم البحث في قضية المعنى عند سقراط بسمة العلمية، لذلك انصب جهده على « مناقشة المعاني المختلفة للمبادئ العقلية الكامنة وراء الظواهر السلوكية للوقوف على المعنى الواضح السليم لتلك المبادئ والمفاهيم التي يصدر الناس عنها في سلوكهم ».[2]

فالفهم السليم للسلوك البشري من منظور سقراط يرتكز على تفسير المبادئ الكامنة خلف هذا السلوك. وأن هذه الظواهر السلوكية ليست مجرد حركات أوتوماتيكية تؤدى آليا، وإنّما تخضع لضوابط العقل فهو الذي يوجهها ويتحكم فيها، وما اللغة إلا مظهر من مظاهر السلوك البشري الذي يعتمد تفسيره على فهم هذه المبادئ العقلية، وفي هذا إشارة واضحة إلى عناية سقراط بالخلفية التي تحيط بعملية التلفظ.

و قد سعى السفسطائيون في العهد الإغريقي للكشف عن الآليات التي تمكنهم من إقناع المخاطبين واستمالتهم بشتى الوسائل، حيث استعانوا في سبيل تلك الغاية على خبرتهم بالطبقات المقامية ، وفعل القول معا، ونظروا أيضا في آليات إجراء اللغة حسب أغراض المخاطبين ومقاصدهم، والظروف التواصليـــة ووجه أفلاطون نقدا لاذعا لهم [3] واعتبرهم « أدعياء على العلم والمعرفة »[4].

---

[1] – فيليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 12.

[2] – محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية ، ص 23.

[3] – محمد سالم الأمين طلبة: الحجاج في البلاغة الأريسطية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط1، 2008. ص 25 و26.

[4] – المرجع نفسه، ص 25.

و ما يفهم من هذا القول أن الخطابة عند السفسطائيين غير معقلنة، إذ أنها تسلك مسلكا عاطفيا لأنها تهدف إلى التأثير في الآخرين بشتى الوسائل ومختلف الطرق ولذلك عدهم أفلاطون أدعياء على العلم والمعرفة.

و يتميز الفكر الأرسطي ببنائه للخطابة على الاحتمال والتعدد، أمّا الإقناع عنده فهو عقلنة الخطاب، دون إقصاء مبدأ إحداث التأثير بواسطة الأهواء والانفعالات.[1]

فقد حاول أرسطو أن يوفق في طرحه الخطابي بين اتجاهين مختلفين، حيث يرتكز الاتجّاه الأول على مبدأ إحداث الإقناع بواسطة المنطق والعقل، وهذا لايقصي من منظوره الاتجاه الثاني الذي يحاول استمالة المتلقي من خلال مجاراة أهوائه وانفعالاته، و الإقناع من هذه الزاوية يكون مبنيا على الظن والاحتمال، وهو بهذا التصور يناقض أطروحة أفلاطون التي ترى أن الإقناع المبني على الظن والاحتمال غير مفيد ولا جدوى منه.

وقد تراوح الخطاب عند أرسطو بين الخطاب البرهاني والخطاب الاستشاري والخطاب القانوني[2]. وكلّها تولي أهمية **للغة** أو **اللوغوس**.[3]

وهذه التفريعات للخطاب كانت مرتكزا أساسيا للأعمال والدراسات اللغوية التي انطلق منها أوستين وسورل، كما أن تصنيف موريس للخطاب يعد المرجع الأساسي للتداوليين، ليكون ذلك تحسينا للتصنيف الذي قدمه أرسطو.[4]

وإذا كان اهتمام الفلاسفة الإغريق قد انصب على اللغة أو اللوغوس كما ذكرنا، فقد تحوَّل هذا الاهتمام إلى الخطيب عند الرومان وتحديدا عند **شيشرون** و**كونتيليان** من بعده، فصار ينظر

---

[1]- أمينة الدهري: الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1،2011، ص 5.

[2]- محمد العمري : في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 31.

[3]- أمينة الدهري: الحجاج وبناء الخطاب، ص 05.

[4]- فيليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 13.

للخطيب في المجتمع الروماني على أنّه القدوة التي يجب أن يحتذى بها لما يتحلى به من فضيلة وسيرة حسنة، وبما يتمتع به من قدرة بيانية وقوة إقناعية[1].

وصَنَفَتْ البلاغة الكلاسيكية بشكل عام صناعة الخطاب إلى الأقسام الخمسة الآتية[2] : قسم البصر بالحجة **L'invention** وقسم الترتيب **La disposition** وقسم العبارة **Locution** وقسم الاستظهار **La mémoire** وقسم العمل **L'action**.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أنّ الإرث الفلسفي الذي خلّفه سقراط وأفلاطون وأرسطو وجهود المدرسة الرواقية وغيرها ... ما يزال مَوْرِداً لا ينضب ينهل منه الباحثون جميعا. إلاّ أنّ ما يعوز هذه الإسهامات القديمة هو افتقارها لرؤية منهجية واضحة تنطلق منها أو تتجه إليها، فكانت بذلك مجرد تأملات فلسفية متفرقة في ثنايا الكتب التراثية.

لذا نستنتج أنّه قد كان للفلاسفة القدامى وعيٌ بضرورة النظر إلى اللغة على أنّها وسيلة للتواصل والتفاعل الهادف، ومن ثمة يمكن القول إنّ التداولية ما هي إلا « اسم جديد لطريقة قديمة في التفكير وهي ليست سوى تطبيق للمبدأ المعبّر عنه في الكتاب المقدس بالعبارة" تعرفها بثمارها" "."[3]

وبعد إلقائنا نظرة مقتضبة على الجذور التاريخية للتداولية، أقف الآن عند أهم المحطات التي أسهمت بشكل مباشر في تطور هذه المقاربة اللسانية.

2- الاتجاه التداولي في الدرس اللساني الحديث:

بدأت تبرز البدايات الأولى لهذا التوجه الجديد في الدرس اللساني ضمن المشروع السيميائي المنطقي للفيلسوف الأمريكي شارل ساندرس بيرس .

ومن أعماله التي تصبّ في إطار المعرفة التداولية كتابه الموسوم بـــ " نظام وصف الإشارات سنة 1870، ومؤلفه الثاني المتعلق بـــ " فلسفة الإشارات " سنة 1884، ويركز في هذين العملين على الوظيفة المنطقية للإشارة ، بخلاف سوسير الذي كان يركز على الوظيفة الاجتماعية، وضمن مقاله " كيف نجعل أفكارنا واضحة ؟ " سنة 1878، تطرق إلى التعريف بـــ" الفعل اللغوي، ويُعَدُّ مقاله هذا امتدادا لمقال آخر نشره سنة 1877 ، " تثبيت المعتقد " وقد درس مفهوم الأفعال اللغوية في مقالات عديدة جُمِعَتْ في شكل

---

[1] - أمينة الدهري: الحجاج وبناء الخطاب ، ص05.

2 ــ فيليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 15 .

[3] - ينظرنعمان بوقرة: المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، دط، 2004، ص167.

محاضرات أطلق عليها (محاضرات في البراغماتية)[1]، ويرى بيرس أن حقيقة المعنى لا يمكن استجلاؤها من الفعل ، بل من الغاية القصوى التي يحيل إليها الفعل.[2]

يفهم من التحديد السابق أن بيرس يذهب إلى أن تغيير الوقائع يكون بواسطة العمل، فكلما كانت الأفكار نفعية أدّت إلى نتائج علمية .

وفي سنة 1905 نشر مقالتين (ما هي البراغماتية) و (نتائج البراغماتيزم) وفي السنة الموالية وتحديدا سنة 1906 نشر مقالا ثالثا تحت عنوان (نظرة في البراغماتيزم).[3]

وتمثل هذه المقالات مرحلة نضج المعرفة البراغماتية والتي عدت براغماتية فلسفية استمدت مشروعية وجودها من رحم فلسفة اللغة .

كما مثلت إصدارات بيرس المختلفة (كتب، مقالات) المحطات الحاسمة لنشأة الفكر التداولي وتطوره، كما تأثر بيرس بأعمال كانط وأخذ عنه مصطلح البراغماتية، وتحدّد مفهوم البراغماتية عنده في بادئ الأمر على أنّه منهج أو طريقة في التفكير وليس نظرية في الفلسفة [4] ثم بعد ذلك أولى عناية للناحية العملية والأثر الناتج عن سلوك معين، وفي المرحلة الثالثة اصطبغ عمله بالصبغة المنطقية، وعدّ ذلك تحوّلا من "الفهم الإجرائي للقاعدة البراغماتية إلى الفهم المنطقي الخالص"[5] وكان هدفه الوحيد في تلك الفترة هو " اكتشاف طريقة يتم بموجبها الاتّصال بين الناس، هذا الأخير الذي لا يمكن أن يتم إلا من خلال الإشارات".[6]

كما أضفى بيرس على دراسته الطابع العقلي، وذلك كرد فعلي على براغماتية وليام جيمس التي كانت مناهضة للعقل، فنقل بيرس التفكير التداولي من المحسوس الذي حصره فيه الإنجليز إلى المعقول،[7]

---

1 - ينظر محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية ، ص 27 و ص 28 . و انظر فيليب بلانشيه :التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص18. و نعمان بوقرة: لسانيات الخطاب، مباحث في التأسيس والإجراء، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2012 ص78.

2 - ينظر نعمان بوقرة : لسانيات الخطاب، مباحث في التأسيس والإجراء ، ص 80 .

3 - المرجع السابق ، ص 77.

4 - المرجع نفسه ، ص 77.

5 - ينظر نعمان بوقرة: المدارس اللسانية المعاصرة، ص 175 .

6 - المرجع نفسه، ص ن.

المعقول،[1] ومن ثمَّة يمكن عدُّ بيرس بمقتضى كونه سيميائيا ، أنّه كان له دور أساسي وبارز في تأسيس الحقل التداولي، بعد أن حدّد معالمها وليام جيمس الذي استطاع أن يبلور منها نظرية في الحقيقة وذلك سنة 1906، وقد صاغ منها جون ديوي **J.Dewey** نظرية أداتية[2] وتعني الأداتية قاعدة العمل، والتي تمكننا فعليا من الوصول إلى العمل.

لذا نستنتج أن فلسفة بيرس تسعى إلى تغيير العالم على أسس براغماتية ، وترى أن الحقيقة من صنع البشر وحتما تؤدي إلى نتائج ملموسة ، ولا تعنى البراغماتية بالبحث عن مصدر الفكرة، ولا بكيفية تشكلها، وإنّما بالأثر الناتج عن هذه الأفكار وتأثيرها الفعلي على حياة الفرد وسلوكاته.

ومن الذين اقتفوا أثر بيرس الفيلسوف الأمريكي شارل وليام موريس **Ch. William Morris** (1901-1979) حيث عمد إلى تطوير المشروع السيميائي لأستاذه بيرس ، ويؤكد الباحثون أنه يعود إلى موريس فضل استخدام مصطلح التداولية بمفهومها الحديث، وقد عدّها اتجّاها من بين اتجّاهات ثلاث تدرس اللغة إلى جانب علم التراكيب وعلم الدلالة[3].

و تنضوي كل هذه الفروع تحت مجال معرفي رحب هو السيميائيات فـــ " أثناء وصف السيميائيات تفترض اللسانيات التداولية مسبقا كل من الدراسة التركيبية والدلالية،... لأن المناقشة الحصيفة السديدة لعلاقة الأدلة بمؤوليها تستلزم معرفة علاقة الأدلة بعضها ببعض وكذا علاقة الأدلة بالأشياء التي يحيل عليها المؤولون"[4].

ويرتكز وصف السيميائيات أساسا على وصف النواحي التركيبية والدلالية ثم التداولية ، بمعنى آخر أنّه لا يمكن أن تتم المعالجة التداولية للملفوظ إلا بعد النظر في العلاقة الشكلية للأدلة ثم علاقتها بما تدل عليه أو تحيل إليه، ومن هنا عدت التداولية أحد فروع علم السمياء.

---

1 - المرجع نفسه، ص ن.

2 - فليب بلانشيه : التداولية من أوستين إلى غوفمان ، ص 18 .

3- Andrian akmajian et al :Linguistics an introduction to language and communication, the mit press, combridge, Massachusetts, London, England, 2001, p 360

4- الجبلالي دلاش :مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ترجمة محمد يحياتن ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، دط، دت، ص 11 .

ويرى موريس أن ألفاظ التعجب مثل (أواه / Oh) واسم فعل الأمر مثل أن يقال (تعال come hère)، وتعابير مثل (صباح الخير Good Morning) ، ومختلف الأساليب الإنشائية والبلاغية التي تستعمل في سياق التخاطب اليومي وغيرها عُدِّتْ في الآونة الأخيرة من صميم البحث التداولي. [1]

يفهم من الطرح السابق أن ألفاظ التعجب واسم فعل الأمر وعبارات التحية شائعة أكثر في سياق تواصلنا اليومي، و مثل هذه الظواهر اللغوية لم تحظ باهتمام الدارسين في الأنحاء الشكلية السابقة، بل عجزوا عن إيجاد تفسير مقبول ومقنع لها في إطار تحليلاتهم للغة، وقد صارت في الآونة الأخيرة موضوعا خصبا للدرس التداولي، لأن كل ما لم يتم معالجته في إطار اللسانيات يلقى في سلة مهملات التداولية كما سبق لنا الإشارة إلى ذلك.

وتشير بعض الدراسات إلى تأثر شارل موريس بالفلسفة التحليلية التي تعد من أبرز تيارات فلسفة اللغة [2]. ويشترك أعلام الفلسفة التحليلية جميعا في الاهتمام باللغة الطبيعية إلا أنَّ هذا الاهتمام (باللغة الطبيعية) اصطبغ قبل الحرب العالمية الثانية بصبغة منطقية، فكان كل من المنطق الرياضي والفلسفة التحليلية متلازمين. [3]

وبعد الحرب العالمية الثانية شهد هذا التلازم نوعا من التوتر والارتجاج إذ تحول مركز اهتمام الفلاسفة التحليليين من المنطق إلى اللغات الطبيعية وقد اتّسم عملهم بـــ:

- ضرورة التخلي عن النظرة السلبية للغة العادية.
- يجب أن ينصب الاهتمام على المنطق الخاص للغة العادية .
- إبراز أهمية البعد التداولي للغة العادية. [4]

و انبثق عن تيار الفلسفة التحليلية مجموعة من الاتجاهات نوّضحها في المخطط الآتي:[5]

---

1 – ينظر إسماعيلي حافظ العلوي: التداوليات علم استعمال اللغة ، ص 66.

2 – محمود عكاشة :البراجماتية اللسانية (التداولية) ، ص 29 .

3 – أدراوي العياشي: الاستلزام الحواري في التداول اللساني ، من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011، ص 74 و ص 75

4 – ينظر المرجع نفسه، ص75 .

5- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص24(بتصرف).

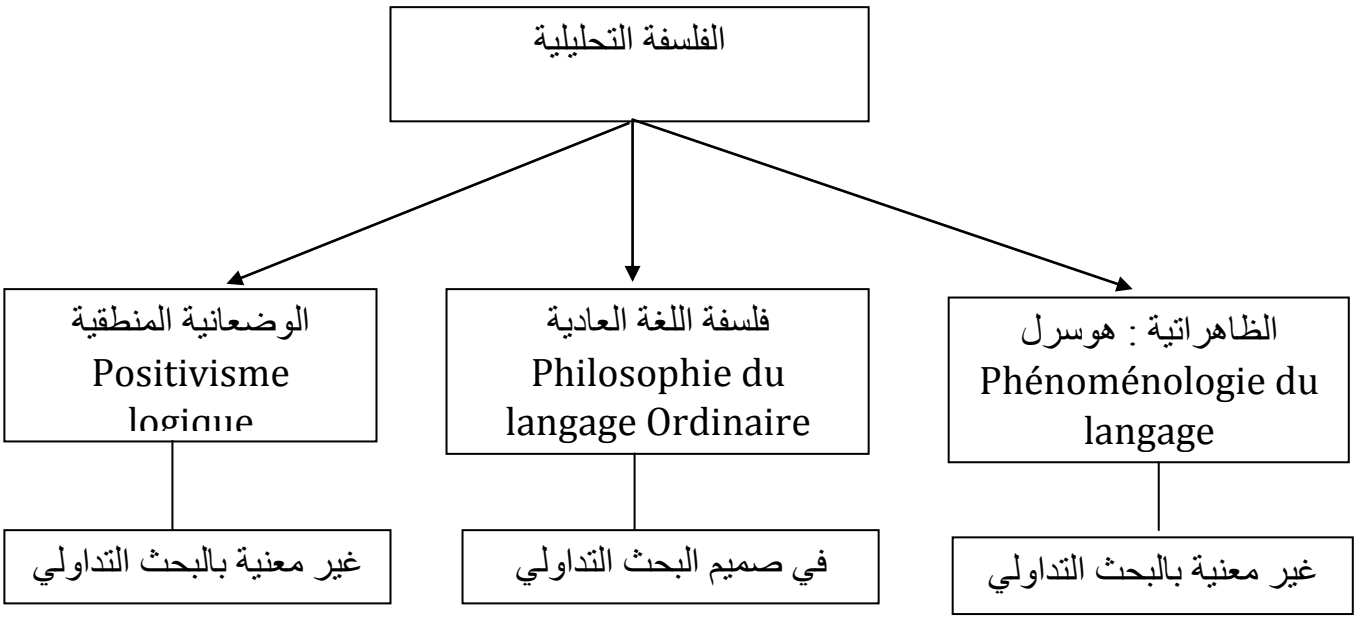

أفادت الظاهراتية التحليل التداولي بمبدأ القصدية **l'intentionnalité** ، حيث استثمر هذا المفهوم الفيلسوف أوستين في نظرية أفعال الكلام، إلا أن ما يعاب على هذا التوجه هو إيغاله في قضايا غاية في التجريد، أما الوضعانية المنطقية لرودولف كارناب **Rudolf Carnap** فقد اهتمت باللغات الصورية المصطنعة واتخذها بديلا عن اللغات الطبيعية. [1]

أمّا ما يميز توجه فيتجنشتاين **Ludwig Wittgenstein** هو نظرته التداولية إلى اللغة العادية التي تبلورت لديه بشكل فلسفي، فحاول إعادة التفكير في قضية المعنى بما يناسب أغراض الكلام وحياة الدلالة،[2] وعليه يكون "مدلول لفظة ما هو استعمالها في اللغة ".[3] وفي الخمسينيات من القرن العشرين وتحديدا سنة 1955 قدّم جون أوستين محاضرات ويليام جيمس، و لم يكن أوستين يهدف إلى تأسيس فرع لساني بل كان يرغب في استحداث فرع فلسفي في إطار فلسفة اللغة ، فكانت هذه المحاضرات النواة الأساسية للبحث التداولي اللساني بالإضافة إلى محاضرات بول غرايس سنة 1967 التي ألقاها في جامعة "هارفد" والتي تعدّ من أهم روافد البحث التداولي حيث أطلق عليه الدارسون " عراب التداولية".[4]

---

1 – المرجع السابق، ص 22و23.

2 – عمارة ناصر : الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي – منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2009 ، ص 69 .

3 – المرجع نفسه ، ص ن .

4 – جورج يول : التداولية ، ص 13 .

وفي أواخر الستينيات بدأ كارناب يولي عناية خاصة للسياق الذي يتضمن العناصر المشاركة في الحدث الكلامي ومؤشرات الزمان والمكان والمعتقدات ومقاصد المشاركين في الخطاب، حيث ساوى في تلك الفترة بين التداولية والسيمياء الوصفية.[1]

فحاول كارناب توسيع مجال التداولية باعتبارها تعنى بعلاقة العلامات بمستخدميها منطلقا من معارف مستمدة من الواقع الخارجي، و السياق، ومقاصد المشاركين، ومؤشرات المكان والزمان إلخ... ومن هنا عدّ التداولية " هي قاعدة اللسانيات... إذ يتأسس النحو الوصفي والدلالة وحدها على معارف براغماتية "[2].

يفهم من الطرح السابق أن علم النحو ليس مجرد قواعد شكلية يعرف بها صواب الكلم من خطئه كما أن علم الدلالة لا يتوقف عند حد البحث في دلالة الألفاظ والمفردات، وإنما تبنى القواعد النحوية والمفاهيم الدلالية من منظور كارناب على أسس تداولية ، وهذا على خلاف ما كان سائدا في الاتجاهات الشكلية، لأن التفاعل بين المتحاورين في الدرس اللساني المعاصر يجب أن يتم ضمن شروط نحوية ودلالية وتداولية محدّدة لتحقيق أهداف تواصلية معينة.

و قد كانت لدعوات كارناب صدى منهجيا واضحا في السبعينيات من القرن العشرين عندما بدأت تلوح في الأفق ملامح " علم جديد " علم يتجاوز المبادئ السوسيرية التي طالما كرّسها الدارسون من بعده " دراسة اللغة لذاتها ولأجل ذاتها " واعتبار الكلام ما هو إلاّ أداء فرديا يخضع لانفعالات ا لمتكلم ولأهوائه ولرغباته، فوجب إخراجه من دائرة الدراسة، كما أن المعنى مداخله صعبة ومتشبعة ولذا وجب التركيز فقط على الأشكال اللغوية التي عدّت من صميم الدراسة اللسانية .

كل هذه الحجج وغيرها التي ساقها أنصار هذا الاتّجاه ضيقت مجال الدراسة اللغوية ، فبرزت بعد ذلك محاولات جادة أخرجت المعالجة اللغوية من بوتقة التحليل البنوي لتتملص من دائرته الضيقة، لتحيا اللغة في فضـــاء رحب، فضاء يؤمن بأن الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل فعدّت التداولية بذلك " علم جديد في التواصل ".

1–انظر نادية رمضان النجار: الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي مؤسسة حورس الدولية ، الإسكندرية ، مصر ، ط1 ، 2013 ، ص12 . وانظر محمود عكاشة البراغماتية اللسانية ، ص 35

2 – فرانسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية ، ترجمة سعيد علوش ، مركز الإنماء القومي ،سوريا، دط، دت، ص 34.

أما من كان له فضل دمج التداولية في حقل اللسانيات فهو أوزفالد ديكرو " الذي أدخل التداولية في اللسانيات، ذلك أن التقاليد الأنجلوساكسونية منذ أعمال جون لانجشو أوستين ...ولاسيما كتابه " كيف نصنع أشياء بالكلمات " ومصنفات جون سورل ...وخاصة كتابه " الأعمال اللغوية " قد كانت ذات طابع فلسفي باعتبار انتماء أعلامها إلى الفلسفة التحليلية ... فإلى أ. ديكرو يعود فضل وضع التداولية في اللسانيات ... " [1] .

فما نستخلصه من الطرح السابق أنّه بفضل جهود ديكرو أصبح للتداولية موقعا على خارطة اللسانيات، وقد رسم حدودها ، ووضح معالمها باحثون ودارسون من مختلف التخصصات والمشارب ، فبرزت في الثمانينيات أعمال كل من أنسكومبر **Anscombre** وأوركيوني التي أكّدت على " ... البعد التداولي في اللغة langage معتبرة أنّه لم يعد بحاجة للاستدلال عليه ".[2]

وتشير **آن روبول وجاك موشلار** أنّه في إطار هذا السياق " تطورت التداولية في أوربا القارية وبالخصوص في فرنسا إثر أعمال أوستين وسيرل ، وكان ذلك بفضل اللسانيين فهـــــــي تداولية تسعى إلى أن تكون مدمجة في اللسانيات لا كتكملة لها ، بل كجزء لا يتجزأ منها". [3]

حاول الباحثان توضيح طبيعة العلاقة التي تربط اللسانيات بالتداولية باعتبار أن هذه الأخيرة ما هي إلا توجها جديدا في الدرس اللساني، وأقرا أن العلاقة بينهما هي علاقة تضمن أو احتواء ، ولذلك لا يسوغ انفصام العلمين أو النظر إليهما على أنّ أحدهما جاء متمّما للآخر.

وقد أحدث **فان دايك** خلال فترة السبعينات والثمانينات نقلة نوعية في إطار ما يسمى بتداولية أفعال الكلام، فإذا كان تحليل أفعال اللغة قد انحصر عند جون أوستين في حدود الجملة – فقد تجاوزه عند فان دايك إلى مجال الخطاب .

---

1 – صابر الحباشة : الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقزوييني ، دار المتوسطية للنشر ، تونس ، ط1 ، 2010 ، ص 39 .

2– المرجع نفسه، ص 12 .

3– آن روبول وجاك موشلار : التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، ص 47 .

حيث كان يلح هذا الباحث الهولندي على ضرورة تجاوز الدراسة اللسانية مستوى الجملة إلى النظر إلى مستوى أعلى يمثله الخطاب، وهذا ما حذا به إلى طرح السؤال الآتي:

"لماذا لانزال نحتاج إلى تحليل مستوى الخطاب وليس إلى وصف سياق الجمل ...".[1]

إن هذه النظرة الجديدة إلى اللغة وطريقة مقاربتها تعود أساسا إلى أن الخطاب في الآونة الأخيرة أصبح يعرف من قبل الدارسين على أنّه متتالية منسجمة من الأفعال الكلامية تعبّر عن أغراض المتكلم ومقاصده .

وفي أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات برزت جهود محلّلي الخطاب الذين حرصوا على استثمار تداولية أفعال الكلام في ميدان تحليل النصوص الأدبية والمحادثات اليومية ومختلف أشكال التخاطب.[2] فخصص **جوناثان كالر Jonathonculler** الفصل السابع من كتابه الشهير "النظرية الأدبية" لمعالجة مفهوم الأقوال الأدائية performative عند أوستين،ثم عالج مفهوم الأقوال الأدائية والأدب.[3]

و إن عقد الصلة بين المنطوقات الأدائية والأدب يساعد الدارسين المنشغلين بالنظرية الأدبية المعاصرة وقضاياها على الغوص أكثر في أعماق الخطابات الأدبية لاستجلاء أهم خصائصها الجوهرية المكوّنة لها.

ومازالت الدراسات والأعمال متواصلة تصب كلها في هذا الميدان وتشهد على ذلك الإصدارات الهائلة التي شهدتها الساحة اللّسانية في الآونة الأخيرة، وينبئ استثمار المفاهيم التداولية في ميدان تحليل المحادثة وتحليل الخطاب مدى تأثير التداولية في العلوم المجاورة لها كونها مجالا متناميا ومنفتحا على معارف وعلوم مختلفة .

1- فان دايك :النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي) ترجمة عبد القادر قنيني ، افريقيا الشرق ، الدار البيضاء – المغرب، دط ، 2000 ، ص304.

2- جوناثان كالر: النظرية الأدبية ، ترجمة رشاد عبد القادر، دط،1997، ص115.

3- المرجع نفسه، ص115وما بعدها.

وبناء على ما سبق نستنتج أن التداولية مجال معرفي تتداخل فيه مختلف المعارف والاختصاصات، لفك شفرات الخطاب الأدبي وغير الأدبي للوصول إلى فهم أعمق لغاياته ومراميه باعتبار أن الخطاب هو إنتاج لغوي يحاول الكاتب من خلاله استقطاب جمهور القراء بشتى الوسائل المشروعة والمتاحة ، بدءا باختيار العنوان وانتهاء بما يحمله مضمون الخطاب من قيم ومبادئ وتوجيهات ومواعظ دينية واجتماعية و سياسية لاستمالة الناس والتأثير في سلوكياتهم وتغيير ذهنياتهم وطريقة تفكيرهم بما يضمن مصالحهم ويحقق آمالهم.

ثالثا– مبادئ التحليل التداولي:

1– الفعل اللغوي: Acte de parole

تعد نظرية الأفعال اللغوية **Théorie des actes du langage** "لأوستين" من أهم المباحث التداولية. وهي"أول محاولة جادة تتجاوز بالفعل الطرح الأرسطي في كتابه –الخطابة– للقول الخطبي، والدراسات البلاغية بإعادة منطق اللغة الطبيعية على ضوء الدراسات اللسانية المعاصرة".[1]

يفهم من هذا أن أوستين كان يسعى جاهدا لتخطي المفاهيم البلاغية التقليدية التي كانت سائدة في عهد أرسطو باعتبارها كانت مجرد اجتهادات وتأملات فردية تفتقر لرؤية منهجية واضحة تنطلق منها أو تؤول إليها، لذا أعاد صياغة منطق اللغة مستثمرا المفاهيم والآراء اللسانية المعاصرة التي تَوَصَّلَ إليها الباحثون المتخصصون في هذا المجال .

وعلى الرغم من تجاوز أوستين لبعض ما قدّمه أرسطو من تصورات ومفاهيم بلاغية كلاسيكية إلا أنّه هو نفسه ظلّ ينهل باستمرار من هذا الإرث الفلسفي العريق.

[1]– جون لا نجشو أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة، عبد القادر قنيني افريقيا الشرق،المغرب، ط2، 2008، ص06.

كما حاول من خلال نظريته هذه زعزعة بعض المفاهيم البنيوية التي تعاملت مع اللغة على أنّها نظام مغلق يهدف للإعلام والإخبار فقط، وأن المرسل والمتلقي ما هما إلا عنصري إرسال واستقبال نموذجيين.

فاللغة من منظور فلاسفة مدرسة أكسفورد تُعَدُّ وسيلةً للتفاعل والتخاطب والتأثير في الآخرين، فعندما نتكلم باللغة فإنّنا نقوم بفعل قد يكون قرارا أو وعدا أو حكما أو أمرا أو غير ذلك من الأفعال يعني أنّ "اللغة ليست أداة أو وسيلة للتخاطب والتفاهم والتواصل فحسب، وإنّما اللغة وسيلتنا للتأثير في العالم، وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية".[1]

وقد قام فيلسوفا اللغة أوستين وسورل بالتعليق على فرضية فيتجنشتاين التي تنص على أن معنى الكلمة يتحدّد من خلال استعمالها أو توظيفها في سياق معين، فعملية التلفظ ذاتها تعني فعل أو ممارسة أو تصرف.[2]

يتّضح أن دلالة اللفظ خارج السياق قد تختلف عنها وهي ضمن السياق، وعلى هذا الأساس فإنّ الوصول لتحديد دلالة عبارة ما لا يكون إلاّ في إطار وحدة شاملة قد تكون نصا أو خطابا، . وما يلاحظ أيضا أنّه بمجرد تلفظنا بعبارات اللغة تتحول الأقوال إلى أفعال، فالفعل هو تجسيد للقول؛ فعبارة أعرني قلمك ليست مجرد عبارة يتلفظ بها السائل، وإنّما هي إنجاز لفعل على وجه الحقيقة.

ومن الاعتقادات التي رسّخها الاتجاه الأوستيني أن الجملة لم تعد الوحدة الأساسية للتخاطب والتفاعل كما كان سائدا في الأنحاء السابقة، بل يكون التواصل عن طريق إنجاز أفعال لغوية.[3]

ومنه عُدَّ الفعل اللغوي من منظور أوستين الوحدة الدنيا للتواصل "وفي إطار منظور براجماتي (خاص بنظرية الفعل الكلامي) لم يعد يظهر النص على أنّه تتابع جملي مترابط نحويا، بل على أنّه فعل

---

[1]- جون لانجشو اوستين: نظرية أفعال الكلام العامة، ص07.

[2]- فولفجانج هاينه منه وديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة فالح بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، د ط، 1999، ص62.

[3]- فرانسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، ص60.

لغوي (معقد) "sprachlichehundlung"، يحاول المتكلم أو الكاتب به أن ينشئ علاقة تواصلية معينة مع السامع أو القارئ ".[1]

يفهم من التحديد السابق أنّه ومن وجهة نظر تداولية تغير مفهوم النص، حيث شاع في الأنحاء السابقة أنه عبارة عن متتالية من الجمل المتماسكة والمترابطة وفق قواعد نحوية معينة، وقد صار يتعامل معه في الآونة الأخيرة على أنّه فعل لغوي معقّد ينطوي على مقاصد المتكلم الذي يحاول إقامة جسر للتواصل مع المتلقي.

ويميّز أوستين بين ضربين من الأفعال اللغوية، فمنها ما يستعمل لوصف العالم والوقائع، وهذا النوع من الأفعال يمكن أن يحكم عليه بالصدق أو الكذب ويطلق على هذا الصنف من الأفعال بـــ "الوصفية" أو "التقريرية"، وفي المقابل نجد طائفة أخرى من الأفعال لا تقرّر واقعا ولا تصفه مثل: الأمر، الاستفهام، النهي...وهذه الأفعال تخضع لمعيار"الإخفاق والتوفيق" ويطلق عليها بـــ "الإنشائية"، ومن السمات المميزة للأفعال الإنشائية أنّها تستند إلى ضمير المتكلم في الزمن الحاضر، وتنطوي على أفعال من مثل: أمر، وعد، أقسم، وتسمى أفعالا إنشائية لأنّها تروم إنجاز عمل ما.[2]

وينظر إلى الفعل اللغوي –حسب أوستين– كجنس عام من ثلاث زوايا: التلفظ والنطق والخطابة.[3]

وما يجسّد فعل التلفظ هو سلسلة الأصوات التي تصدر عن المتكلم، أما فعل النطق فيتعلق بما تتضمنه العبارة من دلالات داخل السياق التخاطبي، ويعنى فعل الخطاب بدراسة مقاصد المتكلم التي تكشف عنها ملابسات الخطاب وظروف إنتاجه.

---

[1]–كلاوس برينكر: التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، طـــ 2، 2010، ص 32.

[2]– آن رويول، وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص31.

[3]– جون لانجشو أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة، ص09.

وسنوضح هذه التفريعات للفعل اللغوي كجنس عام من خلال المخطط الآتي:[1]

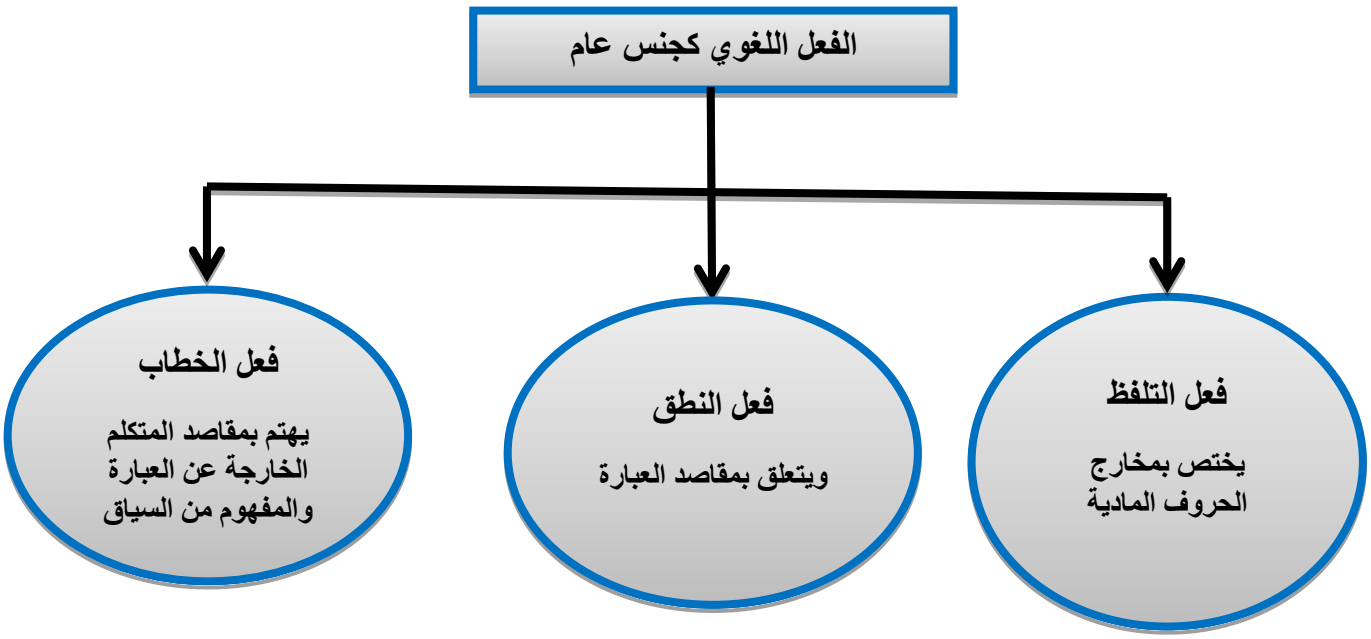

وقسّم أوستين الأفعال اللغوية حسب قُوَّتِها الإنجازية إلى:[2]

1-**أفعال الأحكام Verdictives** : تتمثل في حكم تصدره هيئة رسمية ،محكمة أو هيئة محلفة أو حكم في الملعب، وليس ضروريا أن تكون هذه الأحكام نافذة أو نهائية، فقد يكون هذا الحكم الصادر في صورة رأي أو حكم تقديري، ومما يدل عليها الأفعال الآتية: يقدر، يحكم على، يبرئ، يشخص.

2-**أفعال التعهد Commissives** : وترمي إلى إعطاء الوعد والتكفل والضمان والتعهد، والأفعال المعبرة عنها هي: يعتذر، يضمن، يؤيد، يكفل.... .

3-**أفعال السلوك Behabitives**: وتعبّر عن الأوضاع السلوكية التي لا يمكن حصرها وبعض الأعراف المجتمعية كالتهاني والاعتذارات والمواساة ، والأفعال المعبرّة عنها هي :يعتذر، يشكر، يواسي.... .

[1]- المرجع نفسه، ص ن.

[2]- المرجع السابق، ص187وص188.

4-**أفعال الإيضاح Expositives** : وتستخدم ألفاظ اللغة للمحاجة والاعتراض ويدلّ عليها الأفعال الآتية: أثبت، أنكر، لاحظ، شكك... .

5-**أفعال الممارسة Exercitives**: ومن أمثلة هذا الصنف من الأفعال التعيين في المناصب والانتخابات وإصدار الأحكام، والأفعال المعبرّة عنها هي: انتخب ،عين، نصح... .

وبإسقاطنا لهذه النظرية على الخطاب الإصلاحي لعبد الحميد بن باديس نكون قد حَوّلْنَا هذه النصوص إلى فعل لغوي مركزي يحيل إلى مقاصد معينة.

وتشكل تصورات أوستين أرضية خصبة لمن جاء بعده من الدارسين نذكر من بينهم تلميذه سورل، وكون سورل سار على نهج أوستين فعُدّ هو أيضا من رواد هذه النظرية، إلاّ أن هذا لم يمنعه من تسجيل انتقادات تتعلق بنظرية أستاذه .

وقد اعترف أوستين نفسه بذلك قائلا: "...وعلى ذلك فإني أميز خمسة أصناف أو فئات عامة ، وإن كنت مع ذلك غير مسرور ولا راضٍ عن أية واحدة منها ...إذن فإن هذه الأصناف من العبارات المتلفظ بها والمصنفة تبعا لقوة فعل الكلام أسميها بأسماء يكاد يكون وقعها على السمع نابيا...". [1]

واقترح سورل التصنيف الآتي للأفعال الكلامية:[2]

1-**الإخباريات (الإثباتيات) Assertives**: والغرض من هذا الصنف من الأفعال هو التعهد للمستمع بحقيقة الخبر، وأفعال هذا الصنف تخضع لمعيار الصدق أو الكذب ومن نماذجها:ـــ الأوصاف الطبية والتصنيفات والتفسيرات واتجاه الملائمة فيها من الكلمات إلى العالم words world to وشرط الصدق فيها هو الاعتقاد.

2-**التوجيهيات Directives**: وغرضها الإنجازي توجيه المستمع ليتصرف بطريقة تتناسب مع المحتوى الخبري للتوجيه ،ويدخل في حيّز هذا الصنف: الأوامر والنواهي والطلبات .

[1] – جون لانجشو أوستين :نظرية أفعال الكلام العامة، ص186.

[2] – جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، والمركز الثقافي العربي، الجزائر، المغرب، ط،20061، ص 217 وص218 وص219.

3- **الإلزاميات Commissives**: ويطلق عليها أيضا التعهديات والغرض الإنجازي منها هو أن يتعهد المتكلم لمباشرة مساق الفعل الممثل في المحتوى الخبري بفعل شيء ما في المستقبل، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمة، وشرط الصدق المعبر عنه هو القصد intention، ويدخل فيها: النذور و المواعيد.

4- **التعبيريات Expressives**: ومن نماذج هذا الصنف من الأفعال الاعتذارات والتشكرات والتهاني والترحيبات والتعزيات غير أن شرط الصدق في التعبيريات يتغير مع تغير نمط التعبير. ويكون الترحيب صادقا إذا كان المتكلم يشعر بالفرحة والغبطة فعلا تجاه من يرحب به. وليس لهذا الصنف اتّجاه ملاءمة.

5- **الإعلانيات (التصريحيات) Déclaratives**: والغرض الإنجازي من هذا الصنف من الأفعال هو إحداث تغيير في العالم بتمثيله كأنه تغير، ومن نماذج ذلك إعلان الحرب أو الزواج، واتجاه المطابقة فيه من العالم إلى الكلمة.

ويقسم سورل الأفعال اللغوية إلى أفعال إنجازيه مباشرة وأفعال إنجازية غير مباشرة، والصنف الأول من الأفعال يطابق مقاصد المتكلم فيما يتلفظ به، أما الصنف الثاني فإن الفعل الإنجازي غير المباشر يخالف ما يعنيه المتكلم.[1] لأنه لو قال قائل: هل لك أن تفتح النافذة فالغرض ليس سؤالا يتعلق بإمكانية فتحه النافذة أم لا ، وإنّما الغرض من هذا السؤال هو إلزام المتكلم القيام بالفعل بصورة لبقة ومؤدبة.

وما نخلص إليه أنّه ووفق التصنيف الذي وضعه فلاسفة مدرسة أوكسفورد "أوستين" و"سورل" و"غرايس" للأفعال اللغوية فإنّه يتحوّل على إثر ذلك الخطاب/ النص إلى سلسلة من الأفعال اللغوية فيساعد ذلك على قراءة الخطابات وتأويلها تداوليا لأن "المهمة الرئيسية للتداولية هي أن تحول هذه الموضوعات إلى أفعال منجزة...".[2]

---

[1]- المرجع السابق ، ص220 وص221.

[2]- فان دايك: النص والسياق، ص 256 وص257.

2 – الاستلزام الحواري L'implication conversationnelle:

يفرق **جورج يول** بين الاستلزام الحواري والافتراض المسبق كون أن هذا الأخير يسبق عملية التلفظ بالكلام، أي أنّه كامن عند المتكلمين، وليس في الجمل، أما الاستلزام الحواري فهو ما يستخلص منطقيا مما سبق التلفظ به. بمعنى آخر أن الجمل هي التي تتضمن الاستلزام وليس المتكلمون.[1]

ويمكن توضيح مفهوم الاستلزام الحواري من خلال الحوار الآتي:

أ- نفذت كل النقود التي بحوزتي.

ب- يوجد مركز بريد في المنعطف الأخير من هذا الشارع.

نلاحظ من المحاور"أ" أن المقصود ليس إعلام المحاور (ب) بأن النقود التي بحوزته نفذت، وإنّما كان هدفه هو طلب المساعدة، وهو المعنى الذي يتضمنه السياق التخاطبي، ومن ثم جاء محاوره "ب" ملتزما بالتعاون معه فأخبره بأن هناك مركز بريد وأنّه في المنعطف الأخير من الشارع، وبهذه الكيفية يتم الكشف عن الدلالات المستلزمة والمتخفية وراء المباني اللغوية الظاهرة التي لا يتم التوصّل إليها إلا من خلال النظر في ملابسات الخطاب ومقاصد المتكلمين .

ويمكن أن ننوّه في هذا السياق بجهود "غرايس" الذي يعود إليه فضل نشأة مصطلح "الاستلزام الحواري" وتداوله في ساحة الدراسات اللسانية،كما ذهب إلى أن العملية التواصلية تتأسس على مبدأ التعاون ويتأسس هذا المبدأ عنده على القواعد الأساسية الآتية:[2]

*– **حكمة الكم**: وتعني التحلي بالصدق أي أن يتجنب المتكلم الكذب وما لا يعتقد أنّه صواب.

*– **حكمة العلاقة**: ومفادها التحلي بالوجاهة والحصافة أي سداد الرأي.

*– **حكمة النوعية**: وتنص على التزام المتكلم بالإتيان بالمعلومات والأخبار المطلوبة.

*– **حكمة الطريقة**:والتي تفرض تجنب اللبس والتزام الوضوح في الكلام.

ويرى **غرايس** أن الالتزام بالقواعد الأساسية لمبدأ التعاون والعمل بالتوصيات التي اقترحها يؤدي إلى إنجاح العملية التواصلية، مما يفضي ذلك إلى تحقيق مراد المتكلم، غير أن الممارسة الفعلية للخطاب تقرُّ

---

1 - جورج يول: التداولية، ص51.

2 – دومينيك مانقانو: المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب، ص31.

خلاف ذلك، فقد يتمُّ خرق بعض هذه القواعد ولكن المخاطب يصل إلى تحقيق مقاصده، وذلك بالاستناد إلى ملابسات الخطاب وقرائن السياق والعرف.[1]

وفي هذا السياق يشير طه عبد الرحمن إلى أن"... هذه القواعد التأدبية قد تتعارض مع القواعد التعاونية التي وضعها غرايس، فيتقدم العمل بها على العمل بتلك". [2]

ويعني الطرح السابق أن طرفي الحوار قد لا يلتزمان بهذه المبادئ التي أقرّها غرايس نظرا إلى العلاقة الحميمية التي تجمع بينهما، أو قد يكون ذلك بسبب تفاوتهما في المرتبة الاجتماعية، فيلتزم أحد الطرفين بمبدأ التأدب لإنجاح فعل التواصل، والمثال التالي يبين ذلك:

ففي خطاب توجّه به ابن باديس للوالي العام على القطر الجزائري يقول فيه:

"سيدي الوالي العام أتشرف بتقديمي لكم اللائحة الآتية المصادق عليها بالإجماع من المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين...".[3]

يتضح من هذا المثال أن المتكلم (ابن باديس) أقل درجة من المستمع (الوالي العام)، ولا توجد بينهما أي صلة قرابة أو علاقة مودة، ولذلك فإن عبارتي التودد (سيدي ،أتشرف) قد وردت في هذا السياق التخاطبي على أساس "التأدب"، وتعني أُقدّم لك هذه اللائحة دون إلزامك بتنفيذ المطالب الموجودة فيها، أما فيما يخص المستمع (الوالي العام) فموقفه واضح ويمكن قبول هذه المطالب أو رفضها لأنّه أعلى منه درجة في السلم الاجتماعي ويملك السلطة عليه.

نستنتج أن غرايس ومن خلال مبدأ التعاون قد عني بالناحية التبليغية وغض الطرف عن النواحي التهذيبية أو ما يعرف ب "مبدأ التأدب "، ورغم ما وجه لغرايس من انتقادات إلاّ أن ما قدّمه من مفاهيم أسهم في فتح أفاق جديدة للبحث التداولي.

---

[1]- نادية رمضان النجار: الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، ص81.

[2]- طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص242.

[3]- عبد الحميد بن باديس: الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، تقديم عمار طالبي، دار كردادة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة ،2013، مج3، ص407.

1- الافتراض المسبق: Présupposé

يؤدي الافتراض المسبق دورا بارزا في تحقيق انسجام بنية الخطاب، ويتمثل في تلك الشحنة الإخبارية التي قد تكون محتواة ضمن التشكيلة اللغوية للخطاب أو أن تكون مشتركة بين المتحاورين. [1]

فإذا قال شرطي للسائق: عليك احترام إشارات المرور، فقد يكون من المفترض سلفا أن السائق قد خالف قانون المرور، وأن المخاطب قادر على تنفيذ هذه التعليمة، وكل ذلك يتعلق بمعطيات السياق وأحوال المخاطبين.

وقد استثمر مفهوم الافتراضات المسبقة في حقل التعليمية didactique انطلاقا من فرضية أن الطفل يكتسب معلومة جديدة انطلاقا من افتراض وجود مكتسبات قبلية.[2]

ويميّز الباحثون في السبعينيات من القرن العشرين بين نوعين من الافتراض المسبق المنطقي أو الدلالي والتداولي.[3]

أما الأقوال المضمرة **les sous-entendus** فقد ورد تعريفها عند **دومينيك مانقانو** حيث يرى أنّها "...على خلاف الافتراضات المسبقة ، هي محتويات ضمنية تداولية، أي استنباطات مستخرجة من السياق من قبل المتلفظ المشارك بفضل استدلال **Raisonnement** عفوي إن قليلا أو كثيرا يعتمد على مبادئ (قوانين الخطاب) تحكم النشاط الخطابي".[4]

يتّضح مما سبق أن القول المضمر هو كمّ من المعلومات والأخبار التي يتضمنها خطاب ما، ولاستنباط الدلالات الكامنة في بنيته العميقة، فإن ذلك يفرض على القارئ إجراء عملية استدلالية انطلاقا مما يوفره الخطاب من معطيات وقرائن تعين على فك شفراته، وفهمه فهما معقولا.

ومثال ذلك لو أن نشرية للأرصاد الجوية أذاعت :

- أن الثلوج غدا ستتساقط بغزارة.

---

[1] -Dominique maingueneau,pragmatique, pour le discours litteraire, Editions Nathon,paris, 2001,p 86-87.

[2]- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب ، ص32.

[3]- للتفصيل في هذين النوعين انظر نادية رمضان النجار: الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، ص99.

[4]- دومنيك مانقانو: المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب، ص109.

يستدعي هذا الملفوظ:

- تحذير مستعملي الطرقات من إمكانية وقوع حوادث خطيرة أو انحرافات مميتة.
- أو عدم مغادرة محل الإقامة .
- أو اقتناء بعض المستلزمات الضرورية.
- أو التحذير من انقطاع التيار الكهربائي.

ويبقى مجال التأويل مفتوحا حسب ظروف السياق وملابسات الخطاب.

ويميّز الدارسون بين القول المضمر و الافتراض المسبق في كون الأول يتعلق بلحظة إنتاج الخطاب، والثاني يتعلق بما يحيط بالخطاب من ملابسات وظروف مكانية وزمانية وأحوال اجتماعية.... .

2- الإشاريات: la déixis

يعرف **جورج يول** الإشاريات بقوله: « تسمى التعابير التأشيرية أيضا الإشاريات Indexicals وهي أولى الصيغ التي ينطق بها الأطفال الصغار، وتستعمل للإشارة إلى الأشخاص من خلال التأشير الشخصي Person diexis (أنا، أنت)، أو إلى المكان من خلال التأشير المكاني Spatial diexis (هنا، هناك) أو إلى الزمان من خلال التأشير الزماني Temporal diexis(الآن، آنذاك) وتعتمد جميع هذه التعابير في تفسيرها على متكلم ومستمع يتشاركان في السياق ذاته ».[1]

يفهم من القول السابق أن جورج يول يقسم الإشاريات إلى أصناف ثلاثة وهي: **الإشاريات الشخصية** ويعبّر عن هذا الصنف ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب بالإضافة إلى ضمائر الملكية. ويمثل الصنف الثاني **الإشاريات المكانية** التي تحيل عليها ظروف المكان بصفة عامة، أما الصنف الثالث ويمثل **الإشاريات الزمانية** وتحيل عليه ظروف الزمان، وإلى جانب هذه الأصناف الثلاثة، يضيف الدارسون صنفين آخرين وهما **الإشاريات الاجتماعية** و **الإشاريات الخطابية**.

1- جورج يول: التداولية، ص27.

ويتعامل الدارسون مع الإشاريات على أنّها قسمة مشتركة بين حقل التداولية وعلم الدلالة،[1] وقد صنّفوها إلى:إشاريات شخصية ومكانية وزمانية واجتماعية وخطابية(نصية).

وإذا كانت هذه المفاهيم والمبادئ التداولية قد استخلصها الغرب نتيجة ملاحظاتهم المعمقة والدقيقة للغات الطبيعية، و مسايرتهم للتطورات الحاصلة في مسار النظرية اللسانية، فإن العلماء العرب القدامى كانت لهم إسهامات لا تقل شأنا عن إسهامات الغرب، ولاسيما علماء البلاغة الذين أولو عناية لـــ"مقام التخاطب"و"أحوال المخاطبين" و"مقاصدهم" وهذه المفاهيم وغيرها تتقاطع مع المفاهيم التداولية الحديثة، و هذا ما سأحاول تقديم تصور إجمالي عنه لأرصد بعض الإسهامات اللافتة لعلمائنا الأجلاء.

رابعا– الإسهامات العربية القديمة في مجال الدراسة التداولية:

أسهم الغرب إسهاما كبيرا وواضحا في إنتاج هذا الفرع اللساني المستحدث في العقد السابع من القرن العشرين، وإن كانت له إرهاصات سابقة لهذا التاريخ.

كما عمل على ضبط جهازه الاصطلاحي، وشحن هذه الاصطلاحات بدلالات واضحة ومحددة.

وحيازة الغرب لمثل هذه العلوم وغيرها وسيطرتهم المحكمة على مقولاتها متأتية من كونه منتجا للمعرفة لا مستهلكا لها فقد " وجد العرب أنفسهم مباشرة أمام معرفة الآخر (الغرب) التي خطت خطوات بعيدة جدا في مجال تحليل الإنسان والتاريخ والمجتمع ومختلف النشاطات التي نجمت عن علاقات الإنسان بالعالم، وكان على المثقف العربي أن يتفاعل مع هذه المعرفة الغربية من محيطه وسياقه الثقافيين".[2]

وأحدثت التداولية "صدى منهجيا متعدد الآثار في مقاربة أشكال الخطاب بعامة والخطاب الأدبي بخاصة".[3]

1- محمود أحمد نحلة: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 17.

2- سعيد يقطين وفيصل دراج: آفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق سوريا، ط1، 2003، ص19- 20.

3- نعمان بوقرة: لسانيات الخطاب، ص111.

حيث تلقت الساحة الأدبية والنقدية العربية هذا المنهج بصدر رحب، واشرأبت أعناق الباحثين للاطّلاع على ما تحمله التداولية من مفاتيح سحرية تمكنهم من استجلاء جوهر النصوص والخطابات، وإبراز خصوصياتها وما تحمله من أبعاد وما تنطوي عليه من غايات ومرامي.

وتندرج خطب عبد الحميد بن باديس التي نحن بصدد مقاربتها تداوليا ضمن الأدب الإصلاحي، مما تدفعنا خصوصية هذا النوع إلى التنقيب في ثنايا التراث اللغوي العربي القديم، لتحديد بعض الممارسات التداولية بغية لفت الانتباه إلى أهمية هذه الإسهامات، دون تعصب للتراث أو تحيز لما أبدعه الفكر الغربي.

وإنّي لأجد في بلاغتنا العربية مساحات شاسعة للحديث عن بعض المفاهيم التداولية من وجهة نظر تراثية، لأن التداولية والبلاغة ينصبان على اللغة لأنّها البنية الأساسية التي يعوّل عليها في نسج خيوط الخطاب وتشكيل أواصره.

ويلاحظ الدارسون العرب أن ما يعرف بنظرية "الأفعال الكلامية" التي تعدّ من أبرز المفاهيم التداولية عند الغربيين، قد عالجها البلاغيون العرب قديما ضمن مباحث علم المعاني وتحديدا ضمن ما يطلق عليه بنظرية " الخبر والإنشاء".[1]

ولما كان الخطاب الذي بين أيدينا خطابا عربي المحضن و النشأة ويهدف إلى إصلاح أحوال الأمة الجزائرية كان لا بد من العودة إلى الجهود العلمية لأسلافنا، ومحاورتها للوقوف تحديدا عند دراستهم لبعض الظواهر التداولية، ومنها "نظرية أفعال الكلام"، حيث يذهب الدارسون العرب إلى أن هذه النظرية الغربية النشأة هي بمثابة المعادل الموضوعي لقضية "الخبر والإنشاء" في تراثنا العربي القديم".[2]

حيث شغلت هذه القضية حيز اهتمام الفلاسفة والبلاغيين والنحاة والأصوليين العرب عبر حقب زمنية مختلفة من أمثال: أبي بشر عمرو بن قنبر المعروف **بسيبويه** (ت حوالي 180هـ)، و**أبي**

[1]- مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص48 .

[2]- المرجع نفسه، ص49 .

نصر الفارابي (ت 338هـ)، **والقاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي**(ت 415هـ)، **وأبي علي بن سينا** (428هـ)، **وعبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)** وغيرهم.. .[1]

وقد درج اللغويون العرب على تقسيم الكلام إلى ضربين : خبري و إنشائي (طلبي) ويتجلّى ذلك في قول **جلال الدين السيوطي**(911ه): "وهو الخبر إن احتمل الصدق والكذب، وإلا فإنشاء ... ".[2]

ويضيف قائلا :"...لأن الكلام إما أن يقبل التصديق والتكذيب أو لا، الأول: الخبر، والثاني: إن اقتران معناه بلفظه فهو الإنشاء".[3]

نخلص مما سلف أن الخبر هو كل كلام يحتمل الصدق أو الكذب، والمراد بالصدق مدى مطابقته للواقع ويراد بالكذب عدم مطابقته للواقع، أما باب الإنشاء ويتعلق بإنجاز فعل ما وهذا الصنف من الأفعال لا يخضع لمعياري الصدق والكذب .

ويلاحظ الدارسون أن تقسيم العرب للكلام على ضربين (خبري وإنشائي)، قد بني على أسس منطقية وتداولية : فالمنطقية تتمثل في مدى مطابقة الكلام للعالم الخارجي، أما التداولية فتتجلى في مراعاة أحوال المخاطبين.[4]

وهذا ما يتقاطع مع التوجهات الحديثة إذ يرى أوستين أن الغرض من التقريريات أو الإخباريات هو تصوير الوقائع والأحداث الموجودة في العالم الخارجي، ومن ثمّة يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، أما الأفعال الإنشائية فلا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب وإنّما يتم بواسطتها إيقاع فعل قد يكون أمرا أو وعدا أو طلبا.

وبمقارنة الأطروحتين الغربية والعربية في مجال تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء نلاحظ أنّهما متكافئتان سواء من حيث نظرتهما للغة أو طريقة التعامل معها، إلّا أن ما يعوز الإسهامات العربية القديمة

---

[1] – المرجع السابق، ص 50 .

[2] – جلال الدين السيوطي: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط2، 2006، مج1، ص46 .

[3] - المرجع نفسه، ص ن.

[4] - مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب. ص58.

هو افتقارها لرؤية منهجية واضحة و محددة، فظلت بذلك اجتهاداتهم عبارة عن محاولات قيمة وجادة لا يمكن الاستهانة بها .

ومن العلماء القدامى الذين عنوا ببعض جوانب البحث التداولي نذكر **الجاحظ** (ت 255ه) في معرض حديثه عن **البيان** يقول في هذا الشأن"...وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى . وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور،كان أنفع وأنجع .والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه ..." .[1]

يذهب الجاحظ إلى أن الكلام الذي يتداوله المتكلم والسامع يجب أن يكون واضح العبارة، وبعيدا عن اللبس والغموض حتى يضمن بذلك نجاح فعل التواصل.

ولا يكفي وضوح العبارة تحقيق الهدف المنشود من العملية التخاطبية، بل يضيف الدارسون إلى ذلك وجوب تخير المتكلم لعبارات و ألفاظ حسنة لها وقع شديد على ذهن السامع، ليؤثر فيه بكيفية ما، لأن الكلام الحسن الجميل يعبّر عن شخصية قائله وقد أشاع (بوفون الفرنسي Buffon)* قوله: "أما الأسلوب فهو الإنسان ذاته".[2]

والكلام يعني ممارسة السلطة لأنه يحوّل اللغة من حالة الكمون إلى حالة الأداء الفعلي، وقد كان النبي "صلى الله عليه وسلم" يقول لحسان بن ثابت يوم قريظة : «اهج المشركين،فإن جبريل معك...» .[3]

حيث كان لشعر حسّان بن ثابت وقع شديد على قلوب الكفار أشدّ من وقع السهام، وهذا يدلّ على أن اللّغة وسيلة لتغيير ما في النفوس ولتغيير الوقائع أيضا.

---

[1]- الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، دط، دت،ج1، ص75.

*اسمه الكامل جورج لوي كلارك،كونت بوفونG.L. Comte de buffon وقد كان عالما في التاريخ الطبيعي والرياضيات وكاتبا موسوعيا فرنسي الأصل.

[2]- انظر الموقع الالكتروني www :maref,org .

[3]- ينظر سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني أبو القاسم:الروض الداني إلى المعجم الصغير،تحقيق أبو محمود محمود شكور محمود الحاج أمرير الميداني دار عمار، عمان، ط1، 1985،ص22 .

و قد أورد أبو الهلال العسكري (ت 395هـ) أن «الكلام أيدك الله، يحسن بسلاسته، وسهولته، ونصاعته،وتخير لفظه، وإصابة معناه...فإذا كان الكلام كذلك.كان بالقبول حقيقا... . ».[1]

ويفهم من قول أبي هلال العسكري أن المتكلم حتى يبلغ مراده يجب أن ينتخب من الألفاظ أعذبها وألطفها، وأكثرها تعبيرا عما يختلج في نفسه، فيعرض كلامه في أبهى صورة ليحظى بقبول المستمع واستحسانه.

وما يلمح إليه العسكري يعد من صميم الدراسة التداولية إذ تشير الدراسات في هذا المجال إلى أن "البحث في التداولية محكوم بأعراف لغوية واجتماعية،وهو معنى بكيفية وصول السامع إلى مراد المتكلم، وما يقدمه المتكلم من وسائل لغوية في سياق اجتماعي وثقافي معين ليساعد السامع على الوصول إلى مراده، وهذه كلها أمور تتأبّى على الضبط المنهجي، وعلى الرغم من ذلك حاول الباحثون أن يقدّموا كثيرا من الضوابط والأسس المنهجية التي تحكم الاستعمال اللغوي".[2]

وهذا ما ينسجم مع توجهات فان دايك التي تنص على أن :"... أحد مهام التداولية هو أن يتيح صياغة شروط نجاح إنجاز العبارة . وبيان أي جهة يمكن بها أن يكون مثل هذا الانجاز عنصرا في اتجاه مجرى الفعل المتداخل الانجاز الذي يصبح بدوره مقبولا أو مرفوضا عند فاعل آخر".[3]

فمن مهام التداولية هو بيان الشروط التي تجعل المنجز القولي يحظى بالقبول في إطار سياق تواصلي معين، وذلك يتوقف على مدى مطابقة العبارة اللغوية لمقتضيات النحو من جهة ، ومعرفة متطلبات السياق وردود أفعال المتلقين من جهة أخرى.

ومن الممارسات التداولية التي يزخر بها تراثنا اللغوي العربي القديم العناية بالمقام حيث أفردت له الكثير من الكتب التراثية مباحث خاصة، وهذا يعني أنّ اللغة يجب أن تدرس في إطار اجتماعي وفي إطار وظيفي لا شكلي.

---

[1]- أبو الهلال العسكري: الصناعيين الكتابة والشعر، علق حواشيه وضبط نصه مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان، ط2، 1989، ص69.

[2]- محمود أحمد نحلة :آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 52-53.

[3]- فان دايك: النص والسياق، ص256.

وبالإضافة إلى جهود الجاحظ وأبي هلال العسكري والسيوطي وغيرهم يمكن أن نشيد في هذا المقام بجهود عبد **القاهر الجرجاني** (471هـ) الذي يمثّل أحد أعلام البلاغة العربية في القرن الخامس الهجري، حيث اقتفى أثره العديد من العلماء الذين جاءوا بعده، وقد اشتمل كتاباه **دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة** على تصورات لغوية ومفاهيم بلاغية قَيِّمَة وجادة تعكس مدى إحاطة الجرجاني بقوانين اللغة العربية ومدى سبره لأغوارها ،وتولى أحد الباحثين وهو ابراهيم محمود خليل في كتابه "في اللسانيات ونحو النص"[1] التنويه بالكثير من القضايا اللغوية التي عالجها الجرجاني في كتابيه (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز) والتي تتقاطع مع بعض المفاهيم اللسانية والتداولية في العصر الحديث مثل قضية التضام والإحالة بأنواعها الضميرية والإشارية وغيرها .

وتبقى العودة للتراث ومساءلته، محاولة دؤوبة ومتواصلة لكشف الحجب عن كثير من المفاهيم التقليدية التي كانت سائدة آنذاك إمّا لنفض الغبار عنها وإخراجها للنور من جديد أو لتعميقها وترسيخها، وهي مسؤولية ملقاة على عاتق كل باحث متشبع بالموروث الثقافي، ومنفتح على منجزات الحضارة الغربية.

خامسا– تلقي التداولية في الثقافة العربية اللسانية المعاصرة:

تمكّن الباحثون العرب من الاطّلاع على منجزات الحضارة الغربية، والتأثر بها في كافة المجالات (السياسية والاجتماعية، والاقتصادية...)، بما فيها التطورات الحاصلة في حقل اللسانيات بما تحويه من فروع، وقد تحقّق لهم ذلك من خلال:[2]

1–الاطلاع عليها في منابعها عبر تعلم لغاتها (تطور التعليم)، أو الدراسة في معاهدها (البعثات الثقافية).

2–اعتماد الترجمة أو تلخيص بعض تجلياتها، ونقلها إلى العربية.

3–الاستفادة من هذه المعرفة الغربية في تطبيقاتها على الثقافة العربية .

وفي هذا السياق نجد أن الساحة اللسانية العربية قد سادها توجهان في أواخر القرن العشرين، حيث يرمي التوجه الأول إلى إغناء الحقل اللساني بمؤلفات تتضمن بسط النظرية التداولية، والتعريف

[1]– ابراهيم محمود خليل: في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن، ط2، 2009، ص213 وما بعدها .

[2]– سعيد يقطين وفيصل دراج: آفاق نقد عربي معاصر، ص20.

بآلياتها الإجرائية وسبل تطبيقها على كل ما أبدعته الثقافة العربية من نصوص وخطابات وقد تبلور هذا التوجه في صور عدة (مؤلفات، مجلات ملتقيات، ورسائل جامعية.....إلخ). و سعى التوجه الثاني إلى تفعيل حركة الترجمة للتغلغل أكثر في خبايا المقاربة التداولية ، وقد مثل هذا التوجه:

1-**عبد القادر قنيني** من خلال ترجمته لكتاب فان دايك (النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي).

2-**صابر الحباشة وعبد الرزاق الجمايعي:** قدما ترجمة لكتاب فيليب بلانشيه (التداولية من أوستين إلى غوفمان.)

3-**قصي العتابي:** مترجم كتاب "التداولية" لجورج يول.

4-**سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني:** ترجما كتاب (التداولية اليوم علم جديد في التواصل)لآن روبول، وجاك موشلار.

5- **سعيد علوش:** ترجم كتاب(المقاربة التداولية) لفرنسواز أرمينيكو. وغيرها من الكتب المترجمة في هذا المجال.

و اهتم الدارسون العرب بالتطورات الحاصلة عند الغرب وحاولوا مسايرتها عن طريق تفعيل الترجمة والتأليف كما ذكرنا سابقا ، فتجسدت عنايتهم بالأفق التداولي من خلال أعمال رائدة مثلها كل من:

1- **ادريس مقبول** : الأفق التداولي (نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية) يمثل هذا العمل نموذجا لدراسة تطبيقية، حيث استثمر الباحث آليات التحليل التداولي لفك شفرات الخطاب الديني (قرآن كريم، حديث شريف)، كما تطرق إلى بحث آليات التأويل التداولي عند الطاهر بن عاشور، والسياق في تداوليات أبي إسحاق الشاطبي...وتداولية الفعل الإنشائي عند ابن عربي... .

ويتبين لنا من خلال هذه العناوين مدى حرص الباحث على العودة إلى التراث اللغوي العربي القديم، والتنقيب فيه لاستجلاء معالم الاتجاه التداولي، وإبراز خصوصياته.

2- **إسماعيلي حافظ العلوي:** (التداوليات علم استعمال اللغة) تضمن هذا الكتاب مجموعة من الدراسات والبحوث لنخبة من الباحثين والدارسين، الذين لهم دراية واسعة بمجال التداولية، ومما زاد من قيمة هذه البحوث أنها كانت مقتطفات من أطاريح دكتوراه، وقد اختيرت بدقة وعناية فائقة حسبما

صرح به إسماعيلي حافظ العلوي نفسه في مقدمة الكتاب، ونذكر من بينهم محمد العبد، منال النجار، محمد شوقي الزين، مسعود صحراوي..... وقد تميزت دراساتهم بالجدة والطرافة.

3- **مسعود صحراوي**: (التداولية عند العلماء العرب) قسم الباحث كتابه إلى خمسة فصول، خصص الفصل الأول للحديث عن الجهاز المفاهيمي للتداولية، وتطرق في باقي الفصول لمعالجة موضوعات تتعلق بظاهرة الخبر والإنشاء في التراث العربي كما عالج مفهوم الأفعال الكلامية من وجهة تراثية وتحديدا عند علماء الأصول والنحاة.

وقد حاول مسعود صحراوي من خلال هذه الدراسة أن يؤكد على أن كثيرا من الآراء والمفاهيم التي أفرزتها النظريات اللسانية المعاصرة عند الغرب، يوجد لها صدى وحضورا كثيفا في تراثنا اللغوي العربي القديم، وقد حظي هذا الكتاب برواج كبير في مشرق الوطن العربي ومغربه، كما عد من المراجع المهمة في مجال البحث التداولي.

4- دراسة **صابر الحباشة** في كتابه (الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقزوييني). مهّد الباحث لكتابه بالحديث عن المدونة، ومكانتها عند المحدثين، ثم بيّن منهج الدراسة من خلال توضيح عنوان العمل، وتطرق في الباب الأول للحديث عن الأبعاد التداولية في شروح القزويني ، وخصّص باقي أبواب الدراسة لمعالجة قضايا تتعلق بالمسند وأحوال الإسناد ثم دور السياق في إنشاء الدلالة وتحليلها في البلاغة والتداولية، وقد حاول صابر الحباشة بهذه الرؤية المزدوجة التي تجمع بين ما أبدعه الفكر الغربي من مفاهيم تداولية، وبين ما أفرزته البلاغة العربية من رؤى وتصورات ، تقديم قراءة مغايرة وأكثر عمقا لشروح القزويني.

وإذا كانت هذه الأعمال قد اختارت المدونة التراثية موضوعا للمقاربة التداولية، فإنني في المقابل أسجل اختيار الدارسين لأنواع أخرى من النصوص والخطابات والتي أفرزتها الثقافة العربية المعاصرة مثل المداخلات الجامعية والخطاب الإشهاري و القانوني والسياسي والمسرحي*.

*قدم عبد الكريم بن جمعان دراسة موسومة ب "إشكالات النص المداخلة أنموذجا دراسة لسانية نصية" ،وقدم نادر جبار كاظم مقاربة تداولية للخطاب القانوني، وقد حملت دراسته العنوان الآتي "اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني"، كما قدم عمر بلخير مقاربة تداولية للخطاب المسرحي بعنوان "تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية" وقد تم اعتماد هذه الكتب كمراجع لهذا البحث.

سادسا– أهداف المقاربة التداولية:

شهد نحو الجملة أعنف الحملات، ووجهت لأنصاره انتقادات لاذعة، و من ثمة بات التحول في مسار النظرية اللسانية ضرورة لا مناص منها.

وفي غمار هذا التحول المفروض على الدرس اللساني توجهت عناية الباحثين للنظر في النص أو الخطاب والإحاطة بكل جوانبه، وبذلك توسع مجال الدراسة ليشمل أفقا رحبا هو "الأفق التداولي".

ويشير الدارسون إلى أن ما أنتجته المقاربة التداولية من فوائد هو الذي أكّد أهميتها في حقل العلوم الإنسانية، وأثبتت حاجتنا إليها.

وسأتطرق إلى ذلك بإيجاز:

* تعنى التداولية بدراسة الاستعمال الفعلي للغة في إطار سياق تواصلي، ومن ثمة فهي أولت عناية للكلام الذي صار محط اهتمام الدارسين منذ أواخر الستينات وبداية السبعينات من القرن العشرين.

وينتج عن ظاهرة التحدث أو الكلام أو ما يعبر عنه بالاستعمال الفعلي للغة مفهومان [1]:

1-**المفهوم التفاعلي Interaction**: التي تعني الفعل ورد الفعل، وبذلك يكون معناها في التخاطب هو الانخراط في الفعل ورد الفعل حول مواضيع محددة.

2-**المفهوم التواصلي Communicative**: وتعني الوضعية التي يصير عليها فعل التخاطب بين متحاورين على الأقل.

ويُعنَى المفهومان معا معًا بالقول المنجز في أطره السياقية التواصلية،كما يشيران إلى كل ما يتعلق بمكوّنات العملية التواصلية "وبهاتين الوظيفتين تؤدي اللغة الوظيفة التداولية la fonction pragmatique بحسب المقاصد التداولية التي من أجلها ينجز المتكلم خطابه".[2]

وبالتالي فإنّ ما تسعى إليه الوظيفتان (التواصلية والتفاعلية) هو إقامة توازن بين عالم النص الداخلي والخارجي أو على حد تعبير –**بتوفي Bittofi**– «أن يحقق توازنا معقدا بين عالم واقعي فعلي

[1]– محمد نطيف: الحوار وخصائص التفاعل التواصلي –دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية– إفريقيا الشرق، المغرب،دط، 2010، ص15.

[2]– كاهنة دحمون: الجملة الاعتراضية بنيتها ودلالتها في الخطاب الأدبي دراسة في ضوء النظرية التداولية، دار الأمل، الجزائر،دط، 2012، ص15.

يطلق عليه بنية العالم...، وعالم إبداعي تحقق في بنية النص... »[1] وهذا على عكس الأنحاء السابقة التي انحصر اهتمامها فقط في كشف العلاقات الداخلية لبنية النص.

- ✓ تهدف التداولية لتطوير الاتّصال بين المخاطبين وتحسينه وتقويته لأنّه "دون الوظيفة التواصلية لا يتكون نص". [2] وتأكيد اللسانين على الخاصية الاجتماعية ووظيفتها التواصلية يفسحان المجال للنحو ليتسع مفهومه، "ليصبح مكوّنا من مكوّنات نظرية شاملة تفسّر السلوك الإنساني".[3]
- ✓ كما يرمي هذا العلم إلى إقامة صلة وثيقة بين علمي اللغة والتواصل ـــ "وإذا كانت التداولية ...قد استحضرت الإنسان في اللغة فإنها استحضرت معه قيمة التفاعل وكيفت معه المعتقدات لكي يصير الاستعمال التداولي استعمالا حجاجيا استدلاليا" [4]، ويعني هذا القول أن المقاربة التداولية تستند على الأدوات المنطقية و العناصر الإشارية والإحالية والخطابية لتفسير المنجز الكلامي، وهذه العناصر يفتقر إليها الاتجاه الشكلي في دراسة اللغة.
- ✓ كما يهدف هذا العلم أيضا إلى إقامة جسر تواصل بينه وبين علم النفس المعرفي من أجل "دراسة الآليات المعرفية (المركزية) التي هي أصل معالجة الملفوظات وفهمها فالتداولية تقيم روابط وشيجة بين اللغة والإدراك عن طريق بعض المباحث في علم النفس المعرفي " [5].
- ✓ تعنى التداولية بوضع المعايير والأسس التي تمكّن من تمييز الجمل الشاذة وتفسير الأخطاء التداولية التي تؤدي إلى إخفاق عملية التواصل أو قد تؤدي إلى جلب مزالق بسبب سوء الفهم والإفهام "...فعلى الرغم من اتساع جوانب الدرس فيه (الاتجاه التداولي) وتعدد الموضوعات التي لا يجمع بينها غير ظواهر

1- ينظرسعيد حسن البحيري: علم لغة النص الاتجاهات والمفاهيم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، مصر، ط1، 1997، ص257.

2- زتيتيسلاف واوزنياك: مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص ،ترجمة سعيد حسن البحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003 ، ص39.

3- أحمد عفيفي: نحو النص، ص40.

4- محمد نظيف: الحوار وخصائص التواصل التفاعلي، ص39.

5- مسعود صحراوي: الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة لحافظ اسماعيل العلوي، ص 41.

الاستعمال فهو يقدم لونا من الدرس للغة في تجلياتها الحية لا يمكن إغفاله أو الإغضاء عنه.ويبدو ذلك جليا في الأخطاء التداولية التي قد تجلب من المزعجات والمخاطر ما لا قبل له به ".[1]

وما يفهم مما سبق أن التداولية تستطيع أن تفسر الأخطاء التي يقع فيها المتكلم بما وفرته من أدوات إجرائية تساعد على إعطاء تفسير مقبول للخطاب، ومنها إمكانية تجاوز الدلالة الحرفية إلى النظر في المعاني الخفية والدلالات المستلزمة لفعل القول، والعناية بمقاصد المتكلم، و النظر في مقتضيات السياق وأحوال الخطاب وغيرها،وهذه الجوانب كلها غفل عنها الاتجاه الشكلي .

وتبقى أهداف هذا العلم متعددة وفوائده متنوعة، وقد أصبح محط اهتمام الدارسين من مختلف أنحاء العالم، لأن تطبيقه في مجالات الأدب والنقد أثمر نتائج جد قيمة.

[1]- ينظر محمود أحمد نحلة:آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص52.

خلاصـــة:

ساد ساحة الدراسات اللغوية اتجاهان:

1- اتّجاه الدراسة الشكلية الصورية الذي بدأ مع دوسوسير إلى غاية كتابات تشومسكي الذي عَدّ اللغة بنيةً مغلقةً لا علاقة لها بالعالم الخارجي، فدرس اللغة دراسة محايثةimmanente.

2- الاتّجاه التواصلي الوظيفي الذي ظهر كرد فعل على الاتجاه الأول حيث عد اللغة وسيلة التخاطب والتفاعل الاجتماعي.

حيث لقي الاتّجاه الأول انحسارا شديدا بسبب الحملات العنيفة التي شنّها اللسانيون عليه، إذ لم يعد كافيا لكل مسائل الوصف اللغوي ومن ثم بات التحول ضرورة لا مناص منها، فبرز الاتجاه الثاني (الاتجاه التواصلي) لسدّ هذه الثغرات، وقد تمخضت عنه فروع لسانية تمثلت في: لسانيات النص، تحليل الخطاب والتداولية.

3- ويجمع الدارسون على أن التداولية استوت علما قائما بذاته في العقد السابع من القرن العشرين ، على يد ثلاثة من فلاسفة مدرسة أوكسفورد وهم على التوالي: أوستين وسورل وغرايس حيث عنوا بمعنى اللغة الطبيعية. وتمتد التداولية إلى أصول فلسفية ، إذ انبثقت من رحم الفلسفة التحليلية التي أسسها العالم الألماني **غوتلوب فريجه** من خلال كتابه أسس **علم الحساب** في بدايات القرن العشرين. وقد أعاد هؤلاء الفلاسفة النظر في كثير من الظواهر اللغوية، وانكبوا على دراستها وتحليلها وقد مثلت هذه الظواهر أهم جوانب التحليل التداولي فيما بعد وتمثلت أساسا في: الإحالة، الاقتضاء، الاستلزام الحواري و الافتراضات المسبقة، وقد تميز تحليلهم لها بالجدة والطرافة.

4- توالت الدراسات والأعمال التي تصب في إطار المعرفة التداولية على يد أوزفالد ديكرو الذي كان له الفضل في دمج التداولية في اللسانيات دون أن نغفل جهود فان ديك وانسكومبر و أوركيوني وجورج يول وبراون و فوندرليش وغيرهم... وقد اختلف الدارسون في وضع مفهوم جامع لهذا الفرع اللساني، فطرحت تعريفات عديدة بعضها يركز على السياق، والبعض الآخر يركز على جانب الاستعمال وتعريفات أخرى تنصب على مقاصد المتكلمين، ويرجع سبب هذا التعدد والتنوع إلى اختلاف الدارسين في منطلقاتهم الفكرية ومشاربهم الثقافية، كما تعددت مواقف الدارسين منها فعدّها

البعض سلّة مهملات اللسانيات أو قمامة اللسانيات، أو جرابا يحوي الأعمال الهامشية التي لا يمكن معالجتها في إطار النظرية اللسانية ،وعدها فريق آخر المفتاح السحري لحل كثير من المشكلات اللغوية التي عجزت اللسانيات البنيوية عن حلها.

5- أما عن التلقي العربي للمقاربة التداولية فقد اتسم في بادئ الأمر بالتداخل والاضطراب والغموض والفوضى في استعمال المصطلحات فأطلق عليها البعض المقامية، وعلم المقاصد وهي مصطلحات تراثية ومنهم من أطلق عليها اسم: البراغماتية وهي ترجمة حرفية لمصطلح pragmatique والنفعية، وعلم التخاطب... أما من كان له فضل انتخاب مصطلح التداوليات في الثقافة العربية المعاصرة كمقابل عربي للمصطلح الأجنبي pragmatics فهو الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن، وذلك في السبعينات من القرن العشرين، وقد حظي باستحسان وقبول الدارسين. كما حظيت التداولية باهتمام الباحثين في مشرق الوطن العربي ومغربه يشهد على ذلك ما تمت مراكمته من بحوث ودراسات في هذا المجال ،إمّا تأليفا أو ترجمة ، وكذا الندوات العلمية والملتقيات التي تنظم سنويا، ضف إلى ذلك أطروحات الماجستير والدكتوراه التي أنجزت في السنوات الأخيرة ، والتي اتخذت المقاربة التداولية موضوعا لها على غرار ما نحن بصدد إنجازه من دراسة تداولية للخطاب الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس.

الفصل الثاني

أهمية الإشاريات في تشكيل بنية الخطاب الإصلاحي

أولا– أهمية الإشاريات في تحقيق انسجام الخطاب

ثانيا– أصناف الإشاريات في الخطاب الإصلاحي لدى عبد الحميد بن باديس

1- الإشاريات الشخصية

2- الإشاريات الزمانية

3- الإشاريات المكانية.

4- إشاريات الخطاب / النص

5- الإشاريات الاجتماعية

الخلاصة

توطئة

تندرج الإشاريات ضمن الحقل التداولي ، وهي عبارة عن روابط إحالية لايكاد يستغني عنها تقريبا أي ملفوظ، وهذا ما يؤكده بارهيليل **Bar-hillel** بقوله " ... إنّ أكثر من تسعين بالمائة من التلفظات التي ننطق بها في سياق حياتنا اليومية هي تلفظات إشارية يحدّدها السياق التلفظي الذي وردت فيه".[1]

ويبدو أن هذه التقنية في التحليل قد برزت على خارطة البحث التداولي في وقت متأخر نسبيا فقد أسهمت في بلورتها الفلسفة المعاصرة للغة.[2]

وتكتسي الإشاريات أهمية كون أن لها دورا بارزا في الحفاظ على قناة التواصل قائمة بين طرفي الخطاب، فهي وثيقة الصلة بالعملية التبليغية، كما يعدُّها الدارسون من المؤكدات لأنّها ترتكز على دعامتين أساستين :

- الواقع المادي الخارجي (المكان والزمان والأشخاص والظروف الاجتماعية)
- والمؤكد اللفظي: ونعني به السياق اللغوي.[3]

لذا سأحاول في هذا الفصل دراسة الأبعاد الإشارية للدوال المشكلة لبنية الخطاب الإصلاحي لابن باديس بغية الإجابة عن هذه الأسئلة:

- كيف يمكن استثمار الإشاريات باعتبارها آلية من آليات التحليل التداولي في فهم وتأويل الرموز اللغوية للخطاب الإصلاحي ؟
- ما مدى نجاعة هذه التقنية في استجلاء مقاصد ابن باديس والكشف عن مراميه وخطته الإصلاحية ؟
- إلى أي مدى أسهمت هذه الروابط الإحالية في تحقيق تماسك هذه الخطابات وانسجامها ؟

1- ينظر يوسف السيساوي : الإشاريات مقاربة تداولية ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة لحافظ العلوي، ص 441.

2- المرجع نفسه ، ص ن .

3- محمود عكاشة : البراجماتية اللسانية ، ص 84 .

من هذا المنطلق سأقتصر منهجيا على إبراز أهمية الإشاريات باعتبارها وسيلة اتساق نحوية ودلالية وتداولية، في الكشف عن السمات النصية والمقاصد التداولية للخطاب الإصلاحي، وسأقتصر منهجيا على تحليل نماذج منها فقط نظرا لشساعة المدونة .

أولا– أهمية الإشاريات في تحقيق انسجام الخطاب

يُفرّق **دومنيك مانقانو** بين مصطلح المبهمات ومصطلح آخر يجاوره من حيث الدلالة والاستعمال وهو مصطلح العناصر الإشارية يقول في هذا الشأن:" يطلق مصطلح المبهمات embrayeurs على الوحدات اللغوية التي تتوقف قيمتها المرجعية على المحيط الزماني والمكاني ... بيد أن هناك لفظا آخر يستعمل وهو العناصر الإشارية éléments déictiques ... تشتمل هذه المقولة خاصة على الضمائر (أنا –أنت) وأسماء الإشارة و أزمنة الفعل ...". [1]

وما نستخلصه من التصور السابق هو أن المبهمات تختلف عن العناصر الإشارية _من منظور مانقانو_ في كون أنّ الأولى تحيل إلى فضاء زماني أو مكاني محدّد في العالم الخارجي، أمّا الثانية فيمكن أن يؤشّر لها تركيبيا في لغتنا العربية بالضمائر بكل أنواعها وأسماء الإشارة (هذا، هذه، هؤلاء...) وأزمنة الفعل (ماضي، مضارع، أمر) هذا من زاوية .

أما من زاوية أخرى فإنّهما أي (المبهمات والعناصر الإشارية) تتفقان في كونهما عبارة عن أشكال لغوية لا تتحدّد مراجعها إلا من طرف المتكلم والمستمع في إطار سياق اجتماعي تؤطره حدود زمانية ومكانية معينة وهذا ما يؤكده التحديد الآتي:

« مرجعيات الملفوظية، ومجموعتها الأكثر تمثيلية : أنا ، أنت ، هنا ، الآن ، عبارة عن كلمات تشير من داخل الملفوظ إلى تلك العناصر الأساسية المكونة للملفوظية، وهذه العناصر هي: المتحدث ، المخاطب ، ومكان وزمان الملفوظية[2] » وعليه فإن :

الأنا ← تشير إلى ← المتحدث (المتكلم)

أنت ← تشير إلى ← المخاطب

1- دومنيك مانقانو: المصطلحات المفاتيح لتحليل ، ص43و44.

2- جان سيرفوني: الملفوظية ، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 1998، ص 27 .

الهنا ← تشير إلى ← المكان

الآن ← تشير إلى ← الزمان

وبناء على هذه المعطيات قسم الدارسون الإشاريات إلى : شخصية ومكانية وزمانية ، ومنهم من يضيف إلى هذه الأصناف الثلاثة الإشاريات الاجتماعية والخطابية .

ثانيا– أصناف الإشاريات في الخطاب الإصلاحي لدى عبد الحميد بن باديس

1– الإشاريات الشخصية : la déixis personnelle

وهي مؤشرات لسانية تبرز على مستوى البنية السطحية أو العميقة للخطاب، وتشمل جميع أنواع الضمائر المتصلة والمنفصلة والمستترة وجوبا وجوازا .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نتعامل مع خطب ابن باديس على أنّها علامات لسانية متتابعة تتابعا خطيا أفقيا، تخضع لسياق تداولي يفسر دلالتها، فتعلق ابن باديس الشديد بوطنه جعله يتّخذ من هذه الضمائر ستارا لغويا يتخفى وراءه للتأسيس لمشروعه الإصلاحي .

ويلاحظ القارئ لهذه الخطب– وللوهلة الأولى – مدى تنوع ضمائر الحضور والغياب والتي أسهمت بشكل واضح في إحكام نسج هذه الخطب وربط أواصرها، وسنبدأ بتحليل أول صنف منها:

أ/ ضمائر المتكلم:

وتعبّر عن الذات التي يصدر عنها الخطاب، وقد تتقمص هذه الذات أدوارا مختلفة باختلاف مقام التخاطب الذي ترد فيه .

" فقد تصدر خطابات متعددة عن شخص واحد، فذاته المتلفظة تتغير بتغير السياق الذي تلفظ فيه، وهذه الذات هي محور التلفظ في الخطاب تداوليا، لأن الأنا، قد تحيل على المتلفظ الإنسان، أو المعلم، أو الأب ، وهكذا ..."."[1]

1– عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب ، ص 82 .

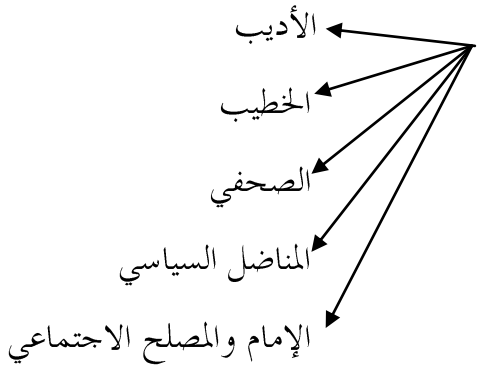

ومما لا شك فيه أن الضمير يمنح للمتكلم فضاء أرحب للتعبير عن أفكاره، وتجاربه، وميولاته، ومعتقداته، إنّه باختصار شديد الارتباط بمقاصد المتكلم .

وسنحاول تقديم نماذج عن هذه الضمائر التي تحيل إلى شخص الكاتب لنكشف من خلالها وفي كل مرة عن جانب من جوانب شخصيته يقول ابن باديس :

« **فقد العبسي المشهور منذ شهور ، وتساءل عنه الكتاب ، ولم يظفروا بعد البحث عنه من أحد بجواب ، فتحققت وفاته وماتت معه خطراته ، ولما كانت خطراته توافق خطتنا في الغالب ، رأينا أن نحيي ذكره في هذا " الشهاب " الثاقب ، فرغبنا إلى أحد الأدباء الكتاب أن ينتحل اسمه ، ويرسم رسمه ، فلبى الطلب تلبية الأكارم ووعد بابتداء الكتابة في العدد القادم** » .[1]

وسنبدأ بتحليل الضمائر المشكلة لبنية هذا الخطاب وهي كالتالي:

[1] عبد الحميد بن باديس : الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، مج 5 ، ص 10 .

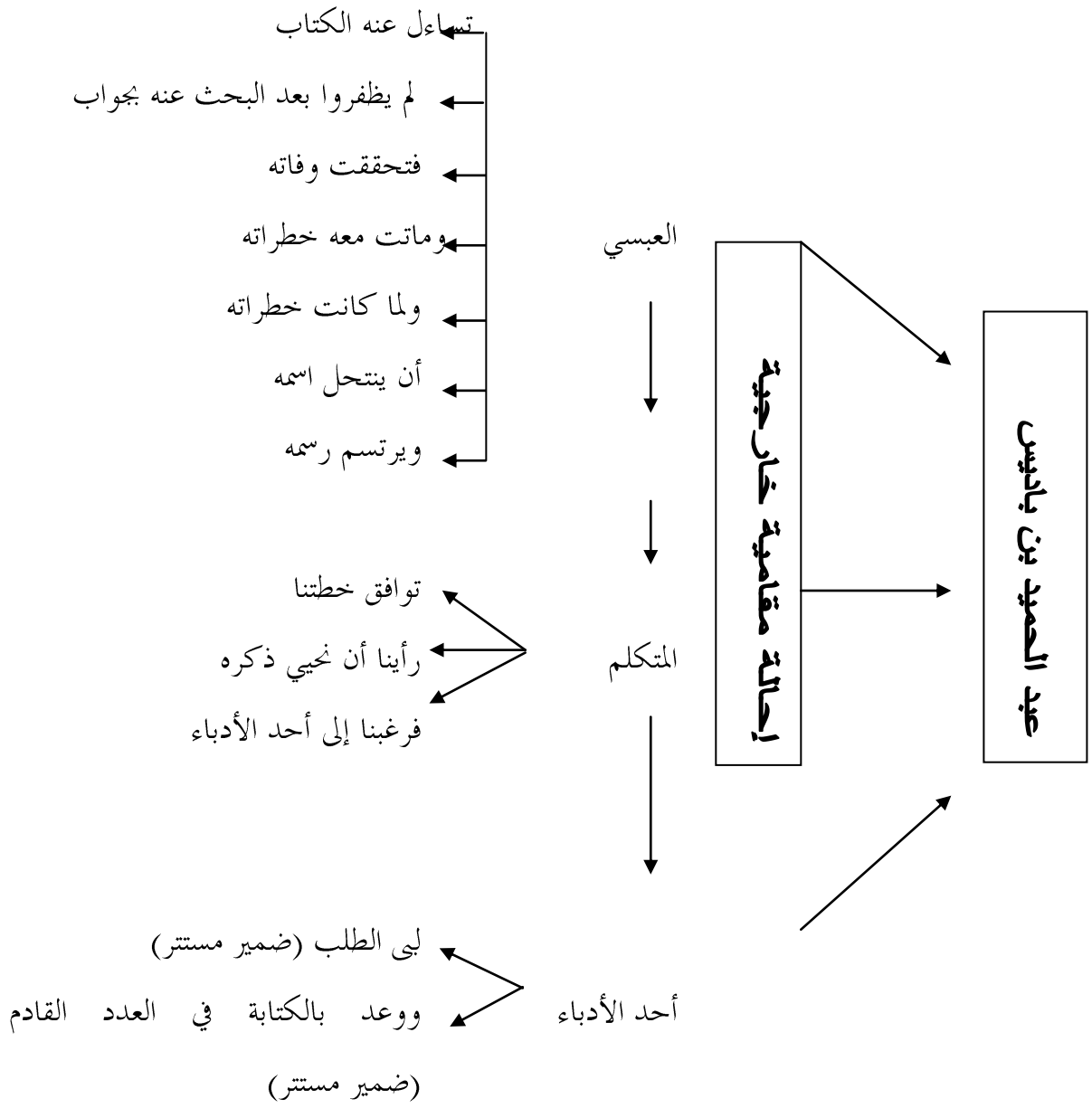
عبد الحميد بن باديس
إحالة مقامية خارجية
العبسي
تساءل عنه الكتاب
لم يظفروا بعد البحث عنه بجواب
فتحققت وفاته
وماتت معه خطراته
ولما كانت خطراته
أن ينتحل اسمه
ويرتسم رسمه
المتكلم
توافق خطتنا
رأينا أن نحيي ذكره
فرغبنا إلى أحد الأدباء
أحد الأدباء
لبى الطلب (ضمير مستتر)
ووعد بالكتابة في العدد القادم
(ضمير مستتر)

يتصدر هذا النموذج عنصر إشاري (**العبسي**) يمثل بؤرة مركزية حيث تحيل إليه أغلب الضمائر (المتكلم والغائب) ، فالملاحظ أنّ ابن باديس لم يصرح باسمه، إلاّ أن القارئ يستطيع تحديد ذات المتكلم وذلك بالرجوع إلى السياق التاريخي الذي تَنزَّل فيه هذا الخطاب .

فبالبحث والتنقيب في بعض الدراسات المتعلقة بحياة صاحب الآثار، تبين لنا أن لفظ "**العبسي**" إنّما يقصد بها « ... نحت اسم مستعار من عبد الحميد بن باديس لكنه يريد أيضا أن يلمح إلى ذلكم الفارس العربي المغوار الذي عاش في الجاهلية بالأخلاق العربية الإسلامية أسود اللون أبيض الفعال ... بطلا ترتعد منه فرائص أشجع الشجعان ... فلماذا لا يستعير منه النسبة (عبسي) ؟ »[1] .

يتضح لنا من هذا القول أن لفظ العبسي هو عنصر إشاري يحيل إلى مرجع محدّد في المقام التخاطبي ويتمثل في " شخص عبد الحميد بن باديس" فذات المتكلم تعد مرجعا غير لغوي وهي غير مصرح بها في عالم الخطاب إنما حددها السياق التداولي.

وتكسب الضمائر المحيلة إلى " العبسي " النص اتساقه وترابطه وهذا الشكل من الإحالة يطلق عليه إحالة داخلية قبلية، كما يتوفر النص على نوع آخر من الإحالة يتمثل في " إحالة على ما هو خارج اللغة"[2] ويطلق عليها الإحالة المقامية أو الخارجية والجدول الآتي يوضح ذلك :

الضمائر	عددها	العناصر المحيلة	المرجع	نوع الإحالة
متصلة	07	عنه – عنه – وفاته ، خطراته ، اسمه ، رسمه	العبسي	داخلية قبلية
متصلة	04	خطتنا – رأينا – نحي ، رغبنا	عبد الحميد بن باديس	خارجية مقامية
مستترة	02	لبى الطلب (ضمير مستر) وعد بالكتابة (ضمير مستر)	أحد الكتاب	داخلية قبلية

1- عبد الحميد بن باديس،:آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين ، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ط1، 1994 ، ج6 ، ص 8 .

2- الأزهر الزناد: نسيج النص (ما يكون به الملفوظ نصا)، المركز الثقافي العربي، بيروت،لبنان،ط1،1993،ص 119 .

تنوعت الضمائر في هذا النموذج بين (مستترة ومتصلة) ولكن يظل المرجع الذي تشير إليه واحد وهو ذات المتكلم (ابن باديس) فـــ " ... مهما تعددت أنواع الإحالة فإنها تقوم على مبـــدأ واحد هو الاتفاق بين العنصر الإشاري والعنصر الإحالي في المرجع.. " [1].

كما ترتبط الحمولة الدلالية لهذه الضمائر (المستترة والمتصلة) والاسم المستعار العبسي بمقاصد المتكلم، خاصة إذا علمنا أن هذا الخطاب يتنزل ضمن سياق تاريخي تمثل في مصادرة فرنسا لجريدة "المنتقد" وقد أكد ابن باديس ذلك في موضع آخر من آثاره يقول:« ... **ففي صبيحة 21 من أكتوبر حجزت أعداد من المنتقد من حوانيت الباعة ، وفي عشية الأربعاء التي تلي أعلم صاحب الامتياز بتحجير نشر الجريدة ورواجها بقرار من وزير الداخلية فعجبنا ولم نعجب** ... ».[2] وهذا القرار الجائر أثار غضب ابن باديس فما كان رد فعله إلا أن أنشأ جريدة الشهاب خلفا للمنتقد وقد صرح بذلك في هذا النموذج قائلا: «**أردنا أن نحي ذكره في هذا الشهاب الثاقب ...** ».[3]

ومن هنا ندرك أهمية السياق التداولي في تحديد مرجعية الضمائر من جهة، واستكمال المسار الدلالي لبنية الخطاب من جهة أخرى ، باعتبار أن السياق هو النص الخفي المصاحب للنص الظاهر .

فقد فرض الظرف الاستعماري على ابن باديس عدم التصريح باسمه والإشارة إليه بعناصر لغوية مختلفة (الضمائر ، الاسم المستعار) وبعض صفاته (أحد الأدباء) .

أما عن استعمال ضمير الغائب للإشارة إلى ذات المتكلم، فإن هذا النوع من الممارسات التداولية «... شائع أكثر في الخطابات الرسمية أو ما شابهها » [4].

وعليه فقد عملت هذه العناصر الإشارية على الإحالة إلى عبد الحميد بن باديس فحققت ربطا لأجزاء هذا الخطاب من زاويتين :

– **الزاوية الأولى:** داخلية عن طريق ربط النص ربطا خطيا أفقيا وهو ما يطلق عليه بالإحالة الداخلية القبلية.

1- المرجع السابق: ص ن .

2- عبد الحميد بن باديس ، المصدر نفسه ، مج 5 ، ص 05 .

3- المصدر نفسه ، ص 10 .

4- عمر بلخير : تحليل الخطاب المسرحي : ص 74 .

– **الزاوية الثانية** : خارجية عن طريق ربط النص بالمقام التداولي الذي ساهم في انتاجه فـــ " الأنا " موجودة في الخطاب الإصلاحي لأنها : « ... الذات المحورية التي تدور حولها كل الذوات الأخرى الواردة في النص ...ولذلك تكون كل الإحالات اللغوية التي يعمل فيها عامل الإحالة على المستوى الداخلي متداخلة مع الإحالة الخارجية تداخلا شديدا يصعب الفصل بينهما » .[1]

وهذا ما يحدث توازنا بين عالم النص الداخلي والخارجي مما يفضي ذلك إلى ترابطه وانسجامه.

وإذا كانت العناصر الإشارية في النموذج السابق تشير إلى مرجع غير لغوي تمثل في شخص ابن باديس الكاتب والصحفي، فإننا سنحاول الكشف عن جوانب أخرى من شخصية صاحب الآثار في سياقات أخرى متنوعة باعتبار أن ذات المتكلم هي محور التلفظ وتتغير بتغيير المقام الذي ترد فيه .

ومن النماذج الأخرى التي وردت فيها الإشارة إلى شخص المتكلم (ابن باديس) نذكر:

النموذج الأول:

« ... جرت عادتنا أن نفتح دروس التفسير من كل سنة بخطبة ، تارة نخرج منها إلى نفس التفسير وتارة نطرق بعدها موضوعا مناسبا للمقام ، ولم نكن فيما مضى نعود إلى كتابتها وفي هذه السنة رأينا أن نحلي بها صدر الشهاب تعميما للفائدة .... » .[2]

النموذج الثاني:

«...إذا كنت أستمد القوة والحياة فأني أستمدها ممن أولوني شرف الثقة والإخلاص لديني وأمتي ... إني أعاهدكم على أني أقضي بياضي على العربية والإسلام ، كما قضيت سوادي عليهما... » .[3]

النموذج الثالث:

« ... باسم الأمة الإسلامية أرفع احتجاجي الشديد ضد مشروع تقسيم فلسطين ذلك القطر العربي الذي ضمنت له العهود والمواثيق الدولية حفظ كيانه واستقلاله ، ... ولي الأمل في تدخل الحكومة الفرنسية بسرعة لمنع هذا التقسيم ... »[4].

1- سعيد حسن البحيري " دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، مكتبة الآداب القاهرة ، ط1 ، 2005 ، ص 118 .

2- عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج 1 ، ص 157 .

3- المصدر نفسه ، مج 2 ، ص 143

4- المصدر نفسه ، مج 3 ، ص 409 .

النموذج الرابع:

« ... ونحن ننصح لإخواننا أن يقلعوا عن هذه العادة الذميمة والبدعة الضالة التي يزداد قبحها... ونرشدهم إلى ما يحصل لهم ولأحبابهم بركة الاجتماع في غير رياء ... ».[1]

لقد حملت ضمائر المتكلم (المنفصلة نحن والمتصلة والمستترة) في هذه النماذج شحنة إخبارية "وكأن الشخصية باستعمالها لذلك الضمير تتقدم للقارئ أو الجمهور وتقوم بالتعريف بنفسها أو مرتبتها.... " .[2]

فالمعطيات الأولى التي يتحصل عليها القارئ للخطاب الإصلاحي لابن باديس هي وظيفته الاجتماعية (مفسر، مصلح ديني، مناضل سياسي، مصلح اجتماعي) وسنوضح ذلك أكثر من خلال الجدول الآتي :

رقم النموذج	ضمائر المتكلم نوعها	عددها	العناصر المحيلة	المرجع	وظيفته الاجتماعية
01	مستترة	08	عادتـــنا – نفتح – نخرج – نطرق – لم نكن – تعود – نحلي – رأينا	ابن باديس	المفسر
02	متصلة	09	كنت ، أولوني ، إنني ، أنني ، بياضي ، سوادي	ابن باديس	المصلح الديني
	مستترة	03	أستمد ، أعاهد ـــ أقضي		
03	متصلة + مستترة	02 01	احتجاجي – لـــــــي أرفع	ابن باديس	المناضل السياسي
04	منفصلة متصلة مستترة	01 01 01	نحن إخواننـــــا نرشدهم	ابن باديس	المصلح الاجتماعي

1- المصدر السابق، مج 6 ، ص 18 .

2- عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي ، ص 78 .

يستخدم ابن باديس الضمائر المتصلة الدالة على المفرد المتكلم حينا والضمير " نحن " حينا بحسب سياق الموقف .

ففي حالة اتخاذه لقرارات شخصية كما في قوله: « أعاهدكم على أني أقضي بياضي على العربية كما قضيت سوادي عليهما ... » فإنه يشير إلى ذاته بالعنصر الإشاري أنا أو ضمير المتكلم الدال على المفرد عموما، أما في حالة استعماله للضمير " نحن " فإنه يريد أن يلمح إلى أن هناك أطرافا أخرى شاركت في العمل الإصلاحي، مما يؤكد تضافر الجهود في هذا الميدان ويتضح ذلك في قولـــه : «ونحن ننصح لإخواننا أن يقلعوا عن هذه العادة السيئة... ».

فتوظيف الإشاريات الشخصية في الخطاب الإصلاحي عموما يتجاوز القواعد النحوية الصارمة إلى فسحة الممارسة التداولية الرّحبة وعليه فإن الضمير " أنا " لا يوحي بالنزعة الفردية أو حب السلطة كما لا يوحي الضمير " نحن " بالإعلاء من الشأن وتعظيم النفس. [1] بقدر ما يوحي هذا الأخير بالمشاركة الفعالة في النسيج الاجتماعي بغية تحقيق أهداف مستقبلية تتعلق بإصلاح الفرد والنهوض بالمجتمع.

وعليه فيمكن أن نطلق على العنصر الإشاري **نحن** في هذا السياق التداولي **نحن** المشتملة التي تضم المتكلم ابن باديس ومن كان يسانده في رسالته الإصلاحية من أعضاء جمعية العلماء المسلمين، تمييزا لها عن نحن المستثنية التي تخص المتكلم وحده .[2]

ولا يعزب عن القارئ الخيط الناظم لهذه النماذج والجامع بينها إذ أنّها كانت بيانا للمشروع الإصلاحي لابن باديس، ونظرته المستقبلية لما يجب أن تكون عليه أحوال الأمة .

فكان الضمير **أنا** / **نحن** مدخلا مهما لفهم مقاصد المتكلم من جهة واستكمالا للمسار الدلالي لبنية هذه النصوص من جهة أخرى.

وبما أن الخطاب الإصلاحي بنية تفاعلية تقتضي وجود طرفي الخطاب **أنا** مقابل **أنت**، فإننا سنتوجه إلى دراسة وتحليل الضمائر المحيلة إلى الطرف الموجه إليه الخطاب (المرسل إليه / المخاطب).

1- تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2001، ص362.

2- جورج يول: التداولية، ص 31.

ب/ ضمائر المخاطب :

يشير هذا الصنف من الضمائر إلى حضور المرسل إليه في بنية الخطاب الظاهرة أو العميقة من خلال بروز مؤشّرات أو قرائن لغوية تدل عليه، تتمثل في ضمائر المخاطب بأنواعها البارزة والمتصلة أو المستترة، و ما يلاحظ أن المرسل إليه " ... يتعدد بتعدد العصور والقراء والدارسين والسامعين غير أنّه يجب أن يميّز بين مرسل إليه جوهري وآخر ثانوي أو فرعي ... ولا علاقة لنا بشكل مباشر مع هذا المرسل إلا بما يربطنا معه من نظام لغوي مشترك، و وجدان إنساني،و إحالات...". [1]

ويتوفر الخطاب الإصلاحي لابن باديس على ضمائر للخطاب بأنواعها (منفصلة، ومتصلة ومستترة)، يتحكم في استعمالها نوع العلاقة بين طرفي الخطاب (المرسل / المرسل إليه)، وحسب الألعاب اللغوية التي يمارسها المتكلم والتي يجعلها بقدر ما أمكن تتناسب مع مقاصده وأغراضه التداولية .

فقد يقترن العنصر الإشاري " أنت " بمرجع ثابت ومحدّد كما يتّضح ذلك في خطبة لابن باديس يرثي فيها " **عبد القادر المجاوي** " أحد رواد الإصلاح في الجزائر يقول فيها :

" ... فرحماك اللهم ما أوجع هذا الموقف المؤسف الذي نرى فيه الإمام مسجى على وشك الارتحال، وا أسفاه عليك أيها الإمام الذي ببزوغ شمسه تمزقت سحب الجهل وبدت غرّة العلم للعيان ، أنت الذي عانيت في سبيل إصلاحنا أتعابا طويلة ، أنت الذي كما كنت مورد المتعطشين ، ومصدر الكاملين ، كنت مثالا لحسن الأخلاق وكرم الطبع ... أنت الذي تعاضد حلمك وعلمك فأصعدا بالناس في معارج الكمال ... . "[2] . تبرز ضمائر المخاطب في هذا النموذج من خلال الكلمات الآتية: {عليك، حلمك، علمك، كنت (تكررت مرتين)، عانيت.}

وتحيل هذه العناصر الإشارية كلّها إحالة داخلية قبلية لمرجع محدّد " هو **عبد القادر المجاوي** " إذ أغنى استعمال الضمائر عن تكرار الاسم المشار إليه يقول تمام حسان في هذا السياق : « ... إن الضمائر تكون ذات مراجع متقدمة عليها في اللفظ أو في الرتبة ، أو فيهما معا ، والأغلب في هذا المرجع أن يكون اسما ظاهرا محدد المدلول ... وتقدم هذه المراجع لفظا أو رتبة أو هما معا ضروري للوصول إلى هذه الدلالة ». [3]

1- عبد الجليل مرتاض: لسانيات النص والتبليغ ، منشورات دار الأديب ، دط، دت، ص130 .

2- عبد الحميد بن باديس ، المصدر نفسه ،مج 6 ، ص 363 .

3- تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 111 .

وإن ذكر مرجع الضمير في بنية هذا الخطاب لا يكلّف القارئ عناء النظر في سياق الموقف أو تتبع ملابسات هذا الخطاب.

ولا ينحصر استعمال ابن باديس لهذه الضمائر عند الإحالة على مرجع فقط، بل قد يتجاوز ذلك لتصبح هذه العناصر الإشارية مؤشرات لغوية تعبر عن آلام الكاتب وأوجاعه النفسية بسبب فقده لأهم رائد من رواد الإصلاح في تلك الفترة .

حيث جسدت هذه الضمائر نوعا من علاقة « ... الحميمية والتقرب الاجتماعي »[1].

ونلاحظ أن استحضار المتكلم للمخاطب في هذا المقام هو استحضار ذهني وليس استحضارا عينيا [2] فقد انتزع ابن باديس من نفسه شخصا وخاطبه « ... لأن خطاب التجريد يختلف عن خطاب الحضور ... » .[3]

والمخطط الآتي يوضح أطراف العملية التخاطبية:

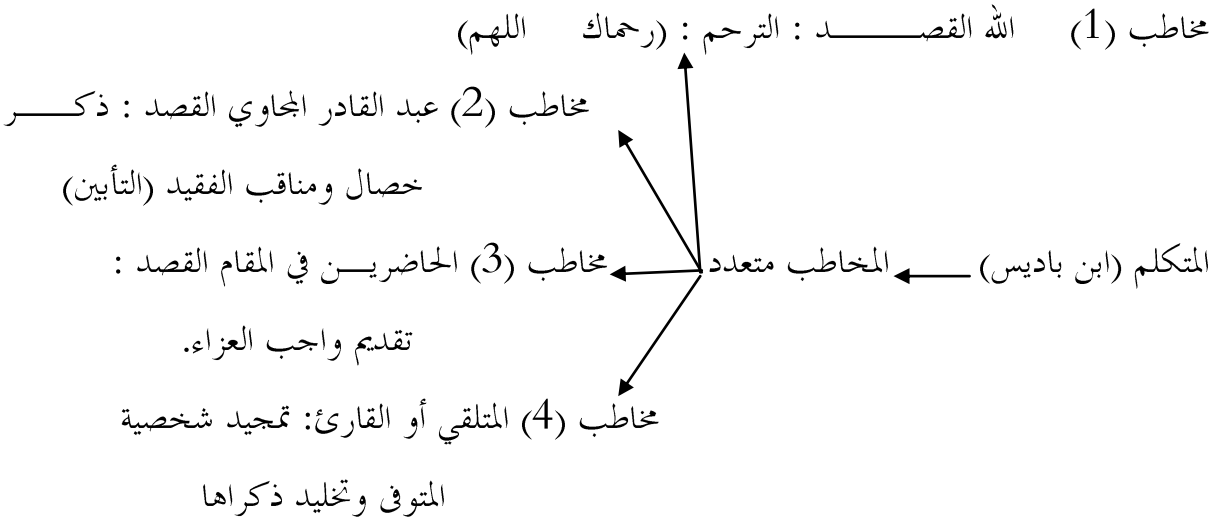

أسهمت ضمائر المخاطب في الربط بين الأجزاء الداخلية للنص ، وأحالت كلها إحالة داخلية قبلية كون مرجع الخطاب واحدا منذ البداية ، فحققت العلاقة بين العنصر الإشاري والمرجع ارتدادا إلى موضوع الخطاب وهو " رثاء عبد القادر المجاوي حيث اشتملت هذه العناصر الإشارية على ظلال من

1- ينظر:عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب ، ص 288 .
2- المرجع نفسه، ص 292 .
3- تمام حسان : اجتهادات لغوية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط1 ، 2007 ، ص 226 .

المعاني الكثيفة، إذ كشفت عن الحس المرهف لابن باديس، ومدى إخلاصه لبني قومه وجلدته، وهذا ما جعله يستحضر في خطابه صورا بلاغيـــة كمـــا في قوله: « ... بزوغ شمسه، تمزقت سحب الجهل، مورد المتعطشين... » لتزيد المعنى قوة واللفظ سحرا والأسلوب جمالا وتأثيرا.

وقد ترد ضمائر المخاطب لتشير إلى مرجع غير ثابت أو غير محدّد كما هو الحال في مخاطبته للمسلم الجزائري بقوله:

« ... **حافظ على حياتك ، ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك ، وإذا أردت الحياة لهذا كله، فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامـــــل .**

كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك ورقيك، كن صادقا في معاملاتك بقولك وفعلك ... ».[1]

تنوعت ضمائر المخاطب في هذا النموذج بين منفصلة ومتّصلة ومستترة والجدول الآتي يوضّح ذلك:

ضمائر المخاطب	عددها	العناصر المحيلة	المرجع	نوع الإحالة
المنفصلة	01	أنت	المسلم الجزائري	إحالة داخلية قبلية
المتصلة	18	حياتـــ(ك) – لـــ(ك) – قومـــ(ك) – وطنـــ(ك) – دينـــ(ك) – لغتـــ(ك) – عاداتـــ(ك) – وقتـــ(ك) – فكر(ك) – عملـــ(ك) – تجارتـــ(ك) – فلاحتـــ(ك) –صناعتـــ(ك) – تمدنـــ(ك) – رقيـــ(ك) – معاملاتـــ(ك) – بقولـــ(ك) – فعلـــ(ك)	المسلم الجزائري	
المستترة	04	فكن (تكررت 3 مرات) تسير (أنت)	المسلم الجزائري	

1- المصدر السابق، مج 3 ، ص 158 .

يتوجه ابن باديس بخطابه إلى كل مسلم جزائري وهو لا يقصد مسلما بعينه ، وإنما يقصد كل إنسان تنطبق عليه سمات (المسلم / الجزائري) وهذا يعبر عن هويته وانتمائه إلى جماعة معينة من جهة ، والاتفاق معها في الرأي من جهة أخرى. [1]

ويجسد المتكلم في هذا الخطاب دور المربي والمصلح والمرشد مما يوحي ذلك إلى مخاطبه أنّه شديد الحرص على مصلحته الشخصية، وبهذا يعتقد المخاطب أن هذا الكلام يخصه وحده دون غيره فيكون بذلك « ... مبرر استعمال أنت في الخطاب هو كونها أداة غير محددة المرجع ، وهذه خصيصة تعطي الخطاب بعدا تداوليا أوسع ، حيث يسوغ استعمالها لمخاطبة كل من تنطبق عليه سمات المرسل إليه العام ، أي المفترض ، ولا تتجه إلى واحد بعينه ... » .[2]

وحِرْصُ ابن باديس على إفادة المخاطب بهذه التوجيهات والنصائح يندرج ضمن " قانون الإفادة " الذي نصَّ عليه **غرايس** الذي يرى : " أن المشروعية الخطابية لقول ما تقاس بمدى فائدته وليس بقدرته على الإخبار". [3]

والملاحظ أن هذا القانون قد شمل كل خطب ابن باديس لأن هذه النصوص تهدف أساسا لإصلاح الفرد والنهوض بالمجتمع .

وتقتضي الممارسة التداولية أحيانا استعمال ضمير في غير موضعه كمخاطبة الغائب بضمير المخاطب الدال على الجمع كما يتضح ذلك في قول ابن باديس :

« ... **فأنتم يا رجال القضاء الإسلامي – الرمز الوحيد الذي بقي للسلطة الإسلامية وأنتم المظهر الذي يمثل النظام القضائي الإسلامي** ... » .[4]

ويتوجه في نموذج آخر بخطابه للمربين والمعلمين قائلا:

1- عمر بلخير : تحليل الخطاب المسرحي ، ص 79 .وانظر أيضا عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب، ص 287 .

2- عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب ، ص 289 .

3- ينظر عمر بلخير : تحليل الخطاب المسرحي ، ص 105 .

4- عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج 6 ، ص 95 .

« **أنتم – يا رجال التربية والتعليم – أعلم الناس بفضل التربية والتعليم على الأمم ، وقيام بنائهما عليهما ...** » .[1]

يحيل العنصر الإشاري " **أنتم** " إحالة داخلية بعدية لمرجعين مختلفين سبق ذكرهما في النموذجين السابقين وهما رجال القضاء / رجال التربية ونوضح هذه العلاقة النصية من خلال المخطط الآتي:

النموذج 1: أنتم ← إحالة داخلية بعدية ← المرجع ← رجال القضاء

النموذج 2 : أنتم ← إحالة داخلية بعدية ← المرجع ← رجال التعليم

ولعل القصد من استعمال الضمير الدال على الجمع لمخاطبة الغائب في هذا المقام ، هو محاولة من ابن باديس لإحداث تواصل تفاعلي مع المخاطبين، وإن كان استحضاره لهم ذهنيا على الرغم من أن الممارسة الخطابية تقتضي حضور طرفي الخطاب حضورا عينيا .

ويفرض التفاوت في المراتب الاجتماعية أحيانا استعمال الضمير أنتم " لمخاطبة " الشخص المفرد مثل ما حصل مع ابن باديس عند مخاطبته لـــ**بلوم فيوليت Blum Viollette** بضمير المخاطب الدال على الجمع في قوله:« ... **يا جناب الوالي مسيو فيوليط ... إنّنا نأسف على أن ينقضي علينا نحو القرن في قطيعة متجددة من مثل هؤلاء المؤتمرين وعتاب من ناحيتنا ... إننا عليكم وعلى أمثالكم من الأحرار الفرنسويين نعلق الآمال في تطهير طريق الإخاء الفرنسوي الجزائري من هذه الأشواك فمتى تفعلون ؟ ... افعلوا تشكرو وتخدموا فرنسا وأبناءها المخلصين ...** » .[2]

نلاحظ أن الخطاب موجه من أدنى رتبة إلى أعلى رتبة في السلم الاجتماعي، وهذا التفاوت الحاصل بين طرفي الخطاب نجم عنه خرقا للقاعدة النحوية، وتملصا من القيد البنوي الصارم لنظام اللغة إلى رحابة الممارسة التداولية التي تقتضي مخاطبة الأعلى رتبة بضمير الجمع ، وإن كانت هذه الاستعمالات شائعة أكثر في الثقافة الفرنسية وقد أطلق عليها **جورج يول** "المبجلات honorifics". [3]

1- عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق ، مج 6 ، ص 97.

2- المصدر نفسه، مج3 ، ص156وص157.

3- جورج يول: التداولية، ص 29.

ومخاطبة ابن باديس لبلوم فيوليت بضمير المخاطب الدال على الجمع يقصد من ورائه إظهار مدى تقديره واحترامه لشخصه ، كما برزت مؤشرات لغوية أخرى تبرز هذا التقدير والاحترام مثل قوله " يا جناب الوالي "، " تشكروا "، "مسيو" والجدول الآتي يوضح طبيعة هذه العلاقة :

التقدير والاحترام	المدح + الاستعطاف	الشكر
مخاطبة المفرد بضمير الجمع (أنتم) + الصيغة الاجتماعية الدالة على الاحترام يا جناب الوالي – مسيو (وتقابلها في لغتنا العربية كلمة السيد ، وتوظف في المجتمع الفرنسي لتدل على الاحترام)	عليكم وعلى أمثالكم من الأحرار الفرنسويين	افعلوا تشكروا

ويمكن توضيح طبيعة العلاقة التي تربط **ابن باديس ببلوم فيوليت** أكثر من خلال المحور المتعامد والمتجانس على النحو الآتي :

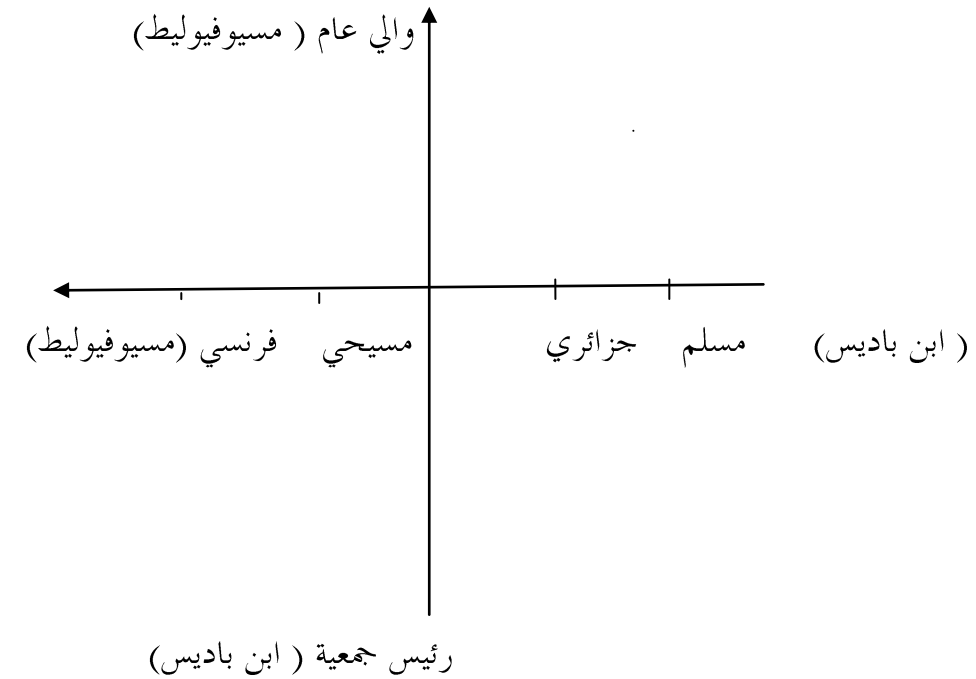

تتجسد العلاقة الخطية الأفقية في مجموعة من الخصائص التي تميز قطبي التخاطب عن بعضهما، والمتعلقة أساسا بعدم اتفاقهما في **المعتقد** – مسلم ≠ مسيحي- **والجنسية** جزائري≠ فرنسي- **والقومية** عربي≠ غربي.

وتتبلور العلاقة العمودية في ذلك التباين الواضح على مستوى سلم الوظائف الاجتماعية (رئيس جمعية- والي عام).

وينتهج ابن باديس في تعامله مع مثل هذه الشخصيات **الإستراتيجية التضامنية** [1] التي تسهم بشكل واضح في توطيد العلاقة بين طرفي الخطاب من جهة، وتقريب وجهات النظر من جهة أخرى مما يساعد ذلك على تحقيق مقاصد المتكلم وبلوغه لأهدافه .

وما نلاحظه أن المعطيات اللغوية الماثلة في بنية هذا الخطاب غير كافية لإعطاء تفسير مقبول للنص، إذ بالعودة إلى سياق الموقف يتضح لنا أن أقوال ابن باديس في هذا السياق لا تخضع لشرط الصدق الذي نص عليه غرايس حيث يلح هذا الأخير "على أهمية الصدق في الخطاب". [2]

ويذكر المؤرخون أنه قد وجهت لابن باديس آنذاك انتقادات حادة نتيجة انتهاجه لمثل هذه السياسات في التعامل مع الاستعمار الفرنسي ،ولم يدرك منتقدوه في ذلك الوقت المغزى الحقيقي من وراء هذه الخطة فقد « ...كان يتعمد... انتقاء العبارات التي لا تثير شكوك الحكام، أو تجعلهم يسيئون الظن بحركته ، العبارات التي تحمل ما يوحي بالكشف عن مواقفه الحقيقية المعادية للاستعمار... .[3]

فلو أظهر ابن باديس لعدوّه ما يكنّه له من بغض وعداء، لأمرت السلطات الفرنسية بحل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ يوم تأسيسها، لذا تعمّد استعمال مثل هذه الإستراتيجية التخاطبية لإخفاء ما تنطوي عليه سريرته من نوايا رغبة منه في مراوغة العدو الفرنسي وتضليله ليحقّق ما يصبو إليه من أهداف، فالظرف الاستعماري هو الذي فرض عليه مثل هذه الأساليب في التخاطب، ومن ثمة يمكن

---

[1] – اعتمدنا في هذه الدراسة على بعض الاستراتيجيات في مقاربة بنية الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس وقد استلهمتها من عند عبد الهادي بن ظافر الشهري من خلال مؤلفه المشهور استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية ،انظر الإستراتيجية التضامنية ص 257.وانظر الاستراتيجية التوجيهية ص 322.

[2] - ينظر عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي.**ص 106** .

[3] - عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان : إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ، ص 158 .

القول إن السياق التداولي له تأثير واضح على المرسل أثناء اختياره لآلياته اللغوية للتعبير عن مواقفه الذاتية وتوجهاته الشخصية.

ج/ ضمائر الغائب:

يتوفر الخطاب الإصلاحي لابن باديس على مَوَاضِعَ عدّة لعناصر إشارية متعلقة بالغيبة، وقد اطّرد ورودها بصيغ مختلفة منفصلة ومتصلة ومستترة .

ورد العنصر الإشاري "**هو**" الذي يحيل على مرجع يكمن في المفرد الغائب ومن نماذجه « ...**وسمى الله تعالى – نبيه صلى الله عليه وسلم – ذكرا في قوله " قد أنزل الله علكيم ذكرا " لأنه مخبر عن ربه ومبلغ للذكر ، أو لأنه هو – صلى الله عليه وسلم – يذكر في الصلاة عليه والحديث ، وفي سيره وشمائله بالألسنة والقلوب ، عبر عن إرساله بالإنزال لأن رسالته وحي من العلي الأعلى**... »[1].

يتوفر هذا النموذج على مبهمات للخطاب تحيل إلى شخص الرسول –صلى الله عليه وسلم – نوضحها كالآتي:

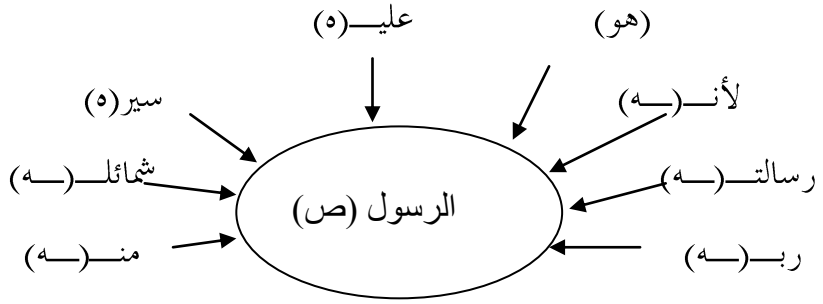

تحيل هذه العناصر الإشارية الدالة على الغيبة إحالة داخلية قبلية لمرجع محدد مذكور في السياق اللغوي وهو شخص (الرسول ص)، فحققت تماسكا للبنية المشكلة للخطاب وعملت بذلك على مد «...جسور الاتصال بين الأجزاء المتباعدة في النص ... ». [2]

وبما أن الضمائر بشكل عام يطلق عليها مبهمات فإن النحاة يصرون على ضرورة تحديد مرجع الضمائر، فإذا كان الضمير أنا / أنت "لا يمكن وسمه أو تعيينه إلا عبر موقع الخطاب أو مقامه"[3] باعتبارهما ضمائر

1- عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج 1، ص 130 -129

2- سعيد حسن البحيري : دراسة اللغوية في العلاقة بين البنية والدلالة ، ص 98 .

3- عبد الجليل مرتاض:لسانيات النص والتبليغ،ص158.

حضور، فإن الضمير الغائب « .. صاحبه غير معروف، لأنه غير حاضر ولا مشاهد، فلا بد لهذا الضمير من شيء يفسره ويوضح المراد منه ». [1]

وعليه فإن لفظ " الرسول صلى الله عليه وسلم – يعد مركزا إشاريا تؤول إليه أغلب الضمائر، ويهدف ابن باديس من وراء التصريح بهذا المرجع داخل عالم الخطاب إلى ربط القارئ بعالم النص الداخلي، وشده إليه بقوة حتى لا يسود الإبهام ويستغلق الفهم، وهذا ما يجعل رسالته الإصلاحية أكثر وضوحا وتأثيرا .

ويَعُدُّ النحويون هذه العناصر الإشارية من الناحية الدلالية مؤكدات لأنّها تعمل على تأكيد المعنى وتقويته من جهة،كما تفيد الاختصار وتجنب التكرار من جهة أخرى.

أما فيما يخص الضمير المنفصل " **هو** " في قوله لأنه هو – صلى الله عليه و سلم – ... " فقد سماه بعض الكوفيين دعامة ،لأنه يدعم به الكلام ،أي: يقوى به ويؤكد،والتأكيد من فوائد مجيئه".[2]

وسنحاول فيما يأتي تحديد أطراف العملية التخاطبية، أي نعمل على الإجابة عن الأسئلة كالآتي : من يتكلم ؟ ومن يوجه إليه الكلام ؟ وما هو الموضوع المتحدث عنه ؟

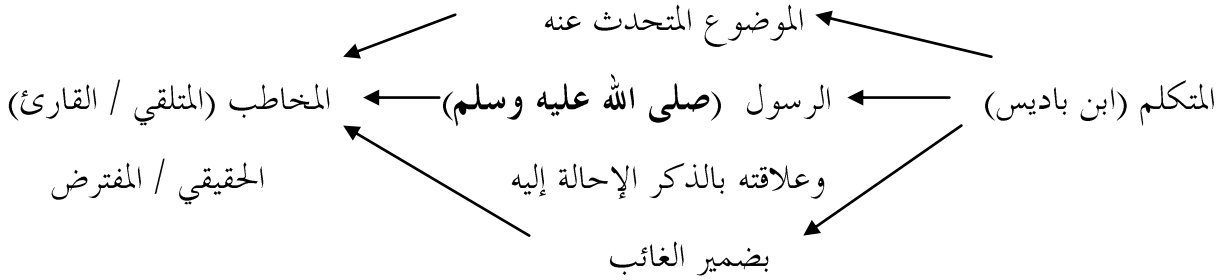

ما يهدف إليه ابن باديس في هذا السياق التداولي هو " التذكير " أي تذكير القارئ بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) سماه الله ذكرا ، لأنه هو الذاكر لله والمبلغ لذكره، فاقترن ذكر الله بذكر نبيه وهذا هو الأساس الذي تتأسس عليه عقيدة التوحيد التي يريد ابن باديس ترسيخها في ذهن كل مؤمن .

وإذا كان ضمير الغائب المفرد قد أناب عن الموضوع المتحدث عنه والمتمثل في " شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم (وعلاقتها بالذكر)، فإننا نجد في سياقات أخرى ضمير الغائب الدال على

---

[1] – عباس حسن: النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة، دار المعارف بمصر، . ط3، دت ،ج1، ص 255.

[2] ينظر سعيد حسن البحيري : دراسات لغوية تطبيقية في علاقة البنية بالدلالة ، ص 138 .

المثنى قد أحال إلى صفة خلقية لا إلى ذات بشرية ويتجلى ذلك في قوله: « **الصدق والكذب يكونان باللسان على ما تقدم من التفسير وهو الأصل في إطلاقهما ، وعليه محمل الحديث ، ويكونان في القلب من حيث الاعتقاد ... ويكونان في الجوارح من حيث الأفعال** ... . ».[1]

ويمكن تمثيل العناصر الإشارية الواردة في هذا النموذج كالآتي :

الصدق والكذب ← (يـــ) كونـــ(ا)ن باللسان (هما)

← (يـــ)كونـــ(ا)ن في القلب (هما)

← إطلاقـــ(هما) (هما)

← (يـــ)كونـــ(ا)ن في الجوارح (هما)

تحيل الضمائر في هذا النموذج إحالة داخلية قبليه لمرجعين محددين داخل سياق التلفظ يتعلقان بـــ (الصدق والكذب)، فحقّقا بذلك ربطا داخليا لأجزاء النص، كما نلاحظ أن هناك تطابقا نحويا ودلاليا بين العنصر المحيل والمحال عليه، وهذا ما سنوضّحه من خلال المخطط الآتي:

الصدق والكذب (مثنى) ← يكونـــ(ا)ن (مثنى)

الصدق والكذب (مثنى) ← إطلاقـــ(هما) (مثنى)

ويفيد العنصر الإشاري (هما) في هذا السياق التلفظي الاختصار وتجنب التكرار وتأكيد المعنى.

أما عن مرجع هذا الضمير "**هما**" فقد حدّده السياق اللغوي وهذا لا يكلف القارئ عناء النظر في السياق الخارجي للنص.

وهذه الإستراتيجية المباشرة التي انتهجها ابن باديس في مخاطبة غيره تهدف إلى الأخذ بيد القارئ للغوص في جوهر هذه النصوص لاستجلاء الدلالات العميقة التي تنطوي عليها، فيتشرب بذلك مبادئها وقيمها وهذا ما ينمّ على مدى كفاءة المتكلم اللغوية والتداولية .

وقد تقتضي الممارسة التداولية استعمال ضمير الغائب كوسيط فعال لنقل الأخبار والمعلومات، أو التعبير عن الأحاسيس والأوضاع النفسية للمتكلم.

---

[1] عبد الحميد بن باديس :المصدر نفسه، مج 2 ، ص 181 .

ويستعمل الكاتب ضمير الغائب الدال على الجمع (هم) لينقل للرأي العام قضية حسّاسة تتعلق بحكم جائر سلطته فرنسا على بعض الأعضاء من وادي سوف بغير وجه حق، حيث كانوا ينتمون إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يقول ابن باديس في هذا الشأن.

" ... أمثال هؤلاء العلماء الأحرار المفكرين إذا سيقوا للسجن ، فإنهم يعتبرون في الحق والعدل والمدنية اعتبارا خاصا ويعاملون في سجنهم معاملة خاصة، احتراما للفكر، وإكراما للعلم، وإجلالا للعلماء فهل روعي شيء من هذا في علمائنا الأبرار، وكلهم من ذوي السلوك الحسن والسيرة النقية، والماضي الزاهر المشرق في قومهم وفي سجلات حياتهم القانونية ؟ كلا ثم كلا ! .

بل سيقـــوا إلى السجن وأكثرهم لا كاسب لعيالهم من بعدهم غلقت عليهم أبواب السجن، وأقفلت في وجه قضيتهم أبواب البحث، فهم في أطباق السجن يعيشون عيشة المجرمين، وعيالهـــم وأبناؤهم وبناتهم في أتون الصحـــراء يعيشون جياعا متشردين ... » .[1]

شغل العنصر الإشاري (هم) الدال على الغيبة حيزا كبيرا في فضاء هذا الخطاب وقد برز في الكلمات الآتية :

{فإنـــ(هم) – سجنـــ(هم) – كلـــ(هم) – قومـــ(هم) – حياتـــ(هم) – أكثر(هم) – لعيالـــ(هم) – بعد(هم) – عليـــ(هم) – قضيتـــ(هم) – فـــ(هم) – عيالـــ(هم) – أبناؤ(هم) – بناتـــ(هم) .}

استعمل الكاتب العنصر الإشاري (هم) كقرينة لغوية للدلالة على الأشخاص الغائبين عن مقام التلفظ وهم (العلماء)،حيث أماط اللثام عن الموضوع المتحدث عنه (قضية سجنهم ظلما)،كما صوّرت ببراعة حالتهم داخل السجون الفرنسية، وسنبرز ذلك من خلال المقابلة الآتية :

سجناء الحركة الاصلاحية

في نظر الحق والعدل والمدنية	في نظر السلطات الفرنسية
– يجب أن يعاملوا في سجنهم	– غلقت عليهم أبواب السجن

[1] عبد الحميد بن باديس ، المصدر السابق، مج 6 ، ص 312 .

معاملة خاصة	– أقفلت في وجه قضيتهم أبواب البحث
– احتراما للفكر	– يعيشون عيشة المجرمين.
– إكراما للعلم	– عيالهم وأبناؤهم وبناتهم جياعا
– إجلالا للعلماء	متشردين

تبرز هذه المقابلة اعتماد ابن باديس الإستراتيجية التوجيهية في مخاطبة الطرف الآخر (فرنسا) ، وتتضح هذه الإستراتيجية أكثر من خلال توظيف المتكلم للاستفهام الإنكاري في قوله : « ... فهل روعي شيء من هذا في علمائنا الأبرار ... » ؟ .

و أعقبه بجواب يحمل رفضا صريحا «كلا ثم كلا » مع نغمة متصاعدة تدل على شدة غضبه واستيائه.

ويهدف الكاتب من وراء هذه الإستراتيجية التخاطبية تحقيق "مصلحة اجتماعية " تكمن وراءها غايات إنسانية نبيلة، تتعلق بكشف حقيقة العدو الفرنسي للرأي العام وفضح جرائمه، فعلى الرغم من ترديده لتلك الشعارات الكاذبة "العدالة والأخوة والمساواة"، إلا أننا لا نجد لها أي أثر عند تعامله مع من استعمرهم واغتصب أوطانهم وسلب حرياتهم.

وفي المقابل نجده يوظف **الإستراتيجية التضامنية** للتعبير عن مدى تعاطفه وتضامنه مع السجناء وذويهم ويتجلى ذلك في قوله: « فهم في أطباق السجن يعيشون عيشة المجرمين ، وعيالهم وأبناؤهم وبناتهم يعيشون جياعا متشردين ... ».

وعليه فقد ارتبط العنصر الإشاري (هم) في هذا المقام بالمقاصد التداولية لابن باديس، انطلاقا من أن المقاصد هي جوهر العملية التخاطبية لأن: « ...المتكلم هنا لم يختر الوحدات الدالة التي أراد أن يتراسل بها معنا من قبيل الصدفة،...بل لما اقتضاه الخطاب الذي استدعى أن يكون بهذه الكيفية مقابل عدم استدعائه أو اقتضائه أن يكون بطريقة أخرى... ».[1]

و على هذا الأساس عدّ علماء النص القصدية مقوّما أساسيا من مقوّمات النصية التي لا يكاد يخلو منها أي خطاب، لما لها من دور بارز في تحقيق التواصل التفاعلي بين النص ومتلقيه .

[1]– عبد الجليل مرتاض: لسانيات النص والتبليغ ،ص133.

2- الإشاريات الزمانية : La déixis temporelle

تعدّ الإشاريات الزمانية عناصر لغوية تحيل إلى لحظة التلفظ أو التخاطب، وتتحدّد دلالتها انطلاقا من المعطيات التي يوفّرها السياق التداولي .

وإدراك المتلقي لزمن التلفظ يسهم بشكل واضح في تحديد مرجعية هذه المبهمات ويقسم اللغويون الزمن إلى: [1]

- **زمن نحوي** : ويعني به تمام حسان « وظيفة في السياق يؤديها الفعل ».[2]

وتختلف الوظيفة النحوية للفعل عن وظيفته الصرفية، لأن الصيغة الصرفية تتعلق بصيغة الفعل وما تحمله من دلالة قاطعة على زمن معين.[3]

أما الزمن النحوي فتتغير دلالته تبعا لتغير المعطيات السياقية فقد يحيل الماضي على المستقبل، وقد يحيل المضارع على الماضي.

- **الزمن الكوني:** تدل عليه الظروف التي تشير إلى العالم الخارجي كالفصول والسنوات والأشهر والأيام، ولحظة التلفظ تعد محورا تتدرج فيه مختلف مبهمات الزمن الآتية:[4]

أ- **المبهمات التزامنية** : وهي تلك الظروف التي تستعمل لحظة التلفظ وتدل على الزمن الحاضر مثل الآن.[5]

ب-المبهمات القبلية: ويقترن استعمالها بما مضى وانتهى (أي الزمن الماضي) مثل أمس / البارحة .

ج- المبهمات البعدية: وتدل على ما يستقبل من الزمن مثل غدا ، الأسبوع القادم .

وقبل الولوج إلى فضاء الخطاب الإصلاحي لابن باديس لتحليل الإشاريات الزمانية بأصنافها المختلفة، نشير بدءا إلى أن عناوين هذه المدونة لا تخلو من ذكر للزمان، وسنورد نماذج منها من خلال الجدول الآتي:

1- محمود عكاشة: البراجماتية اللسانية، ص 85 ، وانظر أيضا محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 21 .

2- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 240

3- المرجع السابق، ص 240وص 241.

4 - عمر بلخير : تحليل الخطاب المسرحي ، ص 81 .

5- المرجع نفسه: ص ن.

عنوان النموذج	الإشاريات الزمانية	رقم المجلد	الصفحة
آية الليل وآية النهار	الليل / النهار	01	188
نافلة الليل وحسن عاقبتها	الليل	01	301
انفراده –صلى الله عليه وسلم – بالاتباع من يوم بعثه	يوم	02	226
اتباع رمضان بستة من شوال	رمضان / شوال	02	261
معنى ليلة القدر	ليلة القدر	02	323
صبيحة يوم الاثنين وما صبيحة يوم الاثنين	صبيحة / يوم / الاثنين	03	17
العناية بهلال رمضان	رمضان	03	55
الإصلاح أمس واليوم	أمس / اليوم	03	59
بعد عشرين سنة من التعليم نسأل هل لدينا رخصة	بعد عشرين سنة	03	170
بعد عقد من السنين	بعد / عقد من السنين	04	342
عمل الماضي	الماضي	04	350
فاتحة السنة الخامسة عشر	السنة الخامسة عشر	04	362
خطرات الأسبوع	الأسبوع	05	19
.ختام السنة	السنة	05	166
الشهاب بعد عامين خطوة ثالثة	بعد عامين	05	341
مناسبة قانون 8 مارس 1938	8 مارس 1938	06	115
لفتة للماضي	الماضي	06	274
الشيخ ابن باديس في تلمسان يدشن دار الحديث مع جمهرة من العلماء عام 1937	عام 1937	06	459

ومن هذا الجدول نلاحظ أن هذه العناوين قد تضمنت مبهمات:

تزامنية مثل : ← اليوم

قبلية مثل : ← أمس / الماضي

بعدية مثل : ← بعد عامين

وبما أن العنوان هو العتبة التي نلج من خلالها عالم الخطاب ،فإن الخطاب هو الفضاء الأرحب الذي تتفاعل عبر أنسجته المتشابكة عناصر إشارية زمانية وظفها ابن باديس ليشير من خلالها إلى سلسلة من الأحداث والوقائع التي ارتبطت بزمن محدد من تاريخ الجزائر النضالي، والكشف عن مرجعية هذه المبهمات يتطلب النظر في الطبقات المقامية المختلفة للخطاب ومقاصد المتكلم، وهذا ما سأحاول الكشف عنه من خلال تحليل أول صنف منها :

أ- المبهمات التزامنية: يقترن هذا الصنف من المبهمات بمرجعية يكون الخبر المتحدث عنه متزامنا مع سياق التلفظ ، ويبدو أن أكثر هذه العناصر الإشارية التزامنية وروداً في الخطاب الإصلاحي هي تلك التي ترتبط بزمن الفعل ولهذا « يجب أن نربط الزمن بالفعل ربطا قويا في مرحلة أولى، ونربط كذلك، بين الزمن والفاعل، لأهميته الكبرى، في مرحلة ثانية » .[1]

ومن النماذج التي دلّ فيها الفعل على الزمن الحاضر في هذه المدونة قول ابن باديس :

"...**أيتها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام !**

اليوم وقد آيسنا من غيرنا يجب أن نثق بأنفسنا اليوم وقد تجوهلت قيمتنا يجب أن نعرف نحن قيمتنا ... لندع الأمة الفرنسية ترى رأيها في برلمانها ولنتمسك عن إيمان وأمل بشخصيتنا ولنطالب بالمساواة التامة ..." .[2]

يتضمن هذا النموذج الأفعال المضارعة الآتية:{ يجب ، أن نثق ، أن نعرف ، ترى}

1- ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب مقاربة تداولية ، ص 83 .

2- عبد الحميد بن باديس ، المصدر نفسه ،مج 3 ، ص 336 .

وهي كلها أفعال تحيل إلى زمن التلفظ أو زمن الحديث كما يسميه بنفينست **Benvenist** وهذا الزمن يتمحور في الحاضر الذي يشكل مرجعيته.[1] وفي هذا السياق يجب أن نفرق بين زمن التلفظ بالفعل وزمن وقوع الفعل.

فزمن التلفظ بالفعل المضارع يرتبط بالحاضر لأنه "كلّما استعمل فيها المتكلم الصيغة النحوية الدالة على الحاضر، جعل الحديث مزامنا لحال الخطاب".[2].

في حين يرتبط زمن وقوع الفعل بالمستقبل **ف** "هناك فاصل زمني ومعنوي بين (التلفظ) ... وبين حدوث الفعل على وجه الحقيقة". [3]

وهذا ما ينطبق أكثر على الأفعال الأمرية التي وردت على هيئة الفعل المضارع المقرون بلام الأمر في قوله :{ لندع – لنتمسك – لنطلب ...}.

يرتبط التلفظ بهذه الأفعال بالزمن الحاضر الذي يعدّ مركز الإشارة الزمانية في هذا الخطاب، غير أن وقوع هذه الأفعال على وجه الحقيقة يكون في المستقبل ، فقد "ألبس قدامى نحاة البصرة، والكوفة فعل الأمر أحكام المضارع بما في ذلك دلالته الزمنية ، وبما أنه بناء مشتق من المضارع وزمانه الاستقبال".[4]

وإذا كان تحديد الماضي بكل تفرعاته والمستقبل يتم من خلال علاقتهما بالحاضر، فإننا إذا ما أمعنا النظر في الفعل المبني للمعلوم (آيسنا) والفعل الماضي المبني للمجهول " تجوهلت" نجد أنه وإن كانت صيغتهما قد أحالت على الماضي فإن دلالتهما مازالت مستمرة في الحاضر أي زمن التكلم.[5]

فمادامت مطالب الجزائريين لم تتحقق بعد، فإن حالة اليأس والتجاهل ستظل قائمة، وما يدلّ على ذلك القرائن اللغوية الآتية: {لنتمسك، لنطلب، لندع}.

ومن هنا نلاحظ أن هذه الأفعال وإن اختلفت صيغتها بين (ماضي ومضارع وأمر) إلا أنّ دلالتها النحوية وحسب ما وفرته لنا المعطيات السياقية ترتبط بالزمن الحاضر، وهو زمن التلفظ الذي يعد مركز الإشارة الزمانية .

---

1 - ينظر عمر بلخير تحليل الخطاب المسرحي ، ص 81 .

2 - المرجع نفسه، ص ن.

3 - عبد القادر عبد الجليل : علم اللسانيات الحديثة ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1 ، 2002 ، ص 486 .

4 - المرجع نفسه ، ص ن.

5 - عمر بلخير : تحليل الخطاب المسرحي، ص81.

ومن العناصر الإشارية التي اطّرد ورودها في النموذج السابق لفظ " اليوم " في قوله :« **اليوم** وقد آيسنا... **اليوم** وقد تجوهلت ... ».

نلاحظ أن تحديد مرجعية العنصر الإشاري " **اليوم** " تستدعي معرفة مقاصد المتكلم من جهة والإحاطة بعناصر السياق من جهة أخرى .

فاستعمال ابن باديس للفظ " اليوم " لا يحيل إلى ذلك اليوم المحدد الذي توجه فيه بالخطاب إلى مخاطبه، وإنما قصد به فضاء زمانيا أرحب وأوسع ليشمل العصر الذي عاش فيه المتكلم نفسه.

فقد اتسع مدى العنصر الإشاري " اليوم " من زمان محدّد عرفا بأربعة وعشرين ساعة إلى زمان أوسع يشمل عصر المتكلم .[1]

وفي معرض دفاعه عن مقومات الشخصية الجزائرية، ورفضه لسياسة الاندماج يقول ابن باديس: "**أيتها الأمة الإسلامية إن إسلامك اليوم في خطر، فاللجنة التي تنظر اليوم في بروجي فيوليت كبر عليها أن تعطيك تلك الحقوق القليلة إلا بمحو شخصيتك الإسلامية** ...."[2].

يرتبط الظرف المبهم " **اليوم** " بفضاء زماني أوسع يتعلق تحديدا بعصر المتكلم، وما ساده من مخططات تغريبية تستهدف محو الشخصية الجزائرية.

وإذا ما ربطنا هذا الخطاب بمرجعيته التاريخية أمكن عده فعلا نطقيا تتزامن لحظة التلفظ به مع زمن تلك الوقائع والأحداث من خلال العنصر الإشاري **اليوم** .

وقد يحيل لفظ اليوم في سياقات أخرى إلى زمن محدد عرفا بأربعة وعشرين ساعة ومن نماذج ذلك ما توجه به ابن باديس من خطاب إلى **وزير فرنسي** يقول فيه:

« **يا جناب الوزير إنني في هذا اليوم يوم 8 مارس الذي هو من أسوأ الأيام في تاريخ الجزائر ، أرفع إليكم باسم الإسلام كلمة الاستنكار التام لهذه الحال ، وأقدم إليكم باسم المسلمين مر الشكوى من هذه المعاملة الخاصة التي تركت في القلوب أسوأ الآثار وأوجع الآلام** .... ».[3]

1- محمود أحملة نخلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 20

2- عبد الحميد بن باديس ، المصدر نفسه، مج6 ، ص 288

3- المصدر نفسه، مج 6، ص 228.

يشير العنصر الإشاري " **اليوم** " في هذا السياق إلى مدّة زمنية محددة مقدرة بأربعة وعشرين ساعة.

ويذهب الدارسون إلى أن معالجة هذا الصنف من الإشاريات يكون بالنظر إلى السياق المصغر، ويعني ذلك وجود متكلم محدّد في فضاء زماني ومكاني محدد، ويوضح المخطط الآتي عناصر هذا السياق:[1]

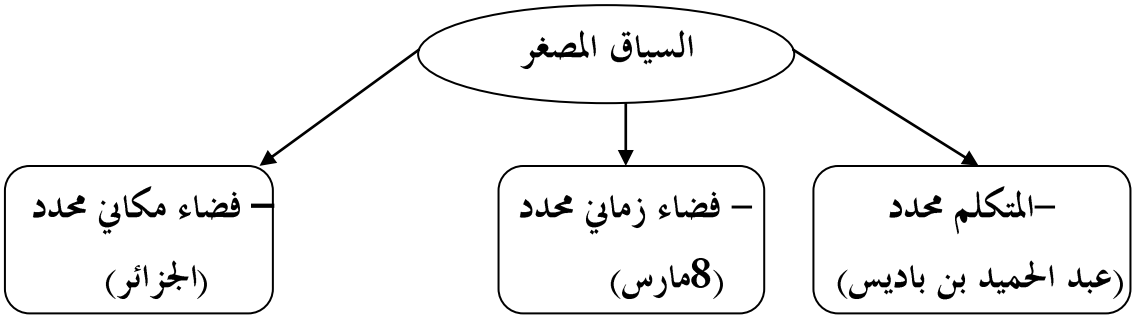

وعليه فإن تحليل النموذج السابق –وفي ضوء المعطيات السياقية – يبرز أن المتكلم هو شخص محدّد ويتجسد في شخص "ابن باديس" والفضاء الزماني أيضا محدّد ويتمثل في يوم 8 مارس، وهذا اليوم يعتبر من أحلك الأيام في تاريخ الجزائر لما خلفته القرارات الاستعمارية الجائرة من أمر بغلق المدارس والكتاتيب، ومحاكمة المعلمين .

ويوظف ابن باديس **الإشارة التزامنية** " اليوم " ليحيل من خلالها إلى حقبة مظلمة من تاريخ الجزائر، فهو بصدد تقديم نص تقريري يرصد فيه الأشياء والمشاهد والوقائع، وقد نقلها بكل صدق ليكون شاهدا على عصره.

كما تتوفر المضامين الإصلاحية على عناصر إشارية تجعل من مرجعية الزمن مطابقة للحظة التلفظ بالحدث الذي يمثّل موضوع الخطاب، وذلك من خلال توظيفه للعنصر الإشاري "الآن"، ويتجلّى ذلك بوضوح في الخطاب الذي توجه به ابن باديس **للسوبريفي** الجديد بتلمسان مناشدا إياه فتح دار الحديث في تلك المقاطعة يقول فيه: « ... **مثل حالي الآن ، وأنا أكتب هذه السطور وأبللها بالدمع السخين ، كل مرة كنت أرى إخواني التلمسانيين في أشدها تركتهم ، يزداد ألمهم وحزنهم بقدر ما**

[1] - حافظ اسماعيلي العلوي: التداوليات علم استعمال اللغة ، ص 443 .

تزداد قسوة الإدارة ، ويشتد تصامها عن سماع صوت الأمة ونوابها في المطالبة بحرية تعليم الدين ولغة الدين ، وفتح معاهده المغلقة .... » .[1]

إذا ما تأملنا مضمون هذا النموذج نجد أن فعل التلفظ بالظرف المبهم " **الآن** " يتزامن مع فعل الكتابة وهذا ما يوضحه المخطط الآتي:

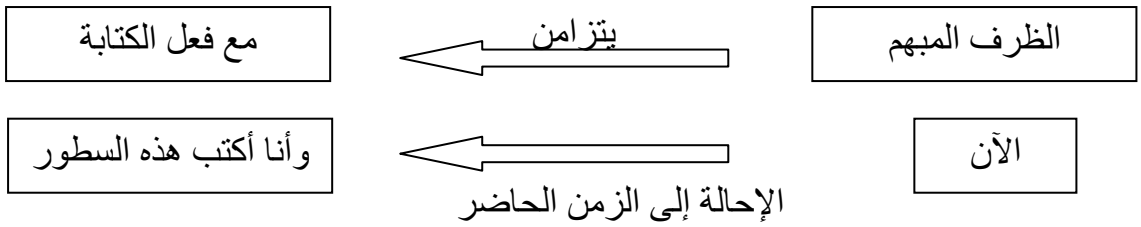

ترتبط مرجعية الظرف المبهم " الآن " بالزمن الحاضر بالنسبة للمتكلم (ابن باديس) الذي يعدُّ مركز الإشارة الزمانية بالنسبة لفعل التلفظ، وتسهم هذه القرينة في تعالقها مع باقي الوحدات المشكلة للنص في ربط أول خيط له بآخره ربطا خطيا أفقيا، كما أحالت على الدلالة الكلية للموضوع فحقّقت بذلك نموا واستمرارية وتناسقا لبنيته .

ب– المبهمات القبلية:

ويؤشر لها تركيبا بالقرائن اللغوية الآتية : الأمس ، البارحة ، قبل ... .

تكثر في خطب ابن باديس إشارات للزمن الماضي ، تحيل دلالتها المرجعية على أحداث ذات صلة بنشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وجهودها المتواصلة في نشر رسالة الإصلاح عبر ربوع الوطن الجزائري، وهذا ما سنكتشف عنه من خلال تحليل هذا الصنف من المبهمات

يسرد ابن باديس في خطاب له تفاصيل فاجعة قسنطينة التي احتدم فيها الصراع بين اليهود والعرب المسلمين وكيف تمكن هو وبعض من أعوانه إخماد نار الفتنة سريعا يقول في هذا الشأن: « **...مررت نحو الثامنة والنصف أمام دار " المير " نازلا إلى باب الوادي فالتقيت بسي سليم البوليس**

---

[1]– عبد الحميد بن باديس، المصدر السابق، مج6 ، ص 190 .

السري فسألني هل عندكم اجتماع هذه الصبيحة في الصنوبر فأجبته بالنفي وذكرت له أن الاجتماع الذي أردناه قد وقع أمس عشية بالجامع الكبير وأننا اخترنا بالأمس الجامع الكبير ليكون أعون على ضبط الناس وقد حصل مقصودنا من تهدئة الناس باجتماع أمس فلماذا نعقد اجتماعا آخر ...».[1]

يتصدر هذا النموذج إشارة زمنية [الثامنة ونصف] تحيل إلى مرجع مبهم غير محدد، ولكن يستطيع القارئ – وبكل يسر – أن يدرك مرجعية هذه الإشارة التي تحيل إحالة قبلية إلى زمن مضى لاقترانها **بالفعل الماضي "مررت "**.

وفي هذا السياق تشير **أن أبرسفيلد Anne Ubersfeld** إلى أن « ... الحديث عن التحديدات النصية للزمن لا معنى له إذا كانت معزولة فما معنى أن نقول إنها السادسة أو هذا الصباح إن الدال الزمني لايأخذ معنى إلا بارتباطه بدال آخر » .[2]

إن تعالق الدال الزمني "الثامنة والنصف"مع باقي الوحدات اللغوية المشكلة لبنية هذا الخطاب هو الذي أسهم في تحديد مرجعيته.

ومن الإشاريات الزمانية الواردة في هذا النموذج لفظ "الأمس" التي تكررت ثلاث مرات (وقع أمس، اجتماع الأمس، اخترنا بالأمس)، أحالت كلها إحالة قبلية إلى الزمن الماضي.

وتحدّدت مرجعية هذا الدال الزمني (الأمس) لارتباطه بدوال أخرى تعالق معها داخل النسيج النصي، ونقصد تحديدا الأفعال الماضية (اخترنا / وقع / حصل).

فإزالة الغموض عن هذه المبهمات لتحديد مرجعيتها لا يتحقق إلا في إطار وحدة نصية مكتملة الدلالة تتسم بالانسجام والترابط .

ومن نماذج المبهمات القبلية التي اقترنت دلالتها المرجعية بالفعل الماضي ما أورده ابن باديس في المثال الآتي:

---

[1] عبد الحميد بن باديس ، المصدر السابق، مج4 ، ص 40.

[2] ينظر عمر بلخير : تحليل الخطاب المسرحي ، ص 85و ص86 .

« **قفلت إلى قسنطينة مساء الخميس، ومكثت صبيحة الجمعة أنتظر جوابا عن برقيتي فلم يأت عنها جواب، لما صليت عصر الجمعة جاءني جماعة من المسلمين ، فذكروا أن الجامع الكبير قد غصّ بالناس وأنهم في انتظارك** ... ».[1]

ورد في هذا النموذج الإشاريات الزمانية الآتية: {مساء الخميس، صبيحة الجمعة، عصر الجمعة}، وسنوضح ذلك من خلال المخطط الآتي:

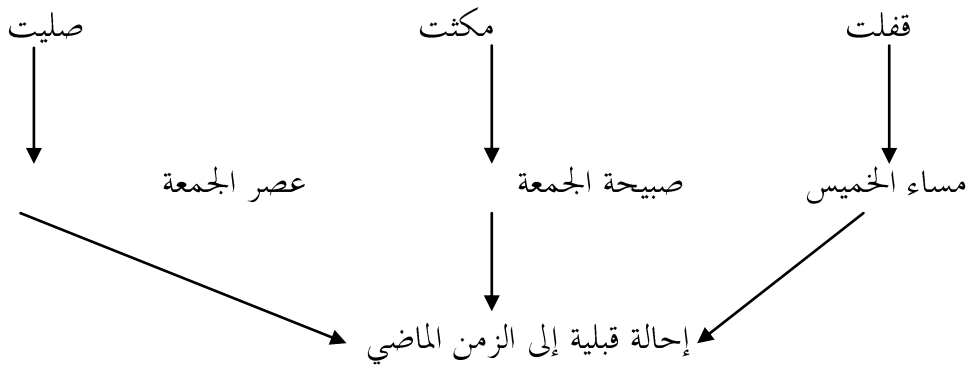

تحدّدت مرجعية هذه الدوال الزمانية { مساء الخميس ، صبيحة الجمعة ، عصر الجمعة } لاقترانها بالأفعال الماضية { قفلت،مكثت،صليت}، وتحمل صيغة الماضي في هذا المقام التخاطبي شحنة إخبارية تدل على انتهاء الحدث المخبر عنه، وهذا ما حذا بالمتكلم لسرد تفاصيل زيارته للمخاطب حتى يجعله متفاعلا مع الأحداث والوقائع، وبهذا يكون المتلقي قد وقف على الأغراض الإنجازية التي يتضمنها هذا الملفوظ.

ج- **المبهمات البعدية:** ويؤشر لها تركيبا بالقرائن اللغوية الآتية: غدا، الأسبوع القادم، السنة القادمة، بحيث يكون الحدث المخبر عنه في حكم المستقبل وذلك بالقياس إلى زمن التلفظ.

وأغلب مواضع الإحالة إلى المستقبل في الخطاب الإصلاحي تتعلق بقرارات مستقبلية، إما صادرة عن شخص عبد الحميد بن باديس نفسه، باعتباره رئيسا لجمعية العلماء المسلمين، أو صادرة عن الجمعية ككل بعد اتّفاق أعضائها.

---

[1] عبد الحميد بن باديس ، المصدر نفسه ، مج 3 ، ص 63 .

وترصد هذه القرارات المستقبلية تحركات الجمعية ونشاطاتها المختلفة عبر ربوع الوطن الجزائري، كما ترصد الأهداف التي تتطلع لها في ضوء خطتها الإصلاحية التي حددتها لنفسها منذ تأسيسها.

ومن نماذج ذلك ما ورد في الخطاب الذي توجه به ابن باديس إلى نواب الأمة يقول فيه "...**أيتها الأمة الكريمة ، أيها النواب الكرام ! قرروا يوم 29 أوت وبعد قرار المؤتمر عدم التعاون في النيابة بجميع أنواعها. قرروا أن لا تعودوا بدون مساواة إليها ، قرروا أنّه يجب أن يكون كل مسلم جزائري بلغ سن الانتخاب منتخبا وأن يكون عدد نواب المسلمين الجزائريين في كل مجلس مثل عدد الفرنسيين ... وهذا وأنا كمسلم جزائري قد أديت الواجب الثاني من واجباتي في الوقت الحاضر والله المستعان** .... ".[1]

تتّضح الإحالة إلى المستقبل في هذا النموذج من خلال (صيغة فعل الأمر) "**قرروا**" وفعل الأمر كما يذهب النحاة يدل دلالة قاطعة على « ... وقوع الحدث في الحال أو الاستقبال » .[2]

حيث يتزامن التلفظ بالفعل "قرّروا" في هذا السياق التخاطبي ولحظة توجيه الخطاب إلى المخاطب، إلا أن وقوعه على وجه الحقيقة يرتبط بالمستقبل، باعتبار أن هناك فاصلا زمنيا بين زمن التلفظ بالفعل ولحظة وقوعه.

وما يؤكّد إحالة هذا الفعل إلى المستقبل أيضا هو اقترانه بتاريخ محدّد وهو "يوم 29 أوت" مما يعني أن زمن الحديث قد سبق هذا التاريخ والمخطط الآتي يوضح ذلك:

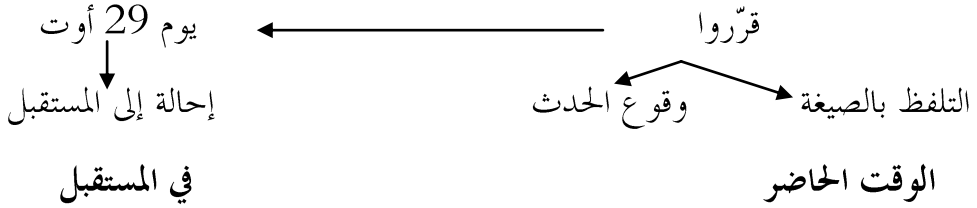

وعليه فيمكن أن نعتبر القرينة اللغوية "**الوقت الحاضر**" في قوله « ... قد أديت الواجب الثاني من واجباتي **في الوقت الحاضر** » مركز الإشارة الزمنية في هذا النموذج لأن الإحالة إلى المستقبل لا تتحدّد إلا من خلال علاقتها **بالحاضر**.

1- عبد الحميد بن باديس : المصدر نفسه، مج3 ، ص 337 .

2- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 241 .

ومن نماذج الإحالة إلى المستقبل قوله " **سنعقد الاجتماع العام لجمعية هذه السنة – إن شاء الله – يوم الجمعة 23 سبتمبر الموافق 28 رجب ويستمر يومي السبت والأحد بعده ، وذلك بمركز الجمعية في نادي الترقي من عاصمة الجزائر .**

فعلى أعضاء الجمعية من عاملين ومريدين ومساعدين الحضور في التاريخ المعلوم، تأييدا لجميعهم وإعرابا عن تضامنهم ، وإظهارا لشعورهم ... ». [1]

تتّضح الإحالة إلى المستقبل في قوله " **سينعقد** " وقد وردت هذه الصيغة على هيئة الفعل المضارع المقترن بالسين، حيث عملت هذه القرينة اللغوية (السين) على نقل دلالة الفعل من الزمن الحاضر إلى المستقبل القريب، فيصبح وقوع الحدث قريبا من لحظة التلفظ بالخطاب أما عن تاريخ انعقاد هذا الاجتماع فقد حدّد بيوم الجمعة 23 سبتمبر الموافق 28 رجب .

والإشارة إلى هذا التاريخ « يعني في نظر **أوركيوني** حصر حدث ما في محور المدة بالنسبة إلى وقت يعتمد مرجعا، ويعود على : تاريخ معين اعتبر على أساس أنه مرجع نظرا لأهميته التاريخية في حضارة ما... ».[2]

وعليه فإن ذكر ابن باديس لهذا التاريخ أو غيره من التواريخ التي تضمنها الخطاب الإصلاحي ، يفيد في حصر الأعمال والأنشطة الخاصة به أو بجمعية العلماء المسلمين في معلم زمني محدد، يمكن اعتماد هذا المعلم مرجعا يحيل إلى تاريخ أو وقت معين، وذلك بالنظر إلى أهمية هذه الأحداث لأنها تشكل جزءا من الذاكرة التاريخية المشتركة للأمة الجزائرية .

ومن مواضع الإحالة البعدية في هذا النموذج قوله " **إن شاء الله** " .

نلاحظ أن صيغة الفعل **شاء** وإن وردت على هيئة الماضي، إلا أن دلالتها النحوية تتعلق بالمستقبل باعتبار أن الزمن النحوي هو وظيفة يؤديها الفعل في السياق –كما أكد ذلك تمام حسان –فورود الفعل **شاء** في هذا السياق أكسبه دلالة جديدة غير الدلالة التي وضعت له في الأصل (الماضي) .

---

[1] عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه مج 6 ، ص 157 .

[2] ينظر عمر بلخير : تحليل الخطاب المسرحي ، ص 80.

يقول تمام حسان: «... وحين نظروا في الجمل الإنشائية وجدوا صيغة "فعل" تفيد الاستقبال في التحضيض والدعاء والشرط ... ».[1]

يتّضح لنا من هذا القول أن صيغة الفعل **شاء** في هذا السياق أفادت معنى الاستقبال ،لأنها وردت في جملة شرطية تفيد الرجاء .

ويواصل ابن باديس الإحالة إلى المستقبل من خلال القرائن اللغوية الآتية : « ... ويستمر يومي السبت والأحد بعده ... ».

جمع ابن باديس في هذا الملفوظ الخطابي بين زمنين ، زمن نحوي يشير إليه الفعل المضارع (يستمر) وزمن كوني تدل عليه الظروف الآتية: (بعده، يومي السبت والأحد) وهذه الإشاريات الزمانية تحيل كلها إلى المستقبل وهذا بالقياس إلى زمن التكلم أو زمن الحديث الذي يعد مركز الإشارة الزمنية .

وبناء على ما سبق نلاحظ أن الإحالة إلى المستقبل قد تدرجت في هذا الملفوظ الخطابي تدرجا منطقيا، إذا تصدّر هذا الخطاب دال زمني مركزي "**سينعقد** " تؤول إليه جميع الدوال الزمنية المشكلة لبنية النص وهذا ما سنوضحه من خلال المخطط الآتي :

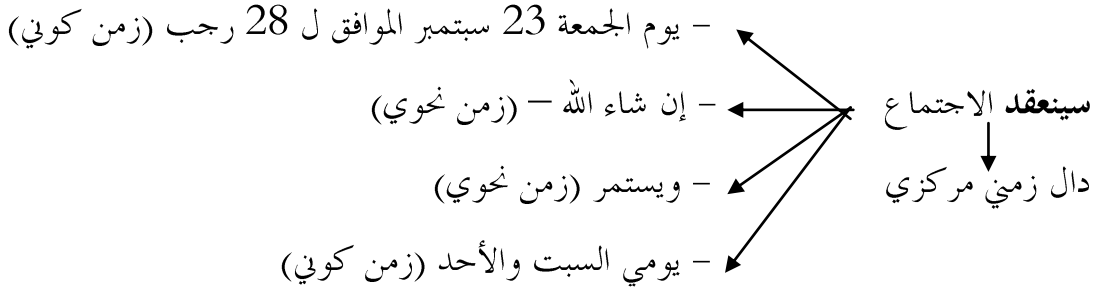

تتضافر هذه العناصر الإشارية الدالة على الزمن بنوعيه (النحوي والكوني) لتشكل نسيجا متشابكا كتشابك بيت العنكبوت في براعة نسجه، و تسهم كلها وبشكل واضح في تحقيق الاتساق النصي من البداية إلى النهاية .

ويرتبط الإطار الزماني بالفضاء المكاني ارتباط العقل بالجسد فلا يسوغ الانفصال بينهما، أو تصور وجود أحدهما دون الآخر لأنهما يمثلان معا مظهران من مظاهر الحياة الإنسانية « فعلاقة

[1]– تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 243.

الزمان بالمكان كعلاقة العقل بالجسم، فلا يكون الأول إلا بوجود الآخر، ولا تكون الحياة إلا بوجودها معها، فإذا كان المكان مستقل عن الزمان فهو مكان ميت، وكذلك الحال للجسم الذي يستقل عن العقل فيخرج من دائرة الإنسان إلى دائرة أخرى ...[1] ».

والحيّز المكاني متعدد العناصر لا يقتصر على ذلك الإقليم الجغرافي التي تؤطره حدود معينة، وإنّما يشمل علاقة الإنسان بواقع بيئته ومدى تفاعله معه إيجابا أو سلبا، وهذا ما سنحاول الوقوف عليه من خلال تحليل الإشاريات المكانية في هذه المدونة.

3- الإشاريات المكانية : la déixis spatiale

يرى الدارسون أن هذا الصنف من الإشاريات يحيل" إلى المواضع التي تفاعل معها الخطاب، ويمثل المكان بعدا أساسيا يحس به الإنسان، ويؤثر في وجوده وكينونته وإحساسه بالمكان أسبق من إحساسه بالزمان غير أن إدراكه للمكان يقترن بأبعاد حسية مادية ، ويقترن إحساسه بالزمان بأبعاد ذهنية شعورية » .[2]

ومن الإشاريات المكانية {هذا ،ذاك} ومن الظروف المحيلة إلى المكان { فوق، تحت، أمام ، هنا، هناك }.

ومنها ما يتعلق بأسماء الأماكن وهي أقطار محيطة بناكأسماء المدن والبلدان من العالم الخارجي.[3]

وبادئ ذي بدء وقبل الولوج إلى فضاء الخطاب الإصلاحي لابن باديس، وقبل تعيين الإشاريات المكانية نشير أولا إلى أن عناوين هذه المدونة لا تخلو من ذكر لأسماء الأماكن وهذا ما سنوضحه من خلال الجدول الآتي :

عنوان النموذج	الإشاريات المكانية	رقم المجلد	رقم الصفحة
خطبة افتتاح التفسير العام بالجامع الأخضر افتتاح الدروس العلمية الإسلامية	الجامع الأخضر الجامع الأخضر / مسجد	01	147

[1] حنان محمد موسى حمودة : الزمكانية وبنية الشعر المعاصر عبد المعطي حجازي نموذجا، عالم الكتب ، الأردن ، ط1 ، 2006 ، ص 20 .

[2] محمود عكاشة : البراجماتية السانية ، ص 85.

[3] المرجع نفسه، ص ن.

بالجامع الأخضر بمسجد سيدي قموش	سيدي قموش	01	152
خروج النساء إلى المساجد	المساجد	02	216
لعن من اتخذ المساجد على القبور	المساجد / القبور	02	249
إلى علماء جامع الزيتونة	جامع الزيتونة	03	102
إبطال الجمعية الدينية بالجزائر	الجزائر	03	163
الدروس العلمية الإسلامية بقسنطينة	قسنطينة	03	175
في الشمال الإفريقي : سياسة وخز الدبابيس	الشمال الإفريقي	03	273
النمسا الدعاية الهتلرية في إفريقيا الشمالية وفلسطين	النمسا – إفريقيا الشمالية – فلسطين	03	312
هل آن أوان اليأس من فرنسا ؟	فرنسا	03	330
وزير الخارجية بباريس والمقيم العام بتونس	باريس – تونس	03	406
احتجاج جمعية العلماء على انتهاك حرمة الدين بغرداية	غرداية	03	410
مسيرة الإصلاح الإسلامي بعد مصر والعراق	مصر- العراق	03	446
الدرجة الثالثة الأمر بتبليغ العرب حوالي مكة	مكة	04	10
فاجعة قسنطينة	قسنطينة	04	34
عبد العزيز الثعالبي وحدة الشمال الإفريقي أبناء المغرب العربي في	الشمال الإفريقي المغرب العربي – المشرق العربي		

المشرق العربي		04	143
رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم	العمالة الوهرانية		
الجمعية جولة صحافية في بعض	جهات الوطن	04	309
جهات الوطن بعد التفصيل	عين مليلة	04	300
عين مليلة	أم البواقي		
أم البواقي	عين البيضاء	04	292
عين البيضاء	مسكيانة	04	294
مسكيانة	قرية أرزيو	04	295
قرية أرزيو		04	297
		04	307
صدى الصحراء	الصحراء	05	21
لسان الشباب الناهض بالقطر الجزائري	القطر الجزائري	05	193
الجزائر والهند الصينية	الجزائر / الهند الصينية	05	271
وادي ميزاب	وادي ميزاب	05	285
إلى الوالي العام –الجزائر–	الجزائر	06	41
الدكتور سعدان –بسكرة–	بسكرة	06	83
قضية فلسطين	فلسطين	06	109

يحدّد ابن باديس من خلال عناوين خطبه بعض الأماكن التي كان يمارس فيهـــا نشاطه الإصلاحي ، وذلك عن طريق تعيين أو تسمية بعض هذه الأماكن ويلجأ إلى هذا التعيين أو الوصف : « من أجل خلق الأثر الواقعي في وعي المتلقي"[1].

1_ ينظر داليا أحمد موسى: الإحالة في شعر أدونيس، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر،دمشق، سوريا، ط1 ، 2010، ص112 .

ومن الأماكن التي خصّها ابن باديس بالذكر: قسنطينة، غرداية، الجزائر، فرنسا، تونس، العراق، مصر، الهند الصينية.. .

إنّ استحضار ابن باديس لهذه العناصر الإشارية المكانية في عناوين خطبه يوحي للقارئ – وللوهلة الأولى – مدى مسايرة هذا المصلح الاجتماعي لمجريات أحداث عصره إن على الصعيد الوطني أو الدولي، وانشغاله الكبير بقضايا الإنسانية عامة، لأن رسالته الإصلاحية لا تحدّها أقطار معينة فهي امتداد للرسالات السماوية بما تحمله من محبة وسلام للعالم أجمع.

كما تبرز في المضامين الإصلاحية إشاريات مكانية بعضها يتعلق بأسماء الإشارة {هذا، ذاك} وبعضها الآخر يتعلق بظروف المكان: {فوق، تحت، خلف، وراء، هنا، هناك }وإن كان: "... فلاسفة اللغة يميلون إلى تمييز كلمات الإشارة إلى المكان عن ظروف المكان، واعتبارهما نوعين من أنواع الإشارة، أما اللغويون فيميلون إلى دمجهما معا، وجعلهما صنف واحد يشار به إلى المكان..". [1]

ومن نماذج ذلك يقول ابن باديس : «... **قد جعل الله تعالى جزاء نبيه صلى الله عليه وسلم – على تهجده وخلوته بربه في مناجاته هذا المقام الذي يحمده فيه الخلق ويتقبل فيه شفاعتـــه ويستجيب دعوته ويفتح عليه فيه بمحامد من ذكره لم يفتح عليه بها قبل** ..." .[2]

يتضمن هذا النموذج العناصر الإشارية المكانية الآتية : (هذا ، فيه "تكررت مرتين") ففي قوله « هذا المقام » فلفظ "المقام" المشار إليه في هذا السياق لا يحيل إلى مكان محدّد جغرافيا، وإنّما يتعلق بما يسميه الباحثون بـــ" المسافة العاطفية وعندئذ يسمى هذا النوع من الإشارة "بالإشارة الوجدانية ".[3]

فالإحالة المكانية في هذا السياق تشير إلى مكان قريب من قلوب المؤمنين قربا عاطفيا وليس حسيا.

وفي قوله: "... إن لنا مسجدين بداخل بلدة غرداية تقام فيهما الصلوات الخمس وتصلى فيهما الجمعة أحدهما بحارة عرش المذابيح وثانيهما بحارة بني مرزوق ، وكلاهما أسس لمالكية وادي ميزاب من منذ برهة زمانية ، وقد كان إخواننا الإباضية منعونا من الآذان فوق سطحيهما".[4]

1– محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 22.

2- عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج1 ، ص 305 .

3- محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص23.

4- عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه ،مج3 ، ص 453 .

يتوفر هذا النموذج على الإشاريات المكانية الآتية: **مسجدين، بلدة غرداية، داخل، فيهما، حارة عرش المذابيح، حارة بني مرزوق، وادي ميزاب، فوق، سطحيهما.**

تحيل إشاريات المكان في هذا النموذج إلى قضية جوهرية يدور حولها موضوع الخطاب، وتتمثل تحديدا في ذلك الخلاف المذهبي المحتدم بين طائفتين مسلمتين يضمهما مجتمع واحد، وقد حاول ابن باديس التوسط لحل الخلاف بينهما، سعيا منه للحفاظ على سمعة هذا الدين، وحماية المجتمع الجزائري من التفكك، (ومن هنا يبرز دور ابن باديس المصلح الديني والاجتماعي). وعليه فقد ساعدت الإشاريات المكانية في هذا السياق التداولي على تحديد موضوع الخطاب، وهوية المشاركين فيه وانتماءاتهم المذهبية، ومكان التلفظ وعلاقة المتكلم بالأحداث ومدى تفاعله معها إيجابيا.

وفي قوله: "... أنا لست مسؤولا عن هذا – وإن كنت أعظم متألم منه – بل المسؤول عنه هم أولئك الإخوان المتنورين الذين أعرفهم هنا وهنالك من وادي ميزاب...".[1]

يشير ظرفا المكان "هنا" و "هنالك" في هذا السياق التلفظي إلى قريب أو بعيد عن المتكلم الذي يعد مركز الإشارة المكانية في هذا الخطاب.

وفي قوله « ... نقول هذه الكلمة لشعارنا الذي هو " الحق فوق كل أحد ".[2]

يحيل ظرف المكان "**فوق**" إلى مبدأ لطالما كرسّه ابن باديس طيلة حياته، ويتمثل في قول الحق والصدع به مهما كان الطرف الموجه إليه الخطاب، ومهما اشتدت ضراوة الخصم.

ويسعى دائما إلى توخي الوضوح في تحديد المكان حتى يضمن نجاح رسالته الإصلاحية، ويكون تفاعله مع القارئ تفاعلا إيجابيا ومؤثرّا ويتجلّى ذلك في قوله: « ... **أما الاعتناء بالتعليم فهذا هو الذي انقطعت إليه الجمعية وقامت به قيامها ففي قسنطينة وفي ميلة وفي الميلية وفي جيجل وفي بجاية وفي بسكرة ، وفي تبسة وفي بلدة الجزائر ، وفي بني ورتلان وفي بني يعلى وفي تلمسان وفي غيرها في كثير من البلدان تجد رجال مجلس إدارة الجمعية وغيرهم من ذوي العالمية يقضون ليلهم ونهارهم في**

1- المصدر السابق، مج3 ، ص 452 .

2- المصدر نفسه ، مج5 ، ص 359 .

الدروس العلمية والفقهية والدروس العلمية الإرشادية وتلقين مبادئ الدين واللغة لمن استطاعوا إليه سبيلا من النشء الصغير .. [1]».

تحيل أسماء الأماكن في هذا النموذج إلى الموضوعات والأحداث التي يدور حولها موضوع الخطاب، فقد كشفت الإشاريات المكانية مثل (ميلة، الميلية، جيجل، قسنطينة) عن جهود أعضاء جمعية العلماء المسلمين وسعيهم الدؤوب لنشر بذور الإصلاح في كل ربوع الوطن، وذلك من خلال تقديم الدروس العلمية والفقهية، وتعليم الناشئة أصول دينهم، ومبادئ لغتهم.

فلا يمكن للقارئ أن يحدّد الموضوعات والأحداث إلا من خلال الإحاطة بالفضاء المكاني، وإلى ما يوفره السياق من معطيات تسهم في إضاءة جوانب النص المختلفة.

ومن النماذج التي شغلت فيها الإشاريات المكانية حيزا كبيرا قوله :

« ... **سافرت من العاصمة يوم الإربعاء 27 محرم وحللت بها صبيحة الثلاثاء 1 ربيع الأول ... البلدان التي زرتها: المدية، البرواقية، قصر البخاري، الجلفة، الأغواط، آفلو، سوقر، البيض ...كنت أزور في الأكثر قبل كل شيء المسجد لأن البداءة به هي السنة ولألفت نظر الأمة إلى حرمة المسجد وفضله وأنه هو الأحق أن يقصد عنـــد الملمات للوقوف بين يدي الله ...**"[2].

يحيل العنصر الإشاري المكاني "المسجد" في هذا النموذج إلى ذلك المعلم التاريخي المهم في حضارتنا الإسلامية، والذي اتخذه الرسول (ص) قديما مناره لهداية الناس وتهذيبهم، ونشر رسالة الإسلام.

وقد سار ابن باديس على هديه صلى الله عليه وسلم فأحيا سنته بأن اتخذ هو أيضا من هذا المكان المقدس فضاء لتعليم الكبار والصغار أصول دينهم ومبادئ لغتهم ، بل كان فضاء لعقد الاجتماعات وإلقاء المحاضرات الدينية.

فقد ساعد العنصر الإشاري "المسجد" في هذا السياق التداولي على تحديد معتقدات المتكلم وتوجهاته و سلوكاته الاجتماعية في إطار تفاعله مع الآخرين .

---

[1] المصدر نفسه ، مج3 ، ص 489 .

[2] عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج4، ص 309 و ص 310.

كما تساعد الإشاريات المكانية على تحديد موقف المتكلم من بعض القضايا الإنسانية العادلة كقضية فلسطين مثلا ويتضح ذلك في قوله :

« ... **وجمعية العلماء المسلمين تدعو المسلمين عموما وأئمة المساجد خصوصا إلى إحياء ليلة الإسراء والمعراج والتوجه إلى الله تعالى بالدعاء ليرفع البلاء عن ذلك الحرم المقدس، وساكني رحابه، وأن يدفع عدوان الظالمين عن المظلومين، وأن يرجع لتلك البلاد عهدها السابق** ... ».[1]

تضافرت هذه الدوال المكانية {المساجد، الحرم المقدس، رحابه..} وتعاضدت داخل النسيج النصي لتسهم في تشكيل موضوع الخطاب، وتحديد موقف المتكلم من القضية المطروحة في النص، حيث يرى هذا المصلح أن أقل مساعدة يمكن أن يقدمها المسلم الجزائري لأخيه الفلسطيني في ظل هذه الظروف الاستعمارية القاسية، هي اللجوء إلى المولى عز وجل والتضرع له بالدعاء الخالص ــ وهو يحيي ليلة الإسراء والمعراج ــ ليفك قيد أسره، ويطهر الحرم المقدس من دنس اليهود الغاصبين.

كما تكشف هذه الدعوة أيضا عن المقاصد السامية لابن باديس والمتمثلة في نشر الحب والتسامح وروح التآخي، فقد اتّخذ من هذه المناسبة الدينية فرصة للتقريب بين الشعوب، ودعوة للحفاظ على أواصر الأخوة في الإسلام .

ومن ثمة يمكن القول إن الإشاريات المكانية في هذا السياق التداولي أسهمت في فك شفرات هذا الخطاب ،واستجلاء المقاصد التداولية للمتكلم .

وتقدم إشاريات المكان – وفي مواضع أخرى من هذه المدونة – يد المساعدة للقارئ للتعرف على ملامح الشخوص وتحديد هويتهم، وطبيعة العلاقة التي تربطهم أثناء العملية التواصلية ، بل ونوع هذه العلاقة والغاية منها . يقول ابن باديس في هذا الشأن:

« ... **قصدنا من المحطة إلى مسجد الأخ الشيخ بلقاسم بن حلوش لما بيننا من سابق المعرفة بالمكاتبة وروابط المودة المتأكدة ، ولأن ابنه الشيخ أحد مريدينا ومن أعزهم علينا فلقينا بالحفاوة وأنزلنا على**

[1] المصدر نفسه، مج6، ص 156 .

الرحب والسعة ومن غده دعا للعشاء معنا أعيان البلد منهم فضيلة الشيخ المفتي سيدي عبد القادر بن قارة ... » .[1]

يرتبط ابن باديس بالمكان ارتباطا شعوريا، فكل مكان زاره أو مرّ به إلا وقد علق بذاكرته، فالتأثير بين المكان والشخوص يصور لنا الحالة النفسية والشعورية التي تنتـــاب هذه الشخوص « المكان الذي يستحضر لارتباطه بعهد مضى، أو لكونه علامة في سياق الزمن، وهكذا يتّخذ المكان شخصية مكانية » .[2]

وعلى هذا الأساس يطلق نقاد الأدب على المكان الذي يستحضر الزمن الماضي بـــ " المكان التاريخي."[3]

ومن الأماكن التي ارتبط بها ابن باديس ارتباطا شعوريا ، وشكّلت جزءا من ماضيه ومن مسيرته العلمية و نشاطه الإصلاحي نذكر :

أ– مدينة قسنطينة :

تأثر ابن باديس ببيئته أيما تأثر، وتفاعل مع عناصرها تفاعلا وجدانيا وعقليا « فالمكان أكثر من منظر طبيعي إنّه حالة نفسية يستعاد عن طريقها التاريخ الشخصي المتجذّر في اللاوعي المرتبط بهذا المكان أو ذاك »[4]ويظهر تفاعل ابن باديس مع بيئته أكثر في معرض حديثه عن " فاجعة قسنطينة "، وتعود أسباب هذه الفاجعة إلى اشتعال نار الفتنة بين يهود ومسلمي مدينة قسنطينة، وتحديدا عندما تهجم أحد اليهود على المسلمين وهم في المسجد، وبدأ يسب نبيهم، فأثار هذا السلوك الحمية في [5]صدور المسلمين من أهالي قسنطينة، فهبّوا لنصرة نبيهم عليه الصلاة والسلام، ولولا جهود ابن باديس في إخماد نار هذه الفتنة لأدى ذلك إلى إزهاق الكثير من الأرواح ومن الجانبين .

فقد تفاعل ابن باديس مع أحداث مجتمعه تفاعلا إيجابيا ، واستطاع أن يؤثر في مواطنيه ويوجه سلوكاتهم الوجهة السليمة وهذا ما تسعى إليه التداولية .

---

[1]- عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق ، مج4 ، ص 303 .

[2]- ينظر حنان موسى حمودة : الزمكانية وبنية الشعر المعاصر ، عبد المعطي حجازي انموذجا ، ص 23 .

[3]- المرجع نفسه، ص ن.

[4] – المرجع السابق، ص 22.

[5] - عبد الحميد بن باديس ، المصدر نفسه، مج3ص34 .

انطلاقا مما سبق يمكن أن نعد العنصر الإشاري " قسنطينة " مرجعا مكانيا يتعين من خلاله موضع الأشياء والموضوعات والأحداث التي يتضمنها عالم الخطاب.

ب- الجامع الأخضر (قسنطينة):

يعتبر هذا الفضاء المكاني نقطة انطلاق نشاط ابن باديس التربوي منذ البداية وذلك خلال 1913 بعد أن منعته السلطات الفرنسية من التدريس في الجامع الكبير.[1]

وقد كان ابن باديس حريصا على تعليم الكبار والصغار أصول دينهم ومبادئ لغتهم في إطار هذه المؤسسة الدينية . و قد ورد ذكر هذا الجامع في أكثر من موضع من هذه المدونة ومن نماذج ذلك قوله:

« ... **هذا الشيخ عبد الحفيظ عزل من وظيفة قيم بالجامع الأخضر لأنه من جمعية العلماء** » .[2]

يحيل الدال المكاني " **الجامع الأخضر** " في هذا النموذج إلى السياق التاريخي الذي تنزل فيه هذا النص، فهو يشير إلى تلك الحقبة الاستعمارية المظلمة من تاريخ الجزائر، حيث كانت السلطات الفرنسية لا تتورع عن عزل الناس من وظائفهم بسبب انتمائهم لتوجه معين -وبخاصة جمعية العلماء المسلمين - وهذه المضايقات لم يسلم منها ابن باديس نفسه رغم وجاهته، وعلو قدره في مجتمعه .

كما يبرز هذا الدال المكاني موقف فرنسا من جمعية العلماء المسلمين وموقفها من التعليم المسجدي بصفة خاصة .

وعليه فقد أسهم العنصر الإشاري المكاني (الجامع الأخضر) في استكمال المسار الدلالي لبنية الخطاب، وتحديد المعنى الذي يقصده المتكلم، كما عمل على مدّ جسور الاتصال بين عالم النص الداخلي و الخارجي (أي ربط النص بظروف إنتاجه).

ج- نادي الترقي (الجزائر العاصمة):

اطّرد ذكر هذا الدال المكاني في أكثر من موضع من هذه المدونة ومن نماذج ذلك قوله:

« ... **سيعقد الاجتماع العام لجمعية العلماء هذه السنة – إن شاء الله ... بمركز الجمعية في نادي الترقي من عاصمة الجزائر** ... » .[3]

1- عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان : إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ، ص 254 .

2- عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج3 ، ص 510 .

3- المصدر السابق، مج6 ، ص 157 .

يحيل العنصر الإشاري " **نادي الترقي** " إلى ذلك الفضاء الذي استغله ابن باديس أثناء زيارته للجزائر العاصمة لإلقاء الخطب أو عقد الندوات، أو إلقاء المحاضرات « ففي هذا النادي وضعت البذرة الصالحة للنهضة الجزائرية لكي تخرج إلى حيز التنفيذ ... » .[1]

والإحالة إلى هذا المكان تكشف بوضوح عن المستوى العلمي للحاضرين، وطبيعة موضوع الخطاب، والأهداف المتوخاة منه، كما تساعد أيضا على تحديد مكان التكلم ووضعية المتكلم باعتباره الذات المحورية في الخطاب .

د- جامع الزيتونة (تونس):

ارتبطت المسيرة الإصلاحية لابن باديس بهذه المؤسسة التاريخية العريقة وقد تردّد ذكر هذا الجامع في أكثر من موضع من خطاباته ومن نماذج ذلك قوله :« **ولقد كنا أيام الطلب بجامع الزيتونة –عمره الله – نسمع من شيوخنا كلهم الثناء العاطر** ... » .[2]

يشير هذا الدال المكاني (جامع الزيتونة) على طبيعة التكوين العلمي الذي تلقاه ابن باديس وطبيعة الأشخاص الذين تأثر بهم فأثروا في توجهاته ومعتقداته وطريقة تفكيره، كما يشير هذا الدال المكاني أيضا إلى نوع الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها ابن باديس التي مكنته من مواصلة تكوينه العلمي خارج الوطن رغم الظروف الاستعمارية القاهرة .

فقد أسهمت الإشاريات المكانية في فتح مغاليق هذه النصوص واستجلاء كنهها ، كما أحالت العناصر الإشارية الآتية: (قسنطينة، الجامع الأخضر، نادي الترقي (الجزائر العاصمة) جامع الزيتونة (تونس) إلى مجالات وظيفية متعددة كان يشغلها ابن باديس باعتباره الذات المحورية في هذه الخطابات وسنوضح ذلك أكثر في الجدول الآتي :

الذات المحورية في الخطاب	الإشاريات المكانية	المجال الوظيفي
ابن باديس	قسنطينة	مصلح اجتماعي
ابن باديس	الجامع الأخضر	مربي ومعلم

1- عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 150.

2- عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج 03، ص 95.

ابن باديس	نادي الترقي	أستاذ ومحاضر
ابن باديس	جامع الزيتونة	طالب علم

ويهدف ابن باديس من وراء توظيف هذا الصنف من الإشاريات إلى تمكين القارئ من فهم معتقداته وتوجهاته وإدراكه للأسس التي بنيت عليها فلسفته الإصلاحية والأهداف المتوخاة منها، باعتبار أن القراءة التداولية الواعية للخطاب تستمد مشروعيتها من فهم مقاصد المتكلم في إطار سياق التخاطب.

4- إشاريات الخطاب أو النص: La déixis textuelle

يرى الدارسون أن إشاريات الخطاب قد تلتبس بمفهوم الإحالة القبلية أو البعدية ولذا أخرجها البعض منهم من دائرة الدراسة ، غير أن هناك من وضع حدودا فارقة بينهما .[1]

ويذهب التداوليون إلى أنّه يمكن استعارة العناصر الإشارية الدالة على الزمان أو المكان، لتستعمل كإشاريات للخطاب كما في النموذج الآتي:

« ...**أما خطتنا التي سنسير عليها فهي تلك الخطة المعلومة، والمبينة في جرائد جمعية العلماء السابقة...** » .[2]

نلاحظ أن ابن باديس قد استعار لفظ " السابقة " من إشاريات الزمان ليستخدمها في هذا السياق التداولي كإشاريات للخطاب.

وفي قوله " تلك الخطة " هي إشارة إلى خطة ذكرت سابقا وفي مواضع مختلفة من خطاباته ، وهي الخطة نفسها التي أحكم ابن باديس هندستها ليسير عمله الإصلاحي على ضوئها.

كما أن هناك إشاريات للخطاب «... تعدّ من خواص الخطاب وتتمثل في العبارات التي تذكر في النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم ... » .[3]

ومن نماذج ذلك استخدام ابن باديس لحرف الاستدراك " لكن " ليستدرك به عن كلام سابق يقول في هذا السياق : "... **وبعد – فأنتم يا رجال القضاء الإسلامي – الرمز الوحيد الذي بقي**

---

1 - محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 24.

2 - عبد الحميد بن باديس : المصدر السابق، مج6 ، ص 05 .

3 - محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 24.

للسلطة الإسلامية ... وأنتم تعلمون أنه لا بقاء لهيكل القضاء الإسلامي ، إلا ببقاء الدين ولغته العربية ... ولكننا أصبحنا نستقين أن الحكومة الفرنسية تبيت الشر لهذا الدين...".[1]

ذكر ابن باديس أن سلك القضاء الإسلامي هو الرمز الوحيد للسلطة الإسلامية وأن بقاءه رهين ببقاء أركان هذا الدين قائمة ، ثم بعد ذلك استدرك عن هذا الطرح بطرح آخر مناقض له ويتمثل في قوله :« ... **لكننا أصبحنا نستيقن أن الحكومة الفرنسية تبيت الشر لهذا الدين** ... ».

ويفهم من الطرح السابق أن ابن باديس كان يدرك بحنكته ونفاذ بصيرته ما تبينه فرنسا من نوايا سيئة ومن شرّ دفين لتقويض معالم هذا الدين، وهذا ما حذا به لانتهاز الفرصة وفي كل مناسبة للكشف عن هذه النوايا السيئة، لأن الاستعمار يعلم علم اليقين مدى حب هذه الأمة لدينها وتشبثها به، فهذا الدين يمثل مرفأ نجاة ونهج حياة بالنسبة إليها.

وعليه فقد ساعد حرف الاستدراك "لكن" في هذا النموذج على الكشف عن موقف خاص بالمتكلم. ومن العناصر الإشارية التي تعدّ من خواص الخطاب والتي تحيل أيضا إلى موقف خاص بابن باديس قوله: « ... **شاء الإخوان أن يجدّدوا لهذا العاجز حمل مسؤولية الرئاسة رغم امتناعه والله لقد كنت أودّ لو صرفت عني، والله لولا خوفي من عظيم المسؤولية عند الله ما قبلت من إخواني ذلك رغم شدة احترامي لإرادتهم ، وتقديري لإشارتهم ..**" .[2]

يحيل اسم الإشارة هذا في قوله "**هذا العاجز**" إلى موقف ابن باديس الصريح و الواضح من رئاسة الجمعية، فهو يرفض تولي مثل هذه المناصب لأنّه يدرك بفكره الثاقب "أن المسؤولية تكليف لا تشريف"، كما تشير لفظ العاجز في هذا السياق إلى تواضعه الشديد رغم علو قدره داخل مجتمعه .

ومن ثمة يمكن القول إن هذه المواقف الصريحة والثابتة تدلّ أيضا على مدى صلابة هذا الرجل، وجرأته ورجاحة عقله، وصواب منطقه ومدى إيثاره للمصلحة العامة على حساب المصالح الشخصية، وهذه الخصال كلها لا تتوفر إلا لأشخاص معدودين من البشر، ومن بينهم ابن باديس، وهذا ما

---

[1] - عبد الحميد بن باديس ، المصدر السابق، مج6 ، ص 95.

[2]– المصدر السابق : مج 3 ، ص 19 .

سنحاول أن نميط اللثام عنه أكثر من خلال تحليلنا للصنف الأخير من هذه الأصناف الإشارية ونقصد تحديدا الإشاريات الاجتماعية.

5- الإشاريات الاجتماعية: La déixis mémorielle

تتوفر المضامين الإصلاحية لابن باديس على عناصر إشارية مختلفة تحيل إلى طبيعة العلاقة التي تربط ابن باديس بالمخاطب : « من حيث هي علاقة رسمية **Formal** أو علاقة ألفة ومودة «intimacy ».[1]

ومن النماذج التي برز فيها الصنف الأول من هذه العلاقات الاجتماعية قوله:« **نشرنا بعدد مضى تصريحات لجناب م. فيوليت ولي عموم القطر الجزائري ...** ».[2] وقوله: « **دلت خطبة جناب الوالي العام على روح شريفة ..** ».[3] وقوله: « **موقف تاريخي عظيم في علاقات فرنسا والإسلام، وهو ذلك الموقف الذي وقفه رئيس الجمهورية في حفلة مسجد باريس...** ».[4]

ومن ذلك أيضا قوله : « **... قال الوزيـــر كلمته – وهو عالم بمقتضاها – للوفد الجزائري...** ».[5]

وقوله: « **... استدعى الوالي العام وفدا من المسلمين ...** ».[6]

تشتمل هذه النماذج على عناصر إشارية توحي بأن هناك علاقة رسمية تربط ابن باديس بمخاطبه، و من القرائن اللغوية الدالة على ذلك قوله: {جناب الوالي (تكررت مرتين) – رئيس الجمهورية – الوزير – الوالي العام ...}.

وتحيل هذه الدوال الاجتماعية إلى أن الطرف الموجه إليه الخطاب أعلى مرتبة في السلم الاجتماعي من المتكلم.

1- محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 25 .

2- عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق مج5 ، ص 30 .

3 – المصدر نفسه، مج5 ، ص 59.

4 - المصدر نفسه ، مج5 ، ص 214 .

5 - المصدر نفسه ، مج5 ، ص 382.

6 - – المصدر نفسه ، مج4 ، ص 46.

وتقتضي هذه الفوارق الاجتماعية الموجودة بين طرفي الخطاب استعمال مثل هذه الألقاب ،حتى يثبت المتكلم للمخاطب أنه محل احترام وتقدير، وهذا المبدأ في التعامل أطلقت عليه روبين لاكوف مبدأ التأدب. [1]

وينوع ابن باديس في اختيار معجمه اللفظي في بعض المواضع فيخاطب المفرد بالضمير " أنتم " الدال على الجمع ليظهر للمخاطب التقدير والاحترام، وليؤكد على أن العلاقة بينهما هي علاقة رسمية كما في قوله: « **إلى جناب الوالي العام على القطر الجزائري...أتشرف بتقديمي لكم اللائحة الآتية المصادق عليها...**[2]"، وقوله : « **إلى السيد الوالي العام – باريس ... أتشرف بإعلامكم أن عدد كبير من حجاج عمالة قسنطينة بقي معطلا بمدينة عنابة ...** » .[3]

استعمل ابن باديس في هذين النموذجين ضمير الجمع أنتم لمخاطبة المفرد وإن كان هذا النمط من التعبير غير شائع في ثقافتنا العربية، وإنّما هو شائع أكثر في الثقافة الفرنسية حيث يخاطب الفرنسي الشخص الأكبر منه سنا أو مقاما بضمير الجمع "**vous**".

ويتعمد المتكلم استعمال مثل هذا النمط من التعبير ليتلاءم وقواعد التخاطب في المجتمع الفرنسي، حتى تكون رسالته أكثر وضوحا وتأثيرا ،خاصة وأن الطرف الموجه إليه الخطاب من أصول فرنسية .

ويقصد ابن باديس من وراء هذه الاستعمالات ردم الهوة بينه وبين خصمه (العدو الفرنسي) فهي إذا خطة مبيتة منه لتعزيز مبدأ التضامن والتعاون بينهما من أجل تحقيق ما يصبو إليه من أهداف، وهذا ما يندرج ضمن مبدأ التأدب الأقصى الذي أقره جيفري ليتش ضمن مؤلفه الشهير "مبادئ التداوليات" والذي صاغ هذا المبدأ في صورتين أحدهما سلبية والأخرى إيجابية تحث على الإكثار من الكلام المؤدب.[4] وأشار الجاحظ قديما إلى مثل هذا بقوله : « ...فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس،كما يفهم السوقي رطانة السوقي. وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات ».[5]

---

1 – ينظر طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر، ص 240 .

2– عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج3، ص40.

3– المصدر نفسه، مج3، ص407.

4 - طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 246 .

5- الجاحظ البيان والتبيين ، ج1 ، ص 144 .

يشير الجاحظ في هذا السياق إلى ضرورة إنزال الناس منازلهم،ومخاطبتهم على قدر عقولهم حتى يتحقق الفهم والإبلاغ، وما ذهب إليه الجاحظ يعد من صميم الدراسة التداولية في العصر الحديث إذ يمكن إدراج تصوراته هذه ضمن صنف الإشاريات الاجتماعية .

ويساعد هذا الصنف على تحديد هوية الأطراف المشاركة في فعل التلفظ، وطبيعة العلاقة التي تجمعهما (علاقة رسمية)، ونوع اللغة المستخدمة، والإحاطة بهذه العناصر جميعها، يسهل على القارئ فهم الرموز اللغوية المشكلة لبنية الخطاب وتأويلها تأويلا مناسبا.

ويطرد ذكر بعض الإشاريات الاجتماعية وفي كثير من المواضع من الخطاب الإصلاحي لتحيل إلى مرجعيات مختلفة ومن نماذج ذلك **قوله** : «**قال سعادة الباشا** ... ».[1]

وقوله :« ... **سيدي مدير (البتي ماتان المحترم)** ... ».[2]

وقوله :« ... **نصحني سيدي الطالب إذا يسر الله لي زيارة القبر الشريف أن أسأل عليه وآله الصلاة والسلام الشفاعة** .. ».[3]

وقوله « ... **لما عاد رشدي بك وزير خارجية تركيا من باريس إلى جنيف** ... ».[4]

وقوله : « **قال مكاتب "الجورنال"** : **إن القبطان غوردن كوننج معتنق للدين الإسلامي ... وأن اهتمامه بالريفيين اهتمام ديني بالأخص**... ».[5]

وردت في هذه النماذج العناصر الإشارية الآتية:

سعادة الباشا – رشدي (بك) – ويحيل هذان العنصران الإشاريان إلى مرجعية ثقافية تتعلق بمجتمع ما ، ونلاحظ أن هذه الألقاب شائعة أكثر في المجتمع التركي والمجتمع المصري وغيرها ...

ومن الإشاريات الاجتماعية التي وردت في النماذج السابقة نذكر :

{سيدي المدير المحترم ، القبطان ، سيدي الطالب ، وزير الخارجية } وتحيل هذه العناصر الإشارية إلى رتبة المخاطب في السلم الاجتماعي ، أو إلى مجال وظيفي معين ينتسب إليه .

---

(1) عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج3 ، ص 356 .

(2) المصدر نفسه ، مج3 ، ص 403

(3) المصدر نفسه ، مج3 ، ص 31

(4) المصدر نفسه ، مج5 ، ص 53

(5) المصدر نفسه ، مج5 ، ص 61

ويبرز الصنف الثاني من الإشاريات الاجتماعية والمتمثل في (العلاقة الحميمية) في قوله:

« ... فيا أيها الإخوان إني بلسان إخوانكم أعضاء المجلس الإداري لجمعيتكم أقدم لكم الشكر على ما بذلتموه في هذا المجلس من ثقة ... أيها الإخوان إن أعظم لذّة يشعر بها ذو الضمير الحي أن تكون له قيمة عند قومه ... إخواني قدمتوني للرئاسة اعترافا منكم بأن أبقى على ما كنت عليه... ».[1]

وفي قوله: "...أيها الإخوان... إن في قصة ملكة سبأ في القرآن لدرس تتفجر منه ينابيع العظة.."."[2]

تحضر في هذين النموذجين العناصر الإشارية الاجتماعية الآتية :(أيها الإخوان (تكررت ثلاث مرات)، إخوانكم، إخواني) وتحيل جميعها في هذه السياقات إلى طبيعة الصلة التي تربط ابن باديس بالأطراف الموجه إليها الخطاب، إذ توجد عناصر مشتركة تجمع بينهم وتتعلق تحديدا بوحدة المعتقد، والجنس واللغة والبيئة والمصير المشترك، بالإضافة إلى القضية الجوهرية التي يدور حولها موضوع الخطاب.

وما يدل على هذه الصلة المشتركة بين أطراف الخطاب القرائن اللغوية الآتية "بلسان إخوانكم"، "عند قومه..."، " قدمتوني للرئاسة...".

وتساعد الإشاريات الاجتماعية في هذه النماذج من جهة أخرى على تحديد مقاصد المتكلم، حيث يسعى ابن باديس إلى تقريب المخاطبين منه ليزيح كل الحواجز بينه وبينهم ، فيتمكن من توطيد صلته بهم لأن "...الأنس والإلف والقرب كلها من المقاصد الضرورية للتواصل الإنساني"[3] .

كما يلجأ في بعض المواضع من خطاباته إلى توظيف عناصر إشارية تعبر عن مدى التزامه "بالضوابط التبليغية و التهذيبية "[4] عند مخاطبة خصومه أو معارضيه ويدل تلطفه هذا على الطبيعة التي جبل عليها لأنه "... متى تحقق المتكلم بالصدق في الخبر والصدق في العمل والصدق في مطابقة قوله لفعله ،انفتح باب التواصل الصادق بينه وبين المخاطب وتزايدت أسباب التقارب بينهما..."[5].

1- المصدر السابق ، مج3 ، ص 501

2- المصدر نفسه ، مج4 ، ص 71

3 – طه عبد الرحمن : اللسان والميزان أوالتكوثر العقلي، 246.

4 – ا لمرجع نفسه، ص237.

5 – ا لمرجع نفسه، ص252.

ومن نماذج التواصل الصادق الذي يسعى إليه ابن باديس حتى مع خصومه قوله:

« أيها السادة – مع احترامي لكم ولما اخترتموه لأنفسكم – أقول لكم غاية الصراحة ، إنكم تجهلون أصول الإسلام لأنكم لم تتعلموها .... » . [1]

وفي قوله « ... هداك الله أيها الأخ وعرفك وقدرك ... ». [2]

و تحضر في هذين النموذجين عناصر إشارية اجتماعية تدل على مدى تلطف ابن باديس وتقديره واحترامه لكل من يختلفون معه في الرأي أو يتعاكسون معه في الوجهة كما في قوله {أيها السادة، مع احترامي لكم،أيها الأخ}، حيث كشف هذا الصنف من الإشاريات عن مدى تحلي هذا الرجل بروح الموضوعية، وتخلّيه عن الحزازات الشخصية عند مواجهة الخصوم .

ويعد التداوليون ألفاظ التحية من الإشاريات الاجتماعية "...التي تتدرج من الرسمية إلى الحميمية". [3]

ولا تكاد تخلو خطبة من خطب ابن باديس من هذا الصنف من الإشاريات.

ويستهل هذا المصلح خطبه بحمد الله والثناء على رسوله الكريم ثم يلقي التحية على مخاطبه ، ونلاحظ أن ألفاظ التحية عنده تختلف من مقام إلى مقام آخر وحسب طبيعة المخاطبين ومن نماذج ذلك قوله :

« الحمد لله الذي فضلنا بالعقل وكملنا بالعلم ، وجملنا بالفضيلة ، وأسعدنا بالهداية والتوفيق ... والصلاة والسلام على سيدنا محمد الكامل بالفطرة... أما بعد فحياكم الله أبناء العروبة والاسلام... »

وفي قوله: « ... إنا لنا آمالا تتبعها أعمال ، ونسأل الله أن يجعلنا حي أعمال لاحي أقوال ، صدق الله أعمالنا وأقوالنا والله المستعان والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... » . [4]

---

[1] عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج3 ، ص11 .

[2] المصدر نفسه ، مج4 ، ص 339 .

[3] محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث المعاصر ، ص 26 .

[4] عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج3 ، ص 503 .

ساعدت العناصر الإشارية الآتية "حياكم الله .. و "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " في هذا السياق التداولي على تحديد المرجعية الدينية لابن باديس وكذا الأطراف المشاركة في العملية التخاطبية.

وهذه الدوال الاجتماعية هي مؤشرات لغوية تبرز العلاقة الحميمية التي تربط المتكلم بالمخاطب من جهة، كما تبرز قواعد التخاطب المتعارف عليها داخل مجتمع معين من جهة أخرى .

وبما أن ألفاظ التحية عند ابن باديس تختلف باختلاف مقام التخاطب، وباختلاف الأطراف الموجه إليها الخطاب، فإنه يحاول في المواقف الرسمية أن يتخير من ألفاظ التحية ما يتواءم والموقف ونوع الأشخاص المشاركين في العملية التواصلية حتى يحظى خطابه بقبول واستحسان المتلقي .

ومن نماذج ذلك قوله « سيدي المدير (البتي متان) المحترم :

تحية وتقدير

سيدي – أنا كمسلم أدين بالأخوة الإسلامية وأحترمها في جميع أجناسها وأديانها، وأسعى للتقريب بين جميع عناصرها ... » .[1]

استعمل ابن باديس الألفاظ الآتية :{ سيدي ، مدير ، المحترم ، تحية وتقدير } وهي كلها عناصر إشارية اجتماعية توحي بأن العلاقة التي تربط ابن باديس بالمخاطب هي علاقة رسمية ، ويكثر تداول هذا الصنف من الإشاريات في الخطابات الرسمية والمراسلات الإدارية .

ويتحكم في اختيار ابن باديس للعناصر الإشارية الاجتماعية ، عوامل تداولية كثيرة نذكر منها: مقاصد المتكلم، والمقام التخاطبي، ونوع العلاقة التي تربط المتكلم بالمخاطب من حيث هي علاقة رسمية أو علاقة ألفة ومودة، وهوية المشاركين في الخطاب، وانتماءاتهم المذهبية، ومنزلتهم الاجتماعية .

---

[1] المصدر نفسه ، مج3، ص403.

خلاصة:

تضافرت الإشاريات الشخصية والمكانية والزمانية والخطابية والاجتماعية لإضاءة بعض الجوانب من الخطاب الإصلاحي ويتضح ذلك كما يلي:

1- عبّرت الإشاريات الشخصية عن مواقف ابن باديس ومعتقداته وتوجهاته وفلسفته الإصلاحية والأسس التي بنيت عليها هذه الفلسفة ومقاصده التداولية وتطلعاته المستقبلية، باعتبار أن ذات المتكلم هي البؤرة المركزية في هذه النصوص .

2- الإحالة المستمرة إلى ذات المتكلم أسهمت بشكل واضح في اتساق هذه النصوص وانسجامها من خلال ربط أجزائها المتباعدة، حتى أنها تبدو للقارئ نصا واحدا لا نصوص متفرقة.

3- واستعمال الإشاريات الشخصية في الخطاب الإصلاحي يتجاوز القواعد الشكلية الصارمة للغة إلى فسحة القواعد التداولية الرحبة، فقد تدل ضمائر الغائب على المخاطب وقد يدل ضمير الجمع على المفرد.

4- ساعدت الإشاريات الزمانية على تحديد زمان وقوع الأحداث والوقائع المخبر عنها بالقياس إلى لحظة التلفظ، ويجري تقييد زمن الأحداث والموضوعات من منطلق أن النشاط الإصلاحي لابن باديس مرتبط أساسا بالذاكرة التاريخية للأمة الجزائرية ، وهي ذاكرة حية لا تموت بموت الأشخاص

5- مكنت الإشاريات المكانية القارئ من التعرف على مكان التلفظ، وتحديد المواضع التي تفاعل فيها شركاء الخطاب، ونلاحظ أن إدراك ابن باديس للمكان قد اقترن بأبعاد ذهنية شعورية وأبعاد حسّية لأن المكان كما وصفه الدارسون علامة في سياق الزمن يستطيع منتج الخطاب أن يستحضر من خلالها تاريخه الشخصي .

6- يعد التداوليون إشاريات الخطاب من خواص الخطاب، وهي مؤشرات لغوية تبرز على مستوى البنية السطحية للملفوظ، لتحيل إلى موقف خاص بالمتكلم، وقد كشف هذا الصنف من الإشاريات على مدى تفاعل ابن باديس الإيجابي مع واقع بيئته .

7- ومن الأصناف الإشارية التي برزت أكثر في المضامين الإصلاحية وبصورة لافتة للانتباه "الإشاريات الاجتماعية "، إذ لا يكاد يخلو منها خطاب ، ويخضع هذا الصنف من الإشاريات إلى

عوامل سياقية ترتبط أساسا بعلاقة المتكلم بالمخاطب من حيث القرب أو البعد العاطفي، ودرجة كل منهما في السلم الاجتماعي، ومقاصد المتكلم، وهوية الأطراف المشاركين في الخطاب وانتماءاتهم، كما تخضع لشرط الصدق الذي أقره **غرايس**، ومبدأ التأدب الذي صاغته روبين **لاكوف**.

وإذا كانت الإشاريات قد ساعدت على استجلاء بعض الدلالات العميقة ، فإن استكمال المسار الدلالي لبنية هذه النصوص يستدعي ربط هذه المضامين بسياقاتها لما للسياق من دور بارز في الحكم على تماسك النصوص وترابطها، وهذا ما سأحاول الكشف عنه في الفصل اللاحق أي بعد أن أتناول بالدراسة أولا ضروب الأفعال الكلامية في المضامين الإصلاحية عند ابن باديس.

الفصل الثالث

ضروب الأفعال الكلامية في الخطاب الإصلاحي وفق تصنيف سورل

أولا– نماذج الأفعال الكلامية في الخطاب الإصلاحي لدى عبد الحميد بن باديس

1- الإخباريات.

2- التوجيهيات.

3- الالتزاميات.

4- التعبيريات.

5- الإعلانيات.

ثانيا– علاقة ترتيب الأفعال الكلامية بمضامين الخطاب الإصلاحي.

ثالثا– تحليل الأفعال الكلامية في النماذج المختارة.

خلاصة

توطئة :

تشكل نظرية الأفعال الكلامية النواة الأساسية للبحث التداولي، حتى عدها البعض من الباحثين مرادفة لها يشير ليفنسون في هذا السياق بقوله:« ... إن التداولية في نشأتها الأولى كانت مرادفة للأفعال الكلامية » .[1]

وبرغم ما بذله أوستين من جهود من أجل دك الأسس المنهجية لنظريته، إلا أنها لم تسلم من انتقادات الدارسين، ومن بينهم تلميذة الفيلسوف الأمريكي "سورل" الذي عمل على تطوير مفهومين لهذه النظرية وهما: المقاصد والمواضعات كما عدّ سورل الفعل الإنجازي هو "هو أصغر وحدة مكتملة في الاتصال اللغوي الإنساني . وحينما نتكلم أو نكتب لبعضنا فإننا نؤدي أفعالا تمريرية"[2] .

كما عدّل سورل شروط الملاءمة عند أستاذه أوستين وحصرها في أربعة شروط وهي:[3]

أ-**شرط المحتوى القضوي** contenue propositionnelle: وهو المعنى الأصلي للقضية

ب-**الشرط التمهيدي** contenue préparatoire ويتحقق إذ كان المتكلم قادرا على إنجاز فعل.

ج-**شرط الإخلاص** contenue sincertive عندما يكون المتكلم مخلصا في أداء الفعل.

د-الشرط الأساسي contenue essentielle محاولة المتكلم التأثير على السامع بكيفية ما.

أما تصنيفه للأفعال الكلامية حسب قوتها الإنجازية فكان على الشكل الآتي: الإخباريات، التوجيهيات، الالتزاميات، التعبيريات، الإعلانيات، ويجمع الدارسون على أنّ هذه النظرية (نظرية أفعال الكلام) لم تبلغ مرحلة النضج والضبط المنهجي إلاّ على يد سورل، وهذا ما حدا بنا لاختيار تصنيفاته كنموذج لدراسة ضروب الأفعال الكلامية الواردة في المدونة في إطار تداولي. وسأقتصر منهجيا في استقراء الأفعال الكلامية على المجلدين الثالث والرابع لما اشتملا عليه من مضامين إصلاحية مختلفة (معاملات اجتماعية تربوية، أخلاقية ، دينية ، سياسية) عينة تسحب نتائجها على باقي المجلدات الأخرى نظرا لشساعة المدوّنة.

1- ينظر محمود أحمد نحلة: آفاق في البحث اللغوي المعاصر، ص41.

2- جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع، ص 202 .

3- محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 48 ، و انظر أيضا نعمان بوقرة :اللغة ومنطق الاستعمال في ضوء النظرية التصويرية وأفعال الكلام ، مجلة جرش الثقافية العدد 7 – 8 شتاء 2007-2008 ، ص 34 و ص 35 .

ويقتضي استنباط الأفعال الكلامية من الخطاب الإصلاحي لابن باديس الإجابة عن أسئلة كالآتي:

-كيف يمكن استثمار هذا المفهوم (الفعل الكلامي) في استجلاء الدلالات العميقة لهذا النوع من الخطابات؟

- وكيف تتحول هذه المضامين الإصلاحية إلى فعل كلامي مركزي؟

- وإذا كانت هذه المضامين تحمل في طياتها فعلا مركزيا واحدا فما دلالة ذلك؟

إن محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها تقتضي منا مباغتة الحصن المنيع لهذه النصوص، لفك أسر الدلالة وتحريرها من عبودية البنية والنظام، لاستجلاء الفعل الكلامي الشمولي أو مجموعة الأفعال الكلامية التي ينبني عليها هذا النسق العام التي تتخفى وراء ستاره اللغوي مقاصد منتج النص، وسنتعامل مبدئيا مع أول صنف من الأفعال الكلامية:

أولا- نماذج الأفعال الكلامية في الخطاب الإصلاحي لدى ابن باديس وفق تصنيف سورل:

1- الإخباريات:

يرى سورل أن شرط الصدق في هذا النوع من الأفعال هو مدى مطابقة **الكلمات للعالم** ، ومن ثمة فإن الحالة النفسية التي يراد التعبير عنها في هذه الحالة هو " الاعتقاد " « فكل اثبات هو تعبير عن اعتقاد » [1].

فمنتج الخطاب يجسد ذاته الاجتماعية من خلال ما ينقله من وقائع لها صلة بالعالم الخارجي والتي يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب.

ومن نماذج الخطب التي تندرج ضمن هذا الصنف نورد ما يلي:

- النموذج الأول : "يتكلمون بما لا يعلمون":

يقول ابن باديس: " إن الجاهل بالشيء جاهل به ولو كان من أعلم الناس بغيره ، وما علمه بما علم برافع جهله فيما جهل ،إن هذه لحقيقة من الوضوح بمكان . ولكن يحتاج إلى تكرار ذكرها بقدر ما يتكرر من وقوع مخالفته. إن الناس قسمان : الجاهلون بكل علم ، والعالمون وليس منهم من يعلم كل علم .. " .[2]

1- جون سيرل : العقل واللغة والمجتمع ، ص 217

2- عبد الحميد بن باديس، المصدر نفسه، مج3، ص 09 .

– النموذج الثاني: " لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة":

يقول ابن باديس: « من المعلوم عند أهل العلم أن مما حفظ الله به دينه وأبقى به حجته أنه لا تنقطع الدعوة إلى الله في هذه الأمة والقيام على الحق والإعلان بالسنن والرد على المحرفين والمتغاليين والزائغين والمبتعدين وأن أهل هذه الطائفة معروفة مواقفهم في كل جيل » .[1]

– النموذج الثالث: " إلى علماء جامع الزيتونة":

« ...لقد ارتفعت الشكوى في الصحف التونسية هذه المدة الأخيرة من بلدان عديدة من القطر التونسي الشقيق بالبدع والمناكر التي يأتيها الطرقيون به. والفضائح التي ارتكبها بعضهم وسيق من أجلها إلى العدلية كما يساق المجرمون، ووجهت سؤالات صريحة إلى العلماء في حكم الإسلام في ذلك كله، وعلماء جامع الزيتونة وشيوخ الفتوى فيه وشيخا الإسلام منهم – وأجمون [واجمون] ساكتون كأن الأمر لا يعنيهم وكأن آيات الله لم تطرق آذانهم، فأين أنتم أيها الشيوخ ؟ وأين إيمانكم؟.. ».[2]

– النموذج الرابع: "بواعثنا – عملنا – خطتنا – غايتنا":

« رأينا – كما يرى كل مبصر – ما نحن عليه معشر المسلمين من انحطاط في الخلق، وفساد في العقيدة، وجمود في الفكر، وقعود عن العمل، وانحلال في الوحدة، وتعاكس في الوجهة، وافتراق في السير ... حتى خارت النفوس القوية، وفترت العزائم المتقدة، وماتت الهمم الوثابة، ودفنت الآمال في صدور الرجال، واستولى القنوط القاتل واليأس المميت فأحاطت بنا الويلات من كل جهة... »[3].

– النموذج الخامس: "على ذكرى المولد النبوي الشريف التجدد في كل مولد":« ما كانت هذه الدار الدنيا دار بقاء وإنما هي دار فناء. وما بقيت عناصرها المادية في الوجود إلا بما أجراه الله عليها

1 – المصدر السابق، مج 3 ، ص 119 .

2 – المصدر نفسه، مج3، ص102

3 – المصدر نفسه، مج 3 ، ص 20 .

من سنة التجديد في الخلق ليقوم الجديد مقام ما أتى عليه الفناء ... وتاريخ البشرية من أقدم عصورها يدل على أنها لم تفارقها هذه السنة : سنة التجديد إثر الفناء ... » .[1]

ومن نماذج الإخباريات التي وردت في المجلد الرابع نذكر منها ما يلي:

– النموذج السادس: " ثمار العقول والمطابع محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766–1791)":

يقول ابن باديس : «... إن من جنايات الاستعمار الأوربي على البشرية أنه قلب حقائق التاريخ على الناس فقد صور الأمم التي ابتليت به وأصيبت بشره بصور من الهمجية والوحشية والتأخر والانحطاط لا أبشع منها ذلك ليبرز استيلاءه عليها ، ومَنَّ عليها بما زرعه فيها من عمران ،وإن كان هو المستغل لذلك العمران والمستبد به ... » .[2]

– النموذج السابع: " وأنا أغتنمها... المصلحة العمومية فوق الحزازات الشخصية":

« رجل عظيم له أثر جليل في فتح الجزائر " المغرب الوسط " فهو أول من وطئت معه خيول الإسلام هذه الأرض ، ولكنه مغمور في التاريخ ... ».[3]

– النموذج الثامن: "النجاة من العطب بقليل من الأدب ":

« خرج الإمام ابن عربي في صغره إلى المشرق مع أبيه وكادا البحر يوما يغرقهم وكاد الجوع والبرد بعد خروجهم من البحر أن يهلكهم لولا أن الله تعالى بسبب طريف أنقذهم.. ».[4]

– النموذج التاسع":"الخنساء وبنوها أثر الإسلام في النفوس":

"... هذه المرأة التي بلغ بها الحزن على فقد أخوتها في الجاهلية ما بلغ، وانتهى بها الجزع إلى ما انتهى.. ".[5]

1 – المصدر السابق، مج 3 ، ص 431 .

2 – المصدر نفسه، مج 4 ، ص 29 .

3 – المصدر نفسه، مج 4 ، ص 279.

4 -المصدر نفسه، مج 4 ، ص 247 .

5 – المصدر نفسه، مج 4 ص217

النموذج العاشر: "رحلتنا إلى العمالة الوهرانية باسم الجمعية":

« لما كان مقصود الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية وكانت طريقة الوعظ والإرشاد بالهداية القرآنية هي أنجع دواء لذلك عند المسلمين قررت أن ترسل أفرادا من أهل العلم بنواحي القطر للقيام بهذه المهمة العظيمة ورأت أن تبتدئ بالعمالة الوهرانية... ».[1]

2- التوجيهات:

يرى سورل أن "كل توجيه هو تعبير عن رغبة بأن يقوم المستمع بالفعل الموجه به"،[2] بمعنى حمل المخاطب على إنجاز فعل ما والأفعال المعبرة عنها: الأمر، الاستفهام، النهي، النصح، الإرشاد، الاستعطاف، وغيرها.

وهي لا تخضع لمعيار الصدق أو الكذب "و لكن يمكن أن تطاع أو تهمل، أو يخضع لها أو تستنكر... "،[3] ومن المضامين الإصلاحية التي تندرج ضمن هذا الصنف نذكر من المجلد الثالث النماذج التالية :

– النموذج الأول: " أيها المسلم الجزائري":

" هاك وصايا نافعة مختصرة على وجه الإجمال، وسنعيدها عليك مختصرة على وجه التفصيل .

هاك أدابا تقتضيها إنسانيتك ويفرضها عليك دينك وتستدعيها مصلحتك في هاته الحياة. هاك ما إن تمسكت به كنت إنسان المدينة ورجل السياسة وسيدا حقيقيا يرمق من كل أحد بعين الاحترام والتعظيم.".[4]

– النموذج الثاني " الإسلام الذاتي والإسلام الوراثي أيهما ينهض بالأمم".

« هذا الإسلام الذاتي هو الذي أمرنا الله به .. .إذا ! فنحن – المسلمين – مطالبون دينيا بأن نكون مسلمين إسلاما ذاتيا . فبماذا نتوصل إلى هذا الواجب المفروض ؟ » . [5]

– النموذج الثالث "حديقة الأدب من المنظوم والمنثور اليوم وقبل اليوم تحية المولد الكريم". [6]

---

1 – المصدر السابق، مج 4 ، ص 309

2 – جون سيرل : العقل واللغة والمجتمع، ص 218 .

3 – المرجع نفسه، ص ن.

4 – عبد الحميد بن باديس، المصدر السابق، مج3، ص157.

5 – المصدر نفسه، مج3، ص 219.

6 – المصدر نفسه، مج 3 ، ص 519 .

يَا نَشءُ أَنْـت رَجَـاؤُنَـا وَبـكَ الصَّـباحُ قَـدِ اقْـتَربْ
خُـذْ لِلحَـيـاةِ سِلاَحَـهـا وَخُـضِ الْخُـطُـوبَ وَلاَ تَهـبْ
وَارْفعْ مَـنـارَ الْـعَـدْلِ وَالإِ حْـسـانِ وَاصْـدُمْ مَـن غَصـبْ
وَأَذِقْ نفُـوسَ الظَّـالـمِـينَ السُم يُـمـزَج بالـرَّهَـبْ
وأقلع جذور الخائبين فمنهم كل العطب
وَاهْـزُزْ نـفـوسَ الجَـامِـدينَ فَرُبَّـمَـا حَـيّ الْـخَـشَـبْ

– النموذج الرابع: "نداء إلى الأمة الجزائرية ونوابها":

« ... أيتها الأمة الكريمة ، أيها النواب الكرام ! ... لندع الأمة الفرنسية ترى رأيها في برلمانها ولنتمسك – عن إيمان وأمل – بشخصيتنا ولنطلب بالمساواة التامة في جميع الحقوق في وطننا وأولها المساواة في المجالس النيابية .. » .[1]

ومن التوجيهات التي وردت في المجلد الرابع نذكر ما يلي:

– النموذج الخامس: "الرّاعي":

« من هذا الغلام العربي في عباءته ؟ من هذا الراعي الصغير في غنيمته ؟ من هذا الصبي الناشيء على الحمل والرعاية من طفولته ؟ من هذا اليافع الذي يأبى إلا أن يعيش من كد يمينه ، ويأكل خبزه إلا بعرق جبينه ؟ ... » .[2]

– النموذج السادس: "هند بنت عتبة رحمها الله".

« بات المسلمون الليلة الموالية ليوم الفتح يصلون بالمسجد الحرام فرأت هند منهم ما لم تعهد ... وأرادت المجيء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– ... فدخلت وهي متنقبة فأسلمت ولما بايع النبي – صلى الله عليه وسلم – النساء وهي معهن ومن الشرط فيها ، أن لا يسرقن ولا يزنين ، قالت هند : وهل تزني الحرة وتسرق يا رسول الله ؟ ... » .[3]

ز– النموذج السابع "الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم"

« ...والصلاة النبوية صيغة تعبدية فليحذر من اللحن فيها » .[4]

1–عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق ، مج3 ، ص 336–337 .
2– المصدر نفسه ، مج 4 ، ص 259 .
3– المصدر نفسه ، مج 4 ، ص 117 .
4– المصدر نفسه مج 4 ، ص 392 .

3- الالتزاميـــات:

يرى سورل أن الفعل الإلزامي هو أن يتعهد المتكلم للمستمع بإنجاز عمل مـــا في المســـتقبل وشـــرط الإخلاص فيه هو النية ويندرج تحت هذا الصنف المواعيد والنذور والرهـــون والعقـــود والضـــمانات والتهديد إلخ ... [1] .

ومن أمثلتها في المجلد الثالث نستعرض النماذج الآتية :

– النموذج الأول: "عبداويون" ثم "وهابيون" ثم ماذا ؟ لا ندري والله":« لما قفلنا من الحجاز وحللنا بقسنطينة ...وعزمنا على القيام بالتدريس، أدخلنا في برنامج دروسنا تعليم اللغة وأدبها والتفســـير والحديث والأصول ومبادئ التاريخ ومبادئ الجغرافية ومبادئ الحساب وغير هذا، ورأينـــا لـــزوم تقسيم المعلمين إلى طبقات ... ». [2]

– النموذج الثاني: "صلاح التعليم أساس الإصلاح": « لن يصلح المسلمون حتى يصلح علمـــاؤهم فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم ، فـــإذا كـــان علماءهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكذلك المسلمون يكونون . فإذا أردنـــا إصـــلاح المسلمين فلنصلح علماءهم ... ». [3]

– النموذج الثالث: "الرجل المسلم الجزائري": « هاك وصايا نافعة مختصـــرة علـــى وجـــه الإجمال، وسنعيدها عليك مختصرة على وجه التفصيل . هاك آدابا تقتضيها إنســـانيتك ويفرضـــها عليك دينك، وتستدعيها مصلحتك في هاته الحياة، هاك ما إن تمسكت به كنت إنسان المدنية ورجل السياسة وسيدا حقيقيا يرم ق من كل أحد بعين الاحترام والتعظيم ... حافظ على صحتك فهـــي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك، تجنب العفونة فإنها مصدر جـــراثيم الأمراض ومثار نفور وبغض لطلعتك ، فاحذر كل متعيلم يزهدك في علم من العلوم ... واحذر كل (متربيط) يريد أن يقف بينك وبين ربك ... واحذر من دجال يتاجر بالرقي والطلاسم .. ». [4]

---

1 – جون سيرل : العقل واللغة والمجتمع ص 218 .

2 – عبد بن باديس: المصدر السابق ، مج 3 ، ص 22 .

3– المصدر نفسه ، مج 3 ، ص 196 .

4 – المصدر نفسه، مج 3 ، ص 424 و ص 425 .

ومن النماذج التي وردت في المجلد الرابع:

– النموذج الرابع: "فاتحة السنة الخامسة عشرة": « ...هذا وإننا نجدد العهد بيننا وبين قرائنا على السير على ما عرفوه فينا من صدق وصراحة وقصد للخير ... ». [1]

4- التعبيريـــات:

وغرضها الإنجازي هو التعبير عن بعض الانفعالات النفسية ومن نماذجها الاعتذار والشـــكر والتهنئـــة والتعزية والترحيب وشرط الإخلاص فيها هو الصدق " بيد أن شرط الصدق في التعبيريات يتغير مع تغير نمـــط التعبير. وهكذا فالاعتذار صادق إذا كان المتكلم يشعر بالأسف فعلا عما يعتذر عنه...". [2]

ولا يخضع هذا الصنف لاتجاه مطابقة بين العالم والكلمات .

ومن المضامين الإصلاحية التي وردت ضمن هذا الصنف نذكر من **المجلد الثالث:**

– النموذج الأول: " حول كلمتنا الصريحة":

« لقد أحدثت الكلمة الصريحة التي نشرناها بالعدد الأسبق من الشهاب أثرها المطلـــوب ، وكـــان لهـــا الدوي العظيم الذي كنا نتوقعه لها ، فتلك كانت أول مرة فيما نعلم ، جوبهت فيها الحكومة وجوبه فيهـــا رجال السياسة بحقيقة ، هي عين الحقيقة التي تعتقدها الأمة ، وفيها بيان لعواطـــف وإحســـاس وشـــعور الأغلبية المطلقة من سكان هذا الوطن الجزائري ، فأما الذين طهرت سريرتهم وخلصت نيتهم ، فقد حبذوا وشكروا لنا صراحتنا وحمدوا لنا هذا الموقف الذي وقفناه ضد محاولات التجنيس الخائبة ... ». [3]

– النموذج الثاني: "سياسة وخز الدبابيس":

« لا ننكر أننا من المعجبين بالآداب الفرنسية، ولا ننكر أننا مع المعجبين فوق ذلك بالصحافة الفرنســـية الكبرى ،ومالها من بديع نظام، ومهرة أقلام، وجرأة وإقدام ، لهذا يؤلمنا ويزعجنا ويمـــلأ أنفســـنا حســـرة وإشفاقا أن نرى الآداب الفرنسية وأن نرى الصحافة الفرنسية الكبرى تنحط أحيانا إلى دركة الهذر واللغو والسخافة، وتنغمس في حمأة التعصب الممقوت المظلم فتنكر على غيرها ما تستحسنه لنفسها ... ». [4]

1- المصدر نفسه، مج 4 ، ص 362 .

2 – جون سيرل : العقل واللغة والمجتمع ، ص 219 .

3 – عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج3، ص186.

4 – المصدر نفسه، مج 3 ص 273 .

– النموذج الثالث: "مبادؤنا وغايتنا وشعارنا":

« وإننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلا ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا ونحب من يحبه الإنسانية ويخدمها ونبغض من يبغضها ويظلمها ... ».[1]

ومن التعبيريات التي ورت في **المجلد الرابع** نذكر:

– النموذج الرابع: "محاضرة الأستاذ عبد الحميد بن باديس: الحركة العلمية والسياسية في القطر الجزائري الشقيق" [2].

« ... وقد قوبلت المحاضرة والقصيدة بعواصف من التصفيق والهتاف ... وما كاد الأستاذ المحاضر ينتهي من كلامه حتى وقف الشاب الأديب السيد الشاذلي المكي رئيس جمعية الطلبة الجزائريين بتونس وقال : لئن اعتاد الخطباء شكر المحاضرين بعد انتهائهم من محاضراتهم فأنا قد اعتدت بأثر كل محاضرة لأستاذي العزيز الشيخ عبد الحميد بن باديس أن أضع على جبينه قبلة حارة ... فكان ذلك ودوت القاعة بالتصفيق والهتاف المتواليين» .

– النموذج الخامس: "فاجعة قسنطينة":

« ... صبيحة السبت قابل وفد المسلمين عامل العمالة ودار الحديث في الحوادث التي وقعت ورأينا من عاملنا الجديد رجلا يحمل روحا فرنسية لطيفة ويتحلى بآداب الموظف العالي. أبدى تأسفه أن وجد قسنطينة أول قدومه في هذه الفاجعة ... ».[3]

5– الإعلانيات:

وغرضها الإنجازي" إحداث تغيير في العالم" [4] واتجاه المطابقة يكون مزدوجا من العالم إلى الكلمات ومن الكلمات إلى العالم ومن الأفعال المعبرة عن هذا الصنف: أعلن، طرد، استقال، عين ...

ومن المضامين الإصلاحية التي تندرج ضمن هذا الصنف نذكر من المجلد الثالث:

– النموذج الأول: "بيان عن هلال شوال: من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى المسلمين الجزائريين.":

---

1 – المصدر نفسه، مج 3 ، ص 254 .

2 – المصدر نفسه، مج 4 ، ص 327 .

3 - المصدر السابق، مج 4 ، ص 48 .

4 - جون سيرل : العقل واللغة والمجتمع ، ص 219 .

« ... ولما تحملنا هذه الشهادات قمنا فذهبت إلى فضيلة قاضي قسنطينة الشيخ محمد بن الساسي فأدينا عنده الشهادة ... فأصدر حكمه بدخول شهر شوال بالأحد، وأعلن ذلك للناس. وتولت هيئة جمعية العلماء توزيع الخبر بالبرقيات والتلفونات – كعادتها – على أنحاء القطر » . [1]

– النموذج الثاني: "المجلة الزيتونية":

« ... كانت أول دعوة للإصلاح الإسلامي أعلنت في هذا الشمال الإفريقي على لسان الصحافة ... حتى جاء هذا العام المبارك فجاءت المجلة الزيتونية تعلن الإصلاح وتحمل رايته ... ». [2]

ومن نماذج الإعلانيات في المجلد الرابع:

– النموذج الثالث: "لا أثر للعبودية مع الأحرار":

« ... جازى محمد – صلى الله عليه وسلم وآله وسلم – زيدا على اختياره له على أبيه وعمه وأهله فأعلن بتبنيه فصار يدعى زيد بن محمد حتى أبطل الله التبني ... » .[3]

– النموذج الرابع: "سعد بن الربيع – رضي الله عنه":

« ... وكان سعد أكثرمن الأنصار مالا وكان متزوجا امرأتين فرأى من حق هذه الأخوة بينه وبين أخيه المهاجري أن يشاطره ما عنده فقال لعبد الرحمن : « إني أكثر الأنصار مالا فأقسم لك نصف مالي وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها فإذا حلت تزوجتها ... ».[4]

ثانيا: علاقة ترتيب الأفعال الكلامية بمضامين الخطاب الإصلاحي لدى ابن باديس

انطلاقا من هذا التصنيف يمكننا أن نقوم بعملية إحصاء لعدد الخطب الواردة في المجلدين الثالث والرابع التي تندرج ضمن كل صنف من الأصناف السابقة للأفعال وذلك من خلال الجدول الآتي:

الأفعال الكلامية / المدونة	الإخباريات	التوجيهات	الإلزاميات	التعبيريات	الإعلانيات
المجلد الثالث	961	728	151	246	47
المجلد الرابع	822	332	30	120	16

[1] عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج 3 ، ص 48 .

[2] المصدر نفسه، مج 3 ، ص 111

[3] المصدر السابق، مج 4 ، ص 266 .

[4] المصدر نفسه، مج 4 ، ص 80 .

يتبين لنا من خلال الجدول الموضّح أعلاه أن الإخباريات تحوز على المرتبة الأولى في المجلدين معا، وهذا يدل على أن خطاب عبد الحميد بن باديس كان خطابا إخباريا تقريريا بامتياز، وتأتي التوجيهات في المرتبة الثانية لتليها بعد ذلك التعبيريات ثم الإلتزاميات وأخيرا الإعلانيات ومن ثمة يكون ترتيب الأفعال الكلامية في المدونتين كالآتي:

01	02	03	04	05
الإخباريات	التوجيهيات	الإلزاميات	التعبيريات	الإعلانيات

وسنعمد – بإيجاز – إلى توضيح علاقة هذا الترتيب بالمضامين الإصلاحية لابن باديس.

1– الإخباريات:

احتلت مركز الصدارة في الخطاب الإصلاحي نظرا لما تتضمنه من معنى التقرير الذي يهدف إلى وصف وقائع العالم الخارجي، ويصبح المتكلم من هذه الزاوية مسؤولا عن صحة أو عدم صحة ما ينقله من أخبار وأحداث.

و بما أن هذا الصنف من الأفعال تكون فيه المطابقة من الكلمات إلى العالم ، فإن المقام يتطلب ذلك لأن منتج الخطاب يتمثل في شخص العلامة عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الحديثة في الجزائر ، الذي حاول أن يصور الواقع البائس لمجتمعه إبان فترة الاحتلال بريشة الفنان المبدع الحاذق بصنعته، فحملت مضامينه الإصلاحية حزمة من الأخبار والأحداث غرضها الإنجازي التأثير في كل فئات الشعب الجزائري من جهة ولإيصال صوت الجزائر إلى أبعد الآفاق من جهة أخرى .

حيث وظف الكاتب جملا خبرية بسيطة في ظاهرها عميقة في دلالاتها ، ومن ثم كان من المنطقي أن تشغل الإخباريات حيزا كبيرا على خارطة الخطاب الإصلاحي .

2– التوجيهيات :

وغرضها الإنجازي حمل المخاطب على القيام بأمر ما أو الكف عنه في المستقبل، والسياق الكلامي يتطلب هذا الصنف من الأفعال من أمر ونهي واستفهام ونداء وهي أساليب تندرج ضمن ما يعرف في تراثنا العربي القديم باسم " الأساليب الإنشائية " أو كما أطلق عليها أوستين " الأفعال الأدائية،

وبما أن الكاتب حمل على عاتقه مسؤولية إصلاح المجتمع، وتغيير ما يمكن تغييره من فساد ،فكان من المنطقي أن يوظف هذه الأساليب لتحقيق مقاصده باعتبار أن كل فعل كلامي يقوم على قصدية معينة .

3- التعبيريات :

تصدّرت التعبيريات المرتبة الثالثة، وغرضها الإنجازي هو التعبير عن حالة شعورية مثل الشكر والاعتذار والتهنئة وقد وردت هذه الانفعالات النفسية في المدونتين بنسب متفاوتة ويعبر هذا الصنف من الأفعال عن مدى صدق وإخلاص العلامة في معاملاته وتواصله مع الآخرين في مختلف المناسبات، وهذا ما جعل خطابه يصطبغ بصبغة تداولية .

4- الالتزاميات :

تبوأت الالتزاميات المرتبة الرابعة، والغرض الإنجازي منها هو حمل المتكلم على عاتقه مسؤولية القيام بفعل ما للمخاطب .

ونلاحظ أن الالتزاميات في المدونتين لا تتعلق بشخص عبد الحميد بن باديس وحده، بل تتعلق أيضا بجمعية العلماء المسلمين كهيئة نصبت نفسها للذود عن حمى الإسلام والعروبة .

5- الإعلانيات :

ورد هذا الصنف من الأفعال في مرتبة متأخرة مقارنة بالأفعال الأخرى، فسجلت بذلك حضورا ضئيلا نوعا ما في المدونتين وهذه الأفعال لا تحتاج إلى شرط الإخلاص إنما تهدف إلى تغيير الواقع.

وبعد ما فرغنا من تحديد طبيعة العلاقة التي تربط أفعال الكلام بالمضمون الإصلاحي.

ثالثا- تحليل النماذج المختارة في المدونتين:

1 – الإخباريات:

أ- عنوان الخطبة : " يتكلمون بما لا يعلمون ":

يقول عبد الحميد بن باديس: "إن الجاهل بالشيء جاهل به ولو كان من أعلم الناس بغيره، وما علمه بما علم برافع جهله فيما جهل، إن هذه لحقيقة من الوضوح بمكان، ولكن يحتاج إلى تكرار ذكرها بقدر ما يتكرر من وقوع مخالفته. إن الناس قسمان: الجاهلون بكل علم ، والعالمون

وليس منهم من يعلم كل علم. ومن العجيب أن أهل الجهل أعرف بجهلهم فلا يتكلمون فيما لا يعلمون. وأما أهل العلم فكثير منهم يتجاوزون حدود علمهم فيتكلمون بما لا يعلمون. فكأن الجاهلين آيسو من العلم ولم تكن لهم شبهة فأحجموا وكأن هؤلاء اغتروا بما عندهم فقالوا فيما غاب عنهم فأقدموا، وذلك هو الغرور المبين.

قد لا أكون أنا كاتب هذه السطور سالما من هذا العيب، ولكن ذلك لا يمنعني من أن أذكره لأحذره وأحذر منه، خصوصا إذا رأيت شره قد مس العزيزين علي: ديني، ووطني، وقد رأيت ذلك هذه الأيام من ثلاث جهات فأردت أن أعرض لها في هذا الفصل ...

ليعلموا – أولا – أن كاتب هذه السطور وبني دينه وجلدته يحترمون جميع الأجناس البشرية، ويقدرون الحق والعدل في جميع القوانين الأممية، ويدعون لهؤلاء السادة وما اختاروه لأنفسهم، غير أنهم ينكرون هذه الدعاية العريضة التي يتقول فيها على الإسلام بغير علم ويرمي فيها علماءه بالجهل والتعصب والجمود ... ».[1]

وقبل الشروع في تحليل التشكيلة اللغوية لهذه الخطبة، يجدر الإشارة إلى أن نظرية الفعل الكلامي تشكل مفهوما جوهريا في صلب البحث التداولي، حيث يعتبر **سيرل** الفعل الكلامي هو الوحدة الصغرى للتواصل الإنساني بدل الجملة، [2] مما ساعد هذا على تغيير نظرة الباحثين للغة وطريقة التعامل معها، ويتجلى ذلك من خلال تجاوز المنظور البنوي التقليدي الذي حصر اللغة في بوتقة ضيقة.

ففتحت نظرية أفعال الكلام آفاقا واسعة للبحث اللساني، بما وفّرته من أدوات قرائية جديدة ومغايرة لتحليل أنواع الخطابات، فصار ينظر إلى اللغة على أنها وسيلة للتواصل والتفاعل والتأثير بعد أن كانت جسما ميتا لا حراك له .

وتحظى هذه النظرية باهتمام الدارسين من مختلف التخصصات « فعلماء النفس يرون اكتسابها شرطا أساسيا لاكتساب اللغة كلها ، ونقاد الأدب يرون فيها إضاءة لها تحمله النصوص من فروق دقيقة في استعمال اللغة وما تحدثه من تأثير في المتلقي والأنثربولوجيون يأملون أن يجدوا فيها تفسيرا للطقوس

---

1 –عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج 3 ، ص 09 و 11 .

2- جون سيرل :العقل واللغة والمجتمع،ص202

والرقى السحرية ،والفلاسفة يرون فيها مجالا خصبا لدراسة علاقة اللغة بالعالم ، واللغويون يجدون فيها حلولا لكثير من مشكلات الدلالة والتراكيب ، وتعليم اللغة الثانية ، أما في الدرس التداولي فإن الأفعال الكلامية تظل واحـــــــــدا من أهـــــــــم المجالات فيه، إن لم يكن أهمها جميعا ».[1]

وبما أن الفعل يشكل مقوما أساسيا في جميع اللغات، وهو ركن رئيسي من بين الأركان الـــتي تعمل على بناء الجملة العربية، والذي أطلق عليه النحاة اسم المسند، فإننا سننعم النظر في هذا العنصـــر اللغوي الذي حظي باهتمام الدارسين قديما وحديثا.

ونشير تحديدا إلى أن زمن الأفعال في هذا النموذج الفني "**يتكلمون بما لا يعلمون** " قســـم إلى أقسام تقليدية درج عليها النحاة منذ القديم تتراوح بين الماضي والمضارع والأمر، أو ما يطلق عليه عبد المالك مرتاض بـــ " التعامل التقليدي مع الزمن " وفي هذا السياق يشير إلى أن : « من العسر على أي مبدع أن لا يتعامل مع الزمن تقليديا ، لأننا، مهما حاولنا الندود عن هذه السيرة ، لا ريب واقعون في فخ التقليدية ... » .[2]

ونلاحظ أن الأفعال التي تضمنها هذا النموذج هي : {يتكلمون ، لا يعلمون ، كان ، علـــم ، جهـــل ، يحتاج ، يتكرر ، يعلم ، لا يتكلمون ، لا يعلمون ، يتجاوزون ، يتكلمون ، لا يعلمـــــون ، آيسوا ، لم تكن ، أجحموا ، اغتروا ، قالوا ، غاب ، أقدموا ، لا أكون ، لا يمنعني ، أذكره ، أحذره ، أحـــــذر ، رأيت ، مس ، رأيت ، أردت ، ليعلموا ، يحترمون ، يقـــدرون ، يـــدعون ، اختـــاروا ، ينكرون ، يتقول ، يرمي} .

ما نستخلصه من– الوهلة الأولى –هو هيمنة الأفعال على حساب الأسماء، بالإضافة إلى هيمنة الفعل الماضي والمضارع على حساب الأمر. وسيطرة الأفعال يضفي على هذا النموذج نوع من الدنيامكيـــة والحركية فتخرج اللغة من حالة الجمود والسكون إلى حالة التجدد والتغير، لتصبح بذلك قوة حية فاعلة

---

1 – محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 41 .

2 – عبد المالك مرتاض : بنية الخطاب الشعري دراسة تشريحية لقصيدة " أشجان يمانية "، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دط، دت، ص110 .

ومؤثرة في المتلقين، وهذا ما تهدف إليه التداولية بوجه عام و نظرية أفعال الكلام بوجه خاص، وسنصنف الأفعال في الجدول كالآتي :

زمن الفعل	الفعل
الماضي	كان، علم، جهل، آيسوا، أحجموا، اغتروا، قالوا، غاب، أقدموا، مس، رأيت، اختاروا.
المضارع	يتكلمون ، لا يعلمون ، يحتاج ، يتكرر ، يعلم ، لا يتكلمون، لا يعلمون، يتجاوزون ، يتكلمون ، لا يعلمون ، لم تكن ، أكون ، لا يمنعني ، أذكره ، أحذره ، أحذره ، أن أعرض ،يحترمون ، يحترمون ، يقدرون ، يدعون ، ينكرون ، يتقول ، يرمي .
الأمر	ليعلموا

أما عن عدد الأفعال فسنوضحه كما يلي :

زمن الفعل	الماضي	المضارع	الأمر
العدد	14	23	01
العدد الإجمالي	38		

نلاحظ أن العدد الإجمالي للأفعال بلغ ثمانية وثلاثين فعلا والأفعال التي تكررت نجد (**علم** "مرة واحدة"، **لايعلمون** " 3 مرات"، **يتكلمون** وردت مثبتة "مرتين "، ومنفية "مرة واحدة ")، (رأيت تكررت مرتين)، (قالوا ، يتقول) ، (أكون ، لم تكن ، كان) ، (أحذر ، لأحذر).

يوحي تكرار هذه الأفعال الماضية والمضارعة وبصيغ مختلفة إلى تنوع وثراء لغوي سواء على مستوى البنية أو الدلالة.

ويحمل هذا التنوع بعدا تداوليا عميقا إذ لا يشعر معه المخاطب الحقيقي أو المفترض بالضجر أو الملل أو الرتابة .

واشتمال هذا النموذج الفني على هذه الأقسام الثلاثة من الأفعال يدل على تعدد أغراض الكاتب ومقاصده.

وينصرف الفعل الماضي إلى **سرد وتقرير** أحداث ماضية بغية الإعلام والإخبار من خلال توظيف جمل خبرية تقريرية مثل قوله : « كان من أعلم الناس ، وما علمه بما علم برافع جهله فيما جهل، آيسوا من العلم ، أحجموا ، اغتروا ، أقدموا ، رأيت شره قد مس العزيزين علي إلخ ... » .

حيث اعتمد الكاتب على هذه الجمل الخبرية لتقرير حقائق تتعلق بأحوال الجاهل والعالم معا.

فالأخبار والتقرير والسرد هي كلها أفعال إنجازية والقوة المتضمنة فيها هي سوق أخبار لإفادة المخاطب أمرا كان يجهله ، أو لتثبيت ما يعلمه أو لتأكيد ما هو متشكك فيه أو لتذكيره بما غاب عنه .

وتحمل القوة الإنجازية للأفعال الماضية أغراضا عديدة دل عليها مقام التخاطب وهي: الإخبار، السرد ، الإعلام ، التأكيد ... وهي كلها أفعال كلامية جزئية تنطوي تحت فعل كلامي شامل هو التقرير.

أما فيما يخص الفعل المضارع الوارد في هذا النموذج فقد خلص إلى وصف الحال والوصف بشكل عام أدرجه سيرل ضمن صنف التقريريات، لأن ابن باديس بصدد وصف طبقات متباينة داخل مجتمعه وسنوضح ذلك من خلال المخطط :

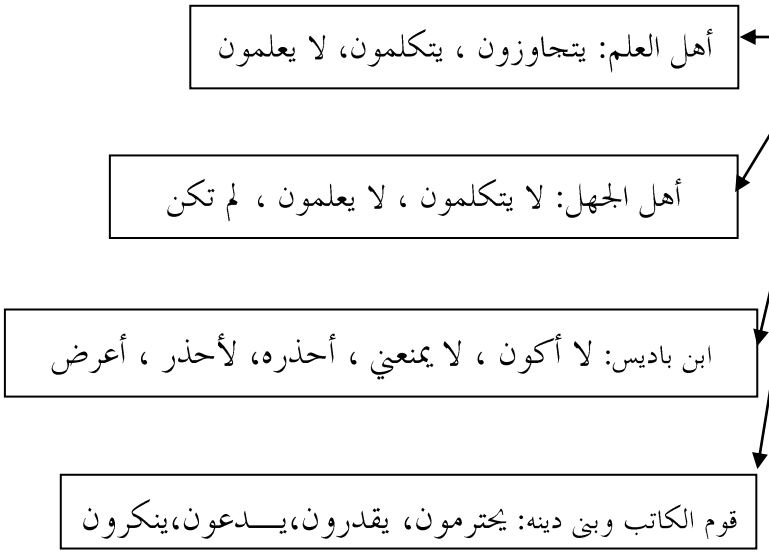

نلاحظ أن الفعل المضارع نال حظا أوفر إذ بلغت نسبة تواتره 60,52% مما يدل على أن الكاتب بصدد معالجة قضية هي " حديث الساعة "، ومرتبطة تحديدا بعصره وما ساده من مغالطات ،

وتضليل للعقل البشري حتى يحيد عن جادة الصواب، ولنمعن النظر في عنوان هذا النموذج " **يتكلمون بما لا يعلمون** "، نجد أن العنوان قد تركب من فعلين مضارعين الأول مثبت والثاني منفي .

وبما أن العنوان « ...يمدّنا بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته، ونقول هنا :أنه يقدم لنا معونة كبرى لضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه، إذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه...» .[1] فإننا في المقابل نجد أن النص هو« ... تمطيط للعنوان ، فمضمونه العدمي يتجلّى في النص جميعه ويسري بين جزئياته ...».[2]

وسنوضح كيف يسهم العنوان في التناسل الدلالي للنص، أو بعبارة أخرى كيف يكون النص تمطيطا للعنوان ؟ من خلال الرسم التوضيحي الآتي:

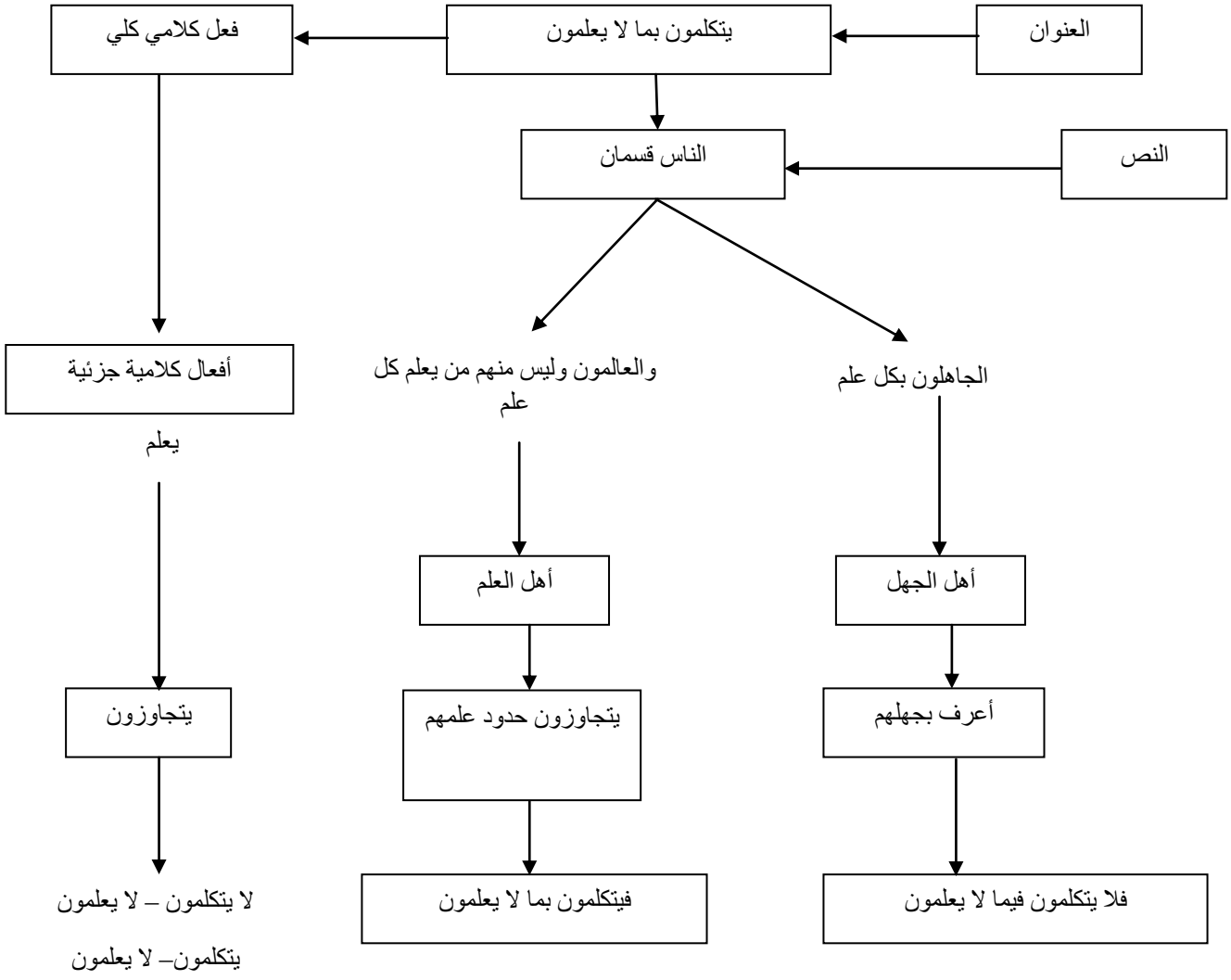

(1) محمد مفتاح : دينامية النص (تنظيرا وإنجازا) المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط3 ، 2006 ، ص72 .

(2) المرجع نفسه ، ص 161 .

يتّضح من المخطط السابق أن العنوان " **يتكلمون بما لا يعلمون** " يُمثّل **فعلا كلاميا مركزيا** تتدرج تحته مجموعة من **الأفعال الكلامية الجزئية** تدرجا منطقيا، وهذا ما يحقق انسجامية مميزة لهذا الخطاب من خلال ربط أول خيط له بآخره ، كما يتوافق هذا مع التوجهات اللسانية الحديثة في تحليل النصوص (على ضوء نظرية أفعال الكلام)، إذ يرى فان دايك أن : « ... الدراسة التداولية للنصوص تستند إلى تأويل للنص بوصفه فعلا للسان أو بوصفه سلسلة من أفعال اللسان » [1]

وهذا ما يحفز اللسانيين على التعامل مع النص على أنه فعل كلامي كبير من أفعال اللسان.

وبناء على ما سبق نلاحظ أن ابن باديس قد أحكم هندسه بناء هذا الخطاب ، إذ استخدم مقدّمات عقلية في بداية طرحه الخطابي كمسلمات للوصول إلى النتيجة التي انطلق منها، فكان العنوان ملخصا لمضمون النص .

وإذا عدنا مرة أخرى لتحليل بنية هذا النموذج نجد طائفة أخرى من الأفعال مسندة إلى ضمير المتكلم في الزمن الحاضر، تحيل إحالة مباشرة إلى صاحب النص، حيث أطلق عليها **أوستين** في المراحل الأولى من نظريته اسم الأفعال الأدائية وهي:

" لا أكون – لا يمنعني – أذكره – أحذره – لأحذرمنه – أردت – أعرض لها ... "، وتفيد قوتها الإنجازية التذكير (أذكره) ، التحذير (لأحذره) ، التوضيح (أعرض له) ... .

وتكشف هذه الأغراض المعبّر عنها بواسطة هذه الأفعال عن مقصدية صاحب النص يقول سورل « حين يؤدي المتكلم فعلا كلاميا ، فإنه يفرض قصيدته على هذه الرموز ... فحين يقول المتكلم شيئا ويعني آخر ، فإنه يؤدي فعلا قصديا ويكون إنتاجه للأصوات جزء من شروط إشباع هذا القصد في صنع المنطوق » .[2]

والسؤال المطروح في هذا المقام : ما الذي يريد ابن باديس أن يذكر به أو يحذر منه أو يوضحه ؟

1_ نون فان ديك : النص بنى ووظائف ضمن كتاب العلاماتية وعلم النص لمنذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004 ، ص 171 .

2- جون سيرل : العقل واللغة والمجتمع ، ص 208 .

تفرض علينا الإجابة عن هذا السؤال إعادة قراءة وتأمل مضامين الخطاب الإصلاحي لابن باديس وإعادة رصد أهدافه .

فقد تأسست فلسفته الإصلاحية على النزعة العلمية الصحيحة والمستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث استوحى منهما الكاتب منهجه في الدعوة والإصلاح وفي هذا السياق يشير أحد الباحثين إلى أن: « ... مرجعية النزعة العلمية عند ابن باديس أساسها الإسلام الذي يجعل كل شيء مقدر من قبل الخالق عز وجل ، وله سنن كونية أودعها هذا الكون فلا تتبدل ولا تتأخر ... وغاية الإنسان هي إدراك هذه السنن والسير والانتظام مع حركتها حتى يتحقق التناسق الحركي بين الإنسان – وهو جزء من الكون – وباقي أجزاء الكون من جماد وحيوان ، وبذلك يكون التناغم بين مكونات هذا الكون الذي به تكون سعادة الإنسان في الدنيا بانتفاء التعارض والتصادم مع أسس الفطرة البشرية السليمة ، وتكون سعادته في الآخرة بطاعته لربه في اتباعه شرعه وقرآنه .هذه هي الفلسفة التي انطلق منها ابن باديس في اعتبار العلم أساس كل عمل ناجح ، فهو يقدم العلم على العمل ويقدم العمل على القول[1]» .

يفهم من الطرح السابق أن ابن باديس يهدف من وراء مخططه الإصلاحي إلى نشر العلم الصحيح والنافع المستمد من كتاب الله وسنة رسول الله،كما يهدف إلى محاربة الجهل الذي ضرب بأطنابه على المجتمع الجزائري عقودا من الزمن حيث ساعدت على نشره فئتين ضالتين هما : فئة الجهلة وفئة المتعيلمين.

لذا حاول صاحب الأثار أن يحذر من شر هاتين الفئتين، وهذا ما حذا به لتوظيف الأفعال المضارعة الآتية: أحذر، لأذكره ،لأعرض، وهي كلها أفعال إنجازية تصور الوضع الراهن للمجتمع الجزائري، وما ساده من مغالطات وتجهيل.

فقد تعاضدت دلالة الأفعال المضارعة مع دلالات الفعل الماضي في هذا السياق لتعبر قوتهما الإنجازية عن المقاصد التداولية لابن باديس والمتخفية وراء هذا الستار اللغوي، والمتمثلة أساسا في التصدي لكل انحراف عقدي ونشر تعاليم الدين الصحيحة و العلوم المفيدة.

---

(1) عمار بن مزوز: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح ، ص 86 .

أمّا فيما يخص فعل الأمر فحضوره كان ضئيلا جدا مقارنة بباقي الأفعال الأخرى، ذلك أن المقام هو مقام " إخبار وسرد ووصف " وهذه الأغراض لا تستدعي هذا النوع من الأفعال ماعدا فعل الأمر في قوله : " ليعلموا " وقد عبر عن قصد تداولي تمثل في لفت انتباه المخاطب إلى **الأثر الناتج** عن شر الفئتين السابقتين (أهل الجهل – وأهل العلم الذين يتكلمون بما لا يعلمون) .

فالإدّعاء على الإسلام بغير ما فيه ، وتوجيه أصابع الاتهام لعلمائه ورميهم بالجهل والجمود والتعصب كل هذه الافتراءات تمثل **الفعل الناتج** عن جميع الأفعال الكلامية الجزئية التي سبق الإشارة إليها أثناء تحليل هذا الخطاب .

فهذه الأوضاع وغيرها دفعت ابن باديس المصلح والمرشد والمربي والواعظ إلى وضع إستراتيجية خطابية تهدف إلى محاولة تغيير سلوكات الأفراد وتصحيح مفاهيمهم وإعادة تشكيل ذهنياتهم بما يتلاءم والتوجهات العلمية الصحيحة المستمدة من النبع الصافي (الكتاب والسنة)، وهذا يفضي إلى أن التداول اللغوي يخضع لسلطة المجتمع كيف لا ؟ وقد أصبحت « ... الكلمة مولدا للفعل الذي هو الاستهلاك وتحولت القناة التواصلية إلى رسالة تشكل العقل والسلوك ... » .[1]

ويمكن أن نلخص مجمل الأفعال الكلامية الواردة في هذا النموذج كالآتي:

1_ بلقاسم مالكية : كلام بكلام التداولية من منظور بخلاء الجاحظ مجلة الآثر : عدد خاص بأشغال الملتقى الدولي الرابع حول تحليل الخطاب ورقلة أيام : 17-18-19 فيفري 2009 ، ص 261 .

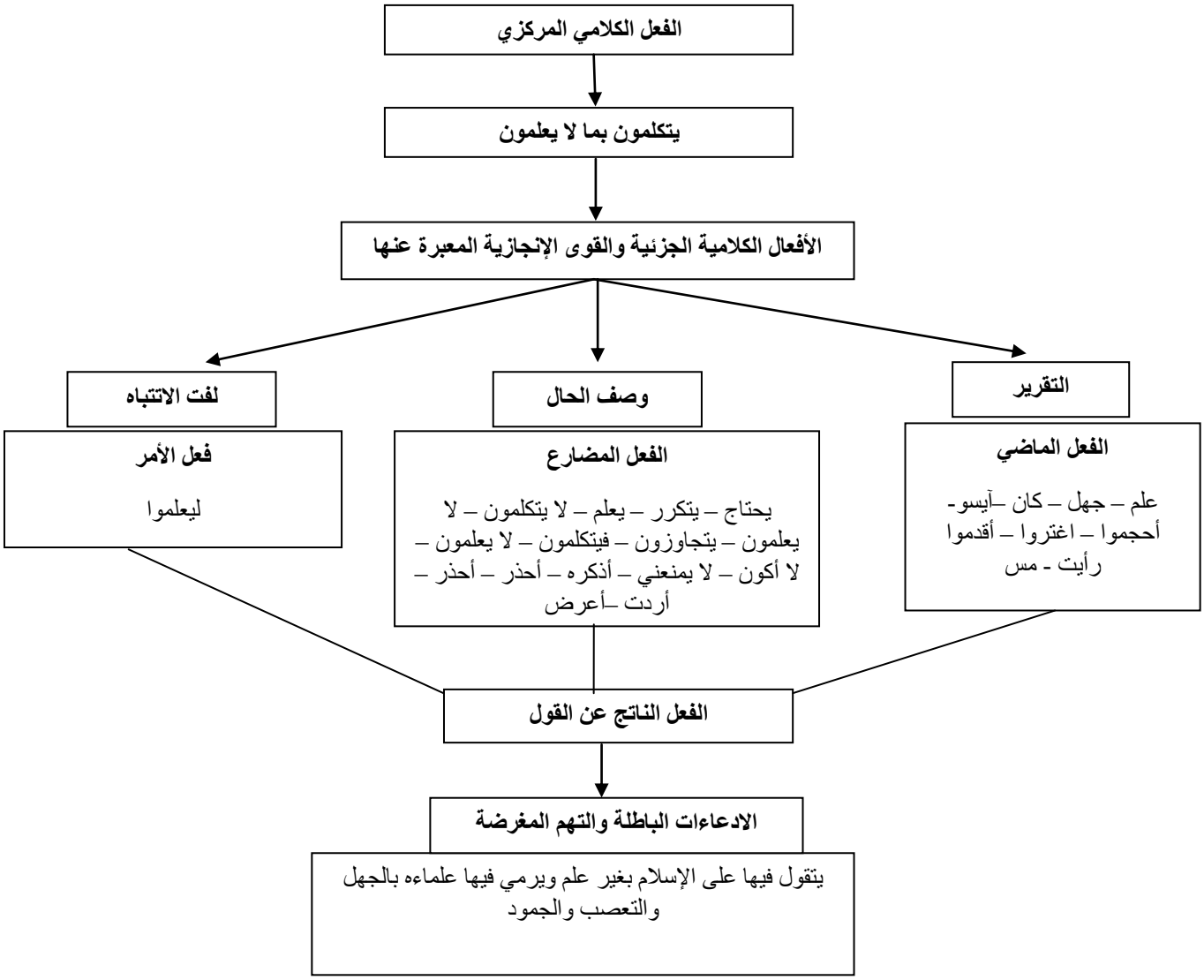

واستنادا إلى نظرية أفعال الكلام فإن الفعل الكلامي المركزي أو الفعل الجامع الذي سيطر على بنية هذا الخطاب هو التقرير .

وتدل هذه السلسلة من الأفعال الكلامية على جملة من المقاصد المعلنة وغير المعلنة لابن باديس نكشفها عنها كما يلي :

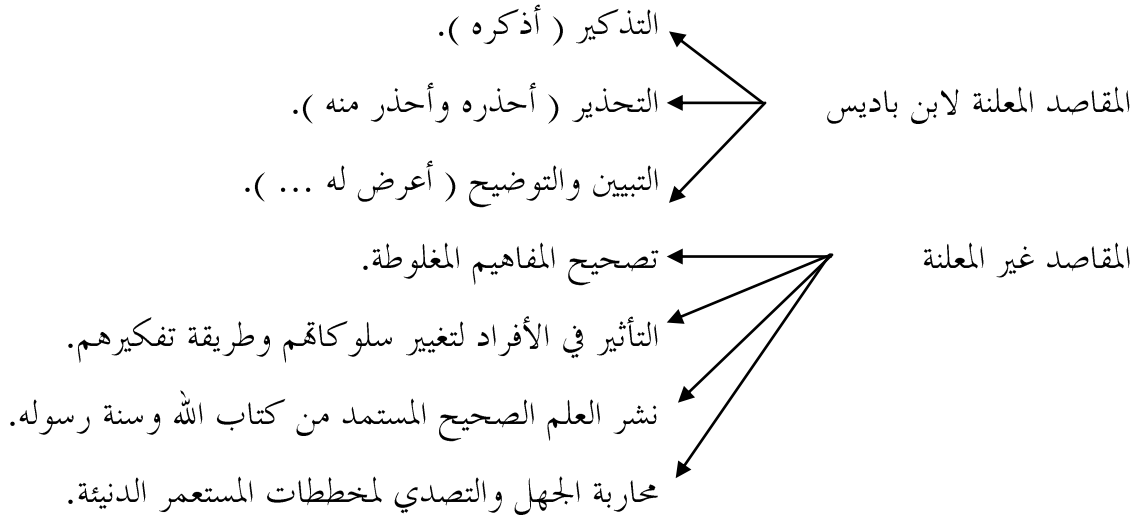

بناء على ما سبق نلاحظ أن هذا النموذج الخطابي يشكل نسيجا مترابطا ومتلاحما بفضل تـــرابط وتلاحم العناصر اللغوية المشكلة له، ونقصد تحديدا الأفعال في تنوعها تبعا لتنوع مقاصد ابـــن بـــاديس ،ومن هذا المنظور يمكننا أن نتعامل مع هذه الأفعال على أنها مجرات متتابعة تمثل بتضافرها شبكة مـــن العلاقات النحوية الدلالية والتداولية التي بفضلها يحقق هذا النموذج الفني انسجامه وتفرده .

وإذا ما تأملنا النسق العام لهذا النموذج نجد أنه تـــتحكم في بنيتـــه العميقـــة **la structure profonde** مجموعة من العلاقات الدلالية المنطقية عبرت عنها علاقة السبب بالنتيجة ،وتجسدها على مستوى البنية السطحية **la structure surface** جملة من الأفعال الكلامية المطروحة في فضاء هـــذا النص التي يمكن أن نعدها بمثابة مقدمة للنتيجة المطروحة في آخر النموذج، ومن ثمة يمكن أن تعد هـــذه المقدمة والنتيجة خبرا.

وسنوضح علاقة المقدمات بالنتائج (علاقة الأسباب بالنتائج) من خلال الجدول الآتي:

السبب	نتيجة تتحول إلى سبب	نتيجة
أهل الجهل أعرف بجهلهم ←	فلا يتكلمون فيما لا يعلمون	
– أهل العلم فكثير منهم يتجاوزون	فيتكلمون بما	يتقول فيها على الإسلام
حدود علمهم ←	لا يعلمون	بغير علم ويرمي فيها
فكأن الجاهلين آيسوا من ←	فأحجموا ←	علماءه بالجهل والتعصب
العلم و لم تكن لهم شبهة فيه .		والجمود
وكأن هؤلاء اغتروا بما ←	فقالوا فيما غاب عنهم فأقدموا	
عندهم		

تسهم هذه العلاقة الدلالية (علاقة السبب بالنتيجة) في ربط أجزاء الخطاب " مما يضفي معقولية لكيفية تتابع قضايا النص ووسمها بسمة منطقية ». [1]

حيث شكّلت هذه العلاقة حضورا قويا في هذا النموذج من خلال سلسلة الأفعال الكلامية الجزئية التي عبّرت عنها.

بالإضافة إلى اعتماد الكاتب أدوات التأكيد (إن – أنّ – كأن ...)،كما في قوله "إن الجاهل"، "إن هذه لحقيقة" ، "إن الناس "، "فكأن الجاهلين آيسوا"، والتأكيد بصفة عامة يدرجه اللغويون المعاصرون ضمن الإخباريات لأنّه يعمل على تثبيت المعنى في ذهن السامع وتقويته.

فالمتكلم هو عبد الحميد بن باديس ، المصلح والمجدد والمخلص لدينه ووطنه ، وما عرضه من قضايا كان من أجل خدمة (دينه ووطنه) فاتجاه المطابقة كان من الكلمات إلى العالم ، وشرط الإخلاص متحقق .

حيث جمع هذا المصلح بين رغبة التغيير وبراعة التصوير في خطاب هو أقرب للغة العادية أو المتداولة وهذا النوع من الخطابات يراهن عليه الكثير من فلاسفة اللغة في العصر الحديث.

1– حسام أحمد فرج: رؤية منهجية في بناء النص النثري ،ط1 ص143

ففي كل نموذج من النماذج المختارة كعينات للدراسة يمكن أن نرصد قوة إنجازية للفعل تعبر عن مضمون إصلاحي معين ، وتنطوي على مقاصد محددة تتعلق بصاحب الآثار (ابن باديس) وهذا ما سنحاول كشفه من خلال النموذج اللاحق .

ب- عنوان النموذج: " لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ":

« من المعلوم عند أهل العلم أن مما حفظ الله به دينه وأبقى به حجته أنه لا تنقطع الدعوة إلى الله في هذه الأمة والقيام على الحق والإعلان بالسنن والرد على المحرفين والمتغالين والزائغين والمبتدعين وأن أهل هذه الطائفة معروفة مواقفهم في كل جيل محفوظة آثارهم عند العلماء غير أن غلبة الجهل وكثرة أهل الضلال قد تحول دون بلوغ صوتهم إلى جميع الناس فترى أنصار الباطل كلما قام داع من دعاة الحق في ناحية اعترضوه بسكوت من سكت ممن كان قبله وأوهموا أتباعهم المغرورين بهم أن هذا الداعي جاء بدين جديد ...»

يتضمن هذا النموذج الأفعال الآتية :لا تخلو – حفظ – أبقى – لا تنقطع – قد تحول – فترى – قام – اعترضوه – سكت – كان – أوهموا – جاء.

نسجل من خلال هذا النموذج حضورا بارزا للفعل الماضي والمضارع وسنوضح ذلك من خلال الجدول الآتي:

الفعل الماضي	الفعل المضارع	الأمر
حفظ	لا تخلو	
قام	أبقى	
اعترضوه	لا تنقطع	
سكت	قد تحول	
كان- أوهموا	فترى	
جاء		

يسيطر الفعل الماضي والمضارع على بنية هذا الخطاب وفي المقابل نسجل غياب فعل الأمر، ويعود سبب ذلك إلى أن سياق التخاطب لا يستدعي مثل هذا النوع من الأفعال، لأن المقام هو مقام إخبار وتقرير.

وتضفي الأفعال (الماضية والمضارعة) على النسق العام لهذا الخطاب نوعا من الديناميكية والحيوية، مما يوحي بأن هناك تفاعلا تواصليا بين منتج الخطاب ومتلقيه .

وتخرج بعض الأفعال عن دلالتها الأصلية التي وضعت لها، لتعبر عن دلالات أخرى يحددها السياق.

فالفعل الماضي: " حفظ " على سبيل المثال وإن دلت صيغته الصرفية على الماضي إلا أن السياق اللغوي الذي ورد فيه فرض عليه دلالة جديدة وهي دلالة الاستقبال لأن الحفظ مستمر إلى المستقبل، فحفظ الله لدينه كان وسيكون مستمرا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)﴾. [سورة الحجر، الآية: 9]

فصيغة الفعل تدل على الماضي ولكنها تحمل دلالات تتعلق بالحاضر وتستشرف المستقبل.

وتحمل الأفعال الماضية والمضارعة معنى الإخبار والتقرير والوصف وهي أفعال إنجازية والقوى المتضمنة فيها هي إخبار الناس بأن هذه الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة، وأن الدعوة إلى الله قائمة ولن تنقطع، **والفعل الناتج** عن هذا القول هو الأثر الذي تتركه هذه الكلمات المتلفظ بها في نفوس المسلمين وغيرهم .

وإذا ما تأملنا بنية هذا الخطاب نجد أن ابن باديس يوظف أفعالا مثبتة وأخرى منفية تساعد على ربط العناصر اللغوية للنص، وذلك من خلال علاقة التعارض أو التقابل (صورة إيجابية وأخرى سلبية). لأن النفي يتعلق بأداة نافية تدخل على الجملة الإسمية أو الفعلية " فتفيد عدم ثبوت نسبة المسند إلى المسند إليه".[1]

1_ حماسة عبد اللطيف : بناء الجملة العربية ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، دط ، 2003 ، ص 280 .

ويدرج سورل النفي ضمن صنف التقريريات (الإخباريات)، كما يدرج في هذا الصنف بعد النفي طبعا "الإثبات ...والتأكيد والتفسير، والبيان والمحاجة"[1].

وسنوضّح المقابلة بين الإثبات والنفي من خلال المعادلة الآتية :

لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة	أبقى به حجته
نفي	**إثبات**
لا تنقطع الدعوة إلى الله	حفظ الله به دينه
نفي	**إثبات**

يحاول ابن باديس من خلال هذه المقابلة اللغوية اللطيفة (بين صورتين متناقضتين) إصابة المعنى من أقرب مرمى، فأضفى ذلك على بنية الخطاب صبغة جمالية وسحرا بيانيا، وهذا ما تصبو إليه التداولية من استمالة للآخرين والتأثير فيهم بكلام موجز ومبسط ومؤثّر، والنفي في الجملتين السابقتين غير مرتبط بزمن معين، "فيكون النفي ...عاما" [2] أي غير مخصّص ولا مقيّد.

وقد كشف السياق اللغوي عن ذلك ،فالمولى عز وجل تعهد عباده على أن يبعث لهم على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ،وهذا يستلزم أن الدعوة إلى الله قائمة ولن تنقطع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ففي هذا النفي ، إثبات لحفظ الله دينه ، وعدم انقطاع الدعوة إليه ، رغم ما يقوم به أنصار الباطل وأذنابهم من إنكار وجحود واعتراض .

ولا يهدف التقابل بين صيغتي النفي والإثبات إلى التعارض بقدر ما يهدف إلى اتحاد دلالات هذه التراكيب وتعاضدها ،وتركيزنا على هذه الظاهرة (النفي و الإثبات) ليس مقصودا لذاته وإنما لتأكيد ضرورة الانتقال بالدراسة اللغوية من حيز الجملة الضيق إلى فضاء رحب يجسده الخطاب أو النص، لأن فعل التواصل لا يتحقق إلا من خلال وحدة لغوية مكتملة الأجزاء تتسم بالانسجام والترابط. و لنتأمل الجمل المشكلة لبنية هذا النموذج:

---

1 - ينظر نور الدين أجعيط : تداوليات الخطاب السياسي ، عالم الكتب الحديث الأردن ، ط1 ، 2012 ، ص 125 .

2 – حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، ص286.

الجملة التقريرية	الجمل الطلبية
– لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة – حفظ الله به دينه – أبقى به حجته – لا تنقطع الدعوة إلى الله – قد تحول دون بلوغ صوتهم – فترى أنصار الباطل – قام داع من دعاة الحق – اعترضوه بسكون – كان قبله – أوهموا أتباعهم – جاء بدين جديد	

انطلاقا من الجدول السابق نلاحظ سيطرة الجمل التقريرية على حساب الجمل الطلبية، لأن عبد الحميد بن باديس بصدد عرض لمحتوى قضية تتعلق **بمضمون ديني**، يطرح من خلالها مجموعة من التصورات حول واقع الدعوة إلى الله إبان الفترة التي عاش فيها ، وهي فترة الاستعمار وما كان لها من أثر سلبي ومخططات تغريبية تهدف إلى مسخ الشخصية الجزائرية المسلمة.

وقد سخر المستعمر أذنابا له ، أطلق عليهم ابن باديس " أنصار الباطل " يعملون على تعطيل الرسالة الدينية وتشويهها وتحريفها حتى يحولوا دون وصول صوت دعاة الحق للناس

ولتوضيح فحوى هذه القضية والوقوف على أبعادها، وظف الكاتب جملا تقريرية تنطوي قوتها الإنجازية على مجموعة من المقاصد نذكر منها:

* التصدي للاستعمار بكل الوسائل، وشتى الطرق لقمع مخططاته التغريبية الدنيئة، حيث حملت جمعية العلماء المسلمين على عاتقها هذه المهام.

* محاربة الطرقية التي اتخذتها فرنسا معولا هداما لضرب الإسلام لأن "بعضها سرعان ما انحرف عن مبادئها وأهدافها، وانضم إلى الزوايا الفاسدة مع سقوط البلاد تحت وطأة الاستعمار، وأضحى عميلا للاحتلال ... وتحول جلها إلى إفساد العقائد ونشر الخرافات والأباطيل".[1]

* محاربة المحرفين والمتغالين والزائغين والمبتدعين الذين وقفوا سدا منيعا يحول دون وصول الدعوة إلى الناس .

* التأكيد على أن الدعوة إلى الله لا تنقطع لأن الله عز وجل تولى حفظها ولا أدل على ذلك من أن جمعية العلماء المسلمين ،ورغم الضغوطات التي تعرضت لها إلا أنها تحدت كل العراقيل من أجل نشر العقيدة الصحيحة، وإحياء معالم هذا الدين والعودة به إلى أصوله المتينة .

أما عن المقصد الأساسي الذي استهدفه ابن باديس فهو توعية الأجيال وتربيتها على حب هذا الدين والسير على نهجه والتزام توجيهاته.

ونخلص مما تقدم إلى أن الجمل الخبرية التقريرية التي وردت في هذا النموذج اتسمت بالبساطة والوضوح والاختصار مع جودة الأسلوب، وحسن التأليف وفصاحة العبارة، وهو أسلوب تداولي يهدف إلى إيصال فحوى هذه الرسالة بما تحمله من مضامين إصلاحية وبثها في المجتمع للتأثير في الناس من أجل استنهاض هممهم وإيقاظ ضمائرهم ، وهذا الملمح التداولي يتجلى في قول **سورل** « حين أقصد الاتصال ، أقصد أن أولد فهما ، لكن الفهم سيكمن في قبضة معناي ، وهكذا فقصد الاتصال هو القصد الذي يتعرف فيه المستمع إلى معناي ، أي أنه يفهمني ».[2]

وبما أن هذا النموذج أحكمت السيطرة عليه طائفة من الجمل التقريرية المتضمنة أفعالا ماضية، وأخرى مضارعة تدل على الإخبار والوصف والتأكيد والإثبات والنفي، وهي كلها أفعال إنجازية تهدف إلى التقرير. فإن هذا ما يدفعنا إلى إدراج هذا النموذج ضمن التقريريات أو الإخباريات ومن النماذج الأخرى التي تندرج ضمن هذا الصنف النموذج الآتي:

---

1 – عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص171.

2 – جون سيرل : العقل واللغة والمجتمع ، ص 213 .

ج– عنوان النموذج: " إلى علماء جامع الزيتونة":

« ... **لقد ارتفعت الشكوى في الصحف التونسية هذه المدة الأخيرة من بلدان عديدة من القطر التونسي الشقيق بالبدع و المناكر التي يأتيها الطرقيون به. والفضائح التي ارتكبها بعضهم وسيق من أجلها إلى العدلية كما يساق المجرمون ، ووجهت سؤالات صريحة إلى العلماء في حكم الإسلام في ذلك كله ، وعلماء جامع الزيتونة وشيوخ الفتوى فيه وشيخا الإسلام منهم – واجمون [واجمون] ساكتون كأن الأمر لا يعنيهم وكأن آيات الله لم تطرق آذانهم ، فأين أنتم أيها الشيوخ ؟ وأين إيمانكم** ؟ ... » .

فالأفعال الواردة في هذا النموذج هي :

الفعل الماضي	الفعل المضارع
لقد ارتفعت	يأتيها
ارتكبها	يساق
(سيق)	لا يعنيهم
ووجهت	لم تطرق

نلاحظ من خلال الجدول توازنا بين الفعل الماضي والمضارع مما أضفى على هذا الخطاب ديناميكية وحركية وتجددا وانتقالا من وضع لآخر.

كما تنقسم الأفعال في هذا النموذج إلى أفعال مثبتة وأخرى منفية:

– والمثبتة منها هي : (لقد ارتفعت ، ارتكبها ، سيق ، ووجهت ، يأتيها ، يساق).

– والمنفية منها هي (لا يعنيهم ، لم تطرق).

ويعد **سورل** النفي والإثبات من الأفعال الكلامية المنبثقة عن الخبر، وتختص لا بنفي الجملة الإسمية والفعلية على حد سواء، وإذا دخلت على الجملة الفعلية صار النفي دالا على المستقبل ولا يؤثر على الحركة الإعرابية للفعل. [1]

أما إذا اقترنت لم بالفعل المضارع فإنّها تفيد النفي والجزم والقلب (أي قلب دلالة المضارع إلى الماضي) وتدل الأفعال الماضية والمضارعة (المثبتة منها والمنفية) على الإعلام والأخبار والتقرير وهي كلّها أفعال إنجازية والقوة المتضمنة فيها هي رغبة الكاتب في نقل أحداث وأخبار تجري وقائعها في " تونس " وتتعلق تحديدا بارتفاع الشكوى في الصحف التونسية بالبدع والمناكر التي يأتيها الطرقيون وأنصار الباطل، وعلماء الدين صامتون لا ينبسون ببنت شفة خوفا على مناصبهم وحماية لمصالحهم وأطماعهم الدنيوية الدنيئة لأنّهم باعوا دينهم وضمائرهم بأبخس الأثمان، لكن حب ابن باديس لدينه وغيرته على عقيدته دفعته للتشنيع بأعمال هؤلاء وهؤلاء .

فشرط الإخلاص متحقّق، والمطابقة كانت من الكلمات إلى العالم والقوة الإنجازية للأفعال هي الشحنة الإخبارية للأفكار والمعلومات التي يريد هذا العلامة إذاعتها ونشر تفاصيلها للقاصي والداني، حيث عبّرت هذه الأفعال عن مقصدية تداولية لابن باديس، وتتمثل في فضح المنحرفين والضالين (من أهل الطرقية) والتشهير بعلماء الدين (من جامع الزيتونة وأهل الفتوى) بسبب مواقفهم السلبية تجاه ما يحدث في تونس، كيف لا ؟ وتونس البلد العربي المسلم يضم أعظم معلم ديني وهو "جامع الزيتونة " ،هذا الجامع العريق الذي تخرج فيه أشهر العلماء المسلمين وعلى رأسهم "ابن باديس" نفسه.

حيث كان هذا الجامع ولا يزال مصدرا للإشعاع العلمي (العلوم الشرعية ، واللغوية) إلا أن أنواره انطفأت وشعلته خبت بسبب انحراف علمائه عن النهج القويم .

وإذا ما تأملنا النسق العام لهذا النموذج نلاحظ سيطرة الجمل التقريرية على حساب الطلبية .

فالجمل التقريرية هي: (يأتيها الطرقيون، ارتكبها بعضهم، سيق من أجلها كما يساق المجرمون، ووجهت سؤالات صريحة، كأن الأمر لا يعنيهم ، لم تطرق آذانهم ...).

1- حماسة عبد اللطيف بناء الجملة العربية ، ص 286 .

وهذه الجمل (التقريرية) المثبتة منها والمنفية تندرج كلها ضمن صنف الإخباريات وهذا ما يتلاءم و مقام التخاطب. أما الجمل الطلبية فهي: (فأين أنتم أيها الشيوخ ؟ وأين إيمانكم ؟).

والاستفهام الوارد في هذين الموضعين ليس استفهاما على الوجه الحقيقي الذي هو طلب الاستعلام على أمر غير معروف مسبقا إذا فهو لا يتطلب جوابا حاضرا، ولكن دلالته يمكن أن نستنبطها من سياق الكلام، وقد أطلق عليه في تراثنا اللغوي العربي القديم اسم " الاستفهام الخبري " يقول مسعود صحراوي في هذا الشأن "فالاستفهام الخبري "نفي و"اثبات" ...والوارد للنفي يسمى: "استفهام إنكار"، والوارد للإثبات يسمى "استفهام تقرير". [1]

ويندرج هذين السؤالين ضمن الاستفهام التقريري ويعني استفهام التقرير بأن "هذا النوع لا يهدف إلى الاستفسار عن مسألة أو الاستيضاح عن جانب من الجوانب المطروحة، و إنما يسعى إلى تقرير استنتاج قام السائل بعرضه على الجمهور تمهيدا لنقده... " . [2]

ويؤكد الاستفهام في هذا السياق على فساد رأي هؤلاء العلماء من جهة، وانحسار دورهم الريادي داخل المجتمع من جهة أخرى مما حمل ذلك ابن باديس على توجيه نقد لاذع لهم ،فكان الاستفهام التقريري تمهيدا لهذا النقد.

أما **الفعل التأثيري** فهو ما دل على ترك أثر في نفوس المخاطبين من إيقاظ للهمم وإحياء للضمائر الميتة ، وبعث الجذوة الدينية في نفوس الضالين.

ونلاحظ أن الكاتب قد عبر عن مقاصده التداولية بألفاظ قليلة ولكنها مشحونة بظلال من المعاني الكثيفة.

وهذه هي السمة الغالبة على لغة خطاباته والتي تتميز برزانة الأسلوب وجودة الألفاظ، مما ينم عن مقدرته الأدبية في امتلاك جوامع الكلم من شعر ونثر ، وهو الأديب البليغ ، الذي يستطيع التأثير في نفوس مستمعيه واستثارتهم بشتى الطرق .

---

1 – مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب ، ص 163 .

2 – ينظر عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة ، منشورات الاختلاف ،الجزائر، ط1، 2013، ص217 .

كما تكشف لغته عن جرأته في قول الحق والصدع به مهما علت أو دنت مراتب مخاطبيـــه ، والشجاعة في مجابهة الخصم مهما اشتدت ضراوته لقد « ...كان في الحق عاصفة لا تهدأ إلا إذا انتصر العدل،وفي الخير نفحة لا تسكن إلا تنفس الإحسان، وعاش من نفسه الكبيرة في جيش ...و إن خيـــل أنه إنسان .عاش الإمام مخلصا في القول والعمل، جريئا ومستقلا في الرأي...وأنار الله بصيرته ...فأحيا شريعة، وأقام مجتمعا، وقوض باطلا،وأنقذ شرفا وأمة، و أحيا لغة » .[1]

وتظل تيمة الإصلاح الديني هي المهيمنة على هذه النماذج المختارة وهذا ما نلمسه في النموذج الآتي :

د– عنوان النموذج "بواعثنا –عملنا–خطتنا –غايتنا":

« رأينا – كما يرى كل مبصر – ما نحن عليه معشر المسلمين من انحطاط في الخلـــق وفســـاد في العقيدة ، وجمود في الفكر، وقعود عن العمل، وانحلال في الوحدة، وتعاكس في الوجهة، وافتراق في السير ... حتى خارت النفوس القوية، وفترت العزائم المتقدة، وماتت الهمم الوثابة، ودفنت الآمال في صدور الرجال، واستولى القنوط القاتل، واليأس المميت فأحاطت بنا الويلات من كل جهة..».

فأفعال هذا النموذج هي:

الماضي	المضارع
رأينا – خارت – فترت – ماتت – دفنت – استولى – أحاطت	يرى

نسجل في هذا النموذج حضورا بارزا للفعل الماضي لأن الكاتب بصدد وصف واقع المســـلمين المتردي، وما آل إليه حالهم من جمود وانحطاط وتخلف.

[1] – عبد الحميد بن باديس : مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ،جمع وتصنيف ومراجعة وتقديم محمد الصالح رمضان وتوفيق محمد شاهين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، دط، دت، المقدمة ص 05 .

وتتضمن القوة الإنجازية للفعل الماضي معنى الوصف أي وصف الوضعية المتردية التي آل إليها المجتمع الجزائري في تلك الحقبة الاستعمارية المظلمة، وكان ابن باديس في ظل كل هذه المآسي يسعى للبحث عن سبل للنجاة .

أما الفعل المضارع فلم يسجل حضورا بارزا ما عدا الفعل المضارع "يرى"الذي جاء مجاورا للفعل الماضي " رأينا " ليجعل دلالة الماضي مستمرة في الحاضر أي أن هذه الأوضاع كانت ولا تزال على حالها، ولا يوجد أي محاولة –للنهوض أو التغيير أو الإصلاح ومن ثمة فإن القوة الإنجازية التي تضمنها الفعل المضارع " يرى " تفيد التأكيد والتقرير وهذا ما يؤدي إلى التلاحم الدلالي بين الصيغتين(الماضي والمضارع).

وكما سجل الفعل الماضي حضورا قويا وبارزا فإن الجمل التقريرية أحكمت هي الأخرى سيطرتها على بنية هذا الخطاب، ومن هذا المنطلق يمكن أن ندرج هذا النموذج ضمن صنف (الإخباريات /التقريريات) لأنه يتلاءم ومقام التخاطب.

ولنتأمل عنوان النموذج الذي صاغه ابن باديس على الشكل الآتي: بواعثنا – عملنا – خطتنا– غايتنا .

يرى فانديك أن العنوان يقدم وظيفة إدراكية هامة تهيء المتلقي لبناء تفسير للنص أو ما يخبره به النص.[1] ومن هذا المنطلق يمكن أن نعد العنوان جزء من البنية الكبرى ونلاحظ أن هذا العنوان (بواعثنا– عملنا – خطتنا – غايتنا) يلخص مضمون النص ، ويجمل ما كان مفصلا فيه، وهذا يساعد على تنشيط ذاكرة القارئ وتحفيزها لتستحضر المعلومات والمعارف المتعلقة به ، يعبر العنوان عن مقاصد ابن باديس التداولية والتي تتمثل في تحديده لبواعث خطته الإصلاحية والغاية منها . ويتصدر النص جملة "رأينا – كما يرى كل مبصر – " و هي جملة اعتراضية ويمكن أن نعتبر هذه الجملة على حد تعبير محمد مفتاح « ... البؤرة أو بيت القصيد، أو الجملة الهدف، ولا يعني هذا أن ما قبلها وما بعدها حشو يمكن الاستغناء عنه ... ».[2]

1- فان ديك علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ص 88 .

2- محمدمفتاح : دينامية النص ، ص 73 .

حيث استهلّ ابن باديس خطابه بهذه الجملة لتعبر عن مضمون النص ، فشكلت بؤرة ضوئية أو مركز ثقل إذ كل الأفعال الكلامية التي يتضمنها هذا النموذج تحيل إلى هذا الفعل الكلامي المركـــزي (رأينا كما يرى كل مبصر) وتعضّد دلالته والمتمثلة في التقرير والوصف والإخبـــار والمخطـــط الآتي يكشف عن ذلك :

الجملة المنطلق

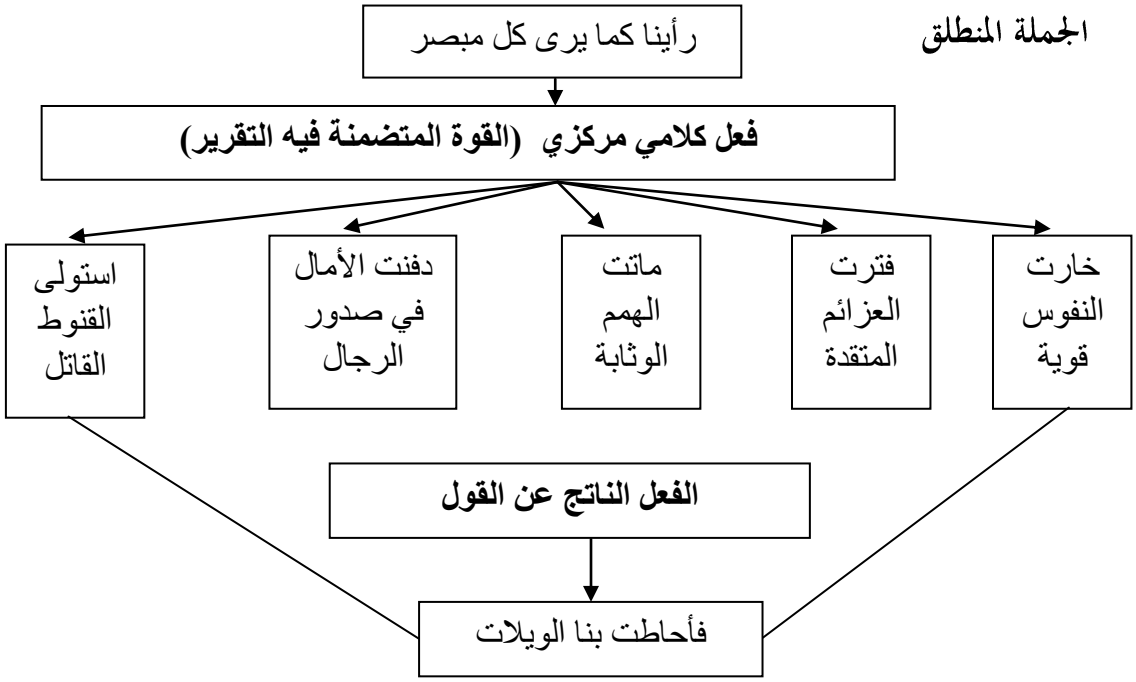

تتحد سلسلة الأفعال الكلامية الجزئية في النص مع الفعل الكلامي المركزي الذي يمثل الجملة المنطلـــق ليتحول هذا النموذج إلى فعل كلامي واحد هو الإخبارأو التقرير فـــ " النص مهما كان طوله قد يؤدي فعلا كلاميا واحدا (ولو تعددت فيه الأفعال الكلامية)".[1]

أما الفعل الناتج عن هذه الأقوال فيسمى بالفعل التأثيري (Acte perlocutoire) وقد صـــاغه الكاتب من خلال العبارة الآتية « ... فأحاطت بنا الويلات من كل جهة ... ".

ومن ثمه يمكن أن تعد سلسلة الأفعال الكلامية المطروحة في هذا النموذج سببا لهذه النتيجة وهـــذا مـــا يؤكد اعتماد ابن باديس العقلانية والمنطقية في طرحه الخطابي ، مما أضفى هذا إلى انســـجام وتـــرابط مضامينه الإصلاحية.

1- عمر بلخير : تحليل الخطاب المسرحي، ص 186 .

ونلاحظ توازنا بين الجمل الاسمية والفعلية المشكلة لفضاء هذا الخطاب، وقد أحدث التكـــرار الجراماتيكي (النحوي) لهذه الجمل جرسا موسيقيا له أثره على المتلقي نمثل لها كالآتي:

الجمل الاسمية	الجمل الفعلية
انحطاط في الخلق	خارت النفوس القوية
وفساد في العقيدة	فترت العزائم المتقدة
وجمود في الفكر	ماتت الهمم الوثابة
وقعود عن العمل	دفنت الآمال في صدور الرجال
وانحلال في الوحدة	استولى القنوط القاتل
وتعاكس في الوجهة	
وافتراق في السير	

لقد انتقى الكاتب هذه الجمل بعناية لتصف بدقة متناهية واقع الشعب الجزائـــري إبـــان فتـــرة الاحتلال وهذا قبل تفعيل نشاط جمعية العلماء المسلمين .

وإيراده الكلام على هذه الصورة ليس إظهارا لبراعته الأسلوبية ومقدرته الأدبية، وإنما اعتمد هذا الأسلوب دون تكلف ليظهر خطته الإصلاحية لأن " الوسط الاجتماعي الذي كان يتحرك فيـــه ابـــن باديس وسط أمي في معظمه إذ لم تكن قبل الحركة الإصلاحية ، ولا في وقتها معاهد تعليمية عالية كما هو الشأن في تونس والمغرب ومصر ، لذلك كانت حركته مسايرة لطبيعة الوسط والهدف من إنشائها ، و لم تكن دروسه تقدم المعرفة لذات المعرفة . و لم يكن خطابه من أجل إظهار البراعة الأسلوبية إنما كان يخاطب القلب والعقل والوجدان بلغة تحقق المسعي ، بأسلوب تربوي ينفذ إلى الأعماق (هكذا حدثنا تلاميذ الشيخ الذين لازموه مدة)". [1]

وبناء على ما سبق يمكننا أن نستخلص مجموعة من الوسائل اللغوية والعناصر المنطقية التي صبغت هذا النموذج بصبغة تداولية وتتمثل في:

1- نسجل حضورا بارزا للفعل الماضي على حساب المضارع والأمر.

1- عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ، ص 116 .

2- حملت صيغة الماضي قوة إنجازية تمثلت في الوصف والتقرير وهذا ما يتلاءم ومقام التخاطب .

3- تنوعت الجمل بين الاسمية والفعلية وقد عبرت الجمل الاسمية عن الأسباب، وأما الجمل الفعلية فقد مثلت النتائج المترتبة عن هذه الأسباب مما أضفى ذلك على الخطاب الصبغة المنطقية

4- هيمن على هذا النموذج الجمل التقريرية لتعبر عن المقاصد التداولية لابن باديس والمتمثلة في تشخيص أمراض هذه الأمة وهذا التشخيص يستدعي : الوصف والتقرير

5- اتسمت لغة هذا الخطاب بالبساطة والوضوح والإيجاز لاستمالة المتلقين والتأثير فيهم.

ه- عنوان النموذج : "ثمار العقول والمطابع محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791)":

يقول ابن باديس:« **إن من جنايات الاستعمار على البشرية أنه قلب حقائق التاريخ على الناس فقد صور الأمم التي ابتليت به وأصيبت بشره بصور من الهمجية والوحشية والتأخر والانحطاط لا أبشع منها ذلك ليبرر استيلاءه عليها ، ومَنَّ عليها بما زرعه فيها من عمران وإن كان هو المستغل لذلك العمران والمستبد به** .»

نلاحظ أن هذا النموذج يتكون من الأفعال الآتية :

الفعل الماضي	الفعل المضارع	الأمر
قلب – فقد صور – ابتليت (مبني للمجهول) كان – من زرعه.	ليبرر	

انطلاقا من الجدول أعلاه نسجل حضورا بارزا للفعل الماضي ، والماضي كما نعلم يفيد التقرير ، وهو ما يتلاءم ومقام التخاطب .

وتحمل هذه الصيغة شحنة من المعلومات والأخبار المتعلقة بأحوال الشعوب المستضعفة والمغلوبة على أمرها ، وما عانته من استبداد وقهر ، حيث صورها المستعمر بأبشع صور الهمجية والتخلف ليبرر احتلاله لها ، وما فعله المستعمر الفرنسي في الجزائر أصدق دليل على ذلك ، وهذا ما كشفته مجلة فرنسية سنة 1922 حين أوردت التصريح الآتي: « إننا معشر الفرنسيين في بلادنا هنا (في الجزائر) قد استحوذنا على هذه البلاد وبسطنا سلطاننا عليها بالحديد والنار ، إذ لا ينجح أي احتلال إلا بالقوة ، ويترتب حتما عن هذا وجود غالب ومغلوب ، ولما كبحنا جماح الشعب الجزائري استطعنا أن ننظم

البلاد، وهذا التنظيم نفسه يقيم الدليل على تفوق الغالب على المغلوب أي تفوق الرجل المتقدم على الرجل المتخلف، فأصبحنا أصحاب البلاد الشرعيين » .[1]

إنّ مثل هذه التصريحات البغيضة تؤكد مدى همجية المستعمر ووحشيته، وفضاعة جرائمه، كما تدل هذه الاعترافات المقيتة على مدى تجرده من القيم الإنسانية السامية ، ومن ثمّة فإنّ ابن باديس لا يبغض الاستعمار الفرنسي وحده بل يبغض كل مستعمر في العالم حاول سلب حرية شعب أو نهب خيرات أمة من الأمم ،وقد صرح بذلك في موضع آخر قائلا : "... وإننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلا ونحب وطننا ونعتبره منها جزء، ونحب من يحبه الإنسانية ونبغض من يبغضها ويظلمها ...".[2]

وليعبّر صاحب الآثار عن المآسي والويلات التي تعرضت لها هذه الشعوب المغلوبة عن أمرها فقد استعان بصيغة الماضي لما تتضمنه من قوى إنجازية مختلفة تجمع بين الإخبار، والتقرير، والوصف والتعبير والبوح، وهذا ما يجعلنا ندرج بعض البوحيات ضمن التقريريات « كما فعل سيرل حينما رد بعض البوحيات إلى التقريريات» .[3]

أمّا عن الجمل المشكلة لبنية هذا النموذج فهي خاضعة لأسلوب التقرير أيضا وهي كالتالي:

الجمل التقريرية	الجمل الطلبية
قلب حقائق التاريخ فقد صور الأمم ابتليت بشره (مبني للمجهول) أصيبت بشره (مبني للمجهول) كان هو – المستغل لها – من عليها بما زرعه	

1– ينظر عبد الكريم بو الصفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 81 ، ص 82 .

2 – عمار طالبي : الإمام عبد الحميد بن باديس ، مج 3، ص 254 .

3 – مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب ، ص 89

تهيمن على بنية هذا الخطاب الأساليب التقريرية على حساب الأساليب الطلبية، لأن طبيعة الخطاب الإصلاحي تفرض شرحا للقضايا، وسردا للوقائع، ولذلك يكثر هذا الصنف من الإخباريات في خطب ابن باديس، فالتقريريات أو الإخباريات « ... ينبغي أن تقتصر على الأفعال التي تصف وقائع وأحداثا في العالم الخارجي، ويدخل فيها ما تنقله الصحف ونشرات الأخبار إلينا مما يدور في العالم من أحداث وشؤون عسكرية وسياسية وثقافية واجتماعية ودينية واقتصادية وعلمية». [1]

كما نلاحظ أن مطابقة الأفعال الإنجازية في هذا النموذج كانت من الكلمات إلى العالم ، وأن شرط الإخلاص متحقق، لأن ابن باديس كان يحمل رسالة لا تختلف في جوهرها عن الرسالات السماوية التي كُلّفَ بها الأنبياء والمرسلون قبله، فما نقله هذا العلامة من وقائع وأخبار كان مطابقا للواقع، لأن قيمه السامية تأبى الكذب والتضليل والتزييف وهذا ما لم يغفل عنه العلماء المسلمون قديما فقد أورد الغزالي (ت450 هـ - 505 هـ) في الباب الثالث من كتابه المستصفى أن الأخبار التي يكون فيها التصديق ولا تكون محل شك أو كذب هي الأخبار التي أوردها الله عز وجل، وما تواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل خبر يتوافق مع ما أخبر الله به تعالى ورسوله الكريم الأمة.[2]

فكيف لهذا المصلح أن لا يصدق في نقل الوقائع وهو المصلح والمربي، والمفسر لكتاب الله، والحامل لآياته في صدره .

أمّا عن الفعل المضارع (**ليبرر**) فقد أفادت قوته الإنجازية **تبرير وتعليل** المستعمر لجرائمه الشنيعة والقرينة اللغوية الدالة على هذه القوة الإنجازية " **التبرير** " هي حرف اللام الذي يفيد **التعليل** وهو من حروف المعاني التي تكثر في لغتنا العربية فتزيدها ثراء وتنوعا في تأدية الكلام بطرق مختلفة، وهذه الحروف تتوافق مع المبدأ الذي عبر عنه سورل بـ " **درجة الشدة للغرض المتضمن في القول**".[3]

ومن أمثلة هذه الحروف التي وردت في هذا النموذج:

---

1 – محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 103

2– الإمام أبو محمد الغزالي: المستصفى من علم الأصول ، دراسة وتحقيق ، حمزة بن زهير بن حافظ ، دط ، دت ، ج2 ، ص 162 .

3 – ينظر مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب ، ص 97 .

قد التي تفيد التحقيق وقد اقترنت بالفعل الماضي (قد صور) وهي تحمل معنى التقرير والتوكيد. **وأداتا التوكيد** : " أن " و " إن " .

فالتحقيق والتوكيد ، والتعليل هي كلها معان مستقاة من هذه الحروف تعبر عن أفعال كلامية تكمن وراءها المقاصد التداولية غير المعلنة لابن باديس والمتمثلة في:

1- الدعوة إلى المحبة والتآخي ونشر السلام

2- رفض الغطرسة الاستعمارية

3 - التشنيع بالاستعمار وفضح أكاذيبه

ويظل الحديث عن المستعمر وجرائمه ومن يساندونه من أنصار الباطل (من أهل الجهل والطرقية) محور الحديث ، وهذا ما سنكشف عنه من خلال تحليل الصنف الثاني من الأفعال وهو " التوجيهيات أو الإنفاذيات ".

2- التوجيهيات:

من النماذج المتضمنة لصنف التوجيهيات النموذج الآتي :

أ- عنوان النموذج : " أيها المسلم الجزائري".[1]

" هاك وصايا نافعة مختصرة على وجه الإجمال ، وسنعيدها عليك مختصرة على وجه التفصيل.

هاك آدابا تقتضيها إنسانيتك ويفرضها عليك دينك ، وتستدعيها مصلحتك في هاته الحياة ، هاك ما إن تمسكت به كنت إنسان المدنية ورجل السياسة وسيدا حقيقيا يرم ق من كل أحد بعين الاحترام والتعظيم ...

حافظ على صحتك فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك ، تجنب العفونة فإنها مصدر جراثيم الأمراض ومثار نفور وبغض لطلعتك ، فاحذر كل متعيلم يزهدك

1- عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج3، ص 157

في علم من العلوم ... واحذر كل (متربيط) يريد أن يقف بينك وبين ربك ... واحذر من دجـــال يتاجر بالرقي والطلاسم ... » .

إن الغرض من التوجيهات هو تكليف المتكلم المستمع إنجاز عمل ما في المستقبل ،واتجاه المطابقة فيها تكون من العالم إلى الكلمات ، ولا يخضع هذا الصنف من الأفعال إلى شرط الإخلاص وإنما يحتاج إلى الرغبة الصادقة في إنجاز العمل ، كما يهدف للتأثير في المتلقي إما بالإذعـــان والامتثـــال أو بعـــدم الاستجابة والامتناع ، وهذا ما أطلق عليه بول غرايس بتخلف أو سقوط مبدأ التعـــاون في التواصـــل ويكون المخاطب هو المسؤول عن هذا الفعل.[1]

ولنتأمل عنوان النموذج " **أيها المسلم الجزائري**":

يتصدر هذا العنوان أداة النداء " أيها " والنداء عموما غرضه الإنجازي لفت انتباه المخاطب لإشراكه في الخطاب أو الحديث ف"النداء علامة من علامات (الاتصال)بين الناس، وهو دليل قـــوي على (اجتماعية) اللغة، ومن ثم فهو كثير الاستعمال، ولا يكاد يخلو كلام إنسان كل يوم مـــن النـــداء .لذلك كان للنداء (أسلوب)خاص، بل جملة خاصة ...تتكون من حرف للنداء ومنادى."[2]

يفهم من الطرح السابق أن النداء يمثل خاصية إنسانية ويؤدي وظيفة تداولية أي أنه يتضمن قوة إنجازية يحدّدها سياق التلفظ، ومن ثمة يمكننا التعامل مع جملة النداء على أنها فعل كلامي مثلها مثل باقي الأفعال الكلامية الأخرى .

ويرى أحمد المتوكل:" أن أداة النداء "**أيّها**" قد أصبحت من " **التحجر** " بحيث لا يمكن اعتبارها إلا أداة واحدة تدخل على المنادى كباقي أدوات النداء الأخرى » .[3]

يفهم من هذا التحديد أن أداة النداء " أيّها " يجب أن ننظر إليها على أنّها بنيـــة واحـــدة وإن كانت في الأصل تتكون من وحدتين لغويتين منفصلتين وهي: أي الموصولية، والهاء التي تفيد التنبيه.

1 – ينظر ادريس مقبول: الأفق التداولي ، ص 133 .

2 – عبده الراجحي: التطبيق النحوي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن، ط3 ، 2010 ، ص288 .

3 – أحمد المتوكل : الوظائف التداولية في اللغة العربية ، دار الثقافة،الدار البيضاء،المغرب،ط1، 1985ص 166 .

وإذا ما أمعنا النظر في عنوان هذا الخطاب " **أيها المسلم الجزائري**" نلاحظ أن النداء هنا موجه إلى ذات محدّدة " المسلم الجزائري " فهو المقصود والمعني وحده بما سيوجه له من كلام.

وإن كان الغرض الإنجازي المباشر للنداء هو " لفت الانتباه " فإنّه يحمل في الوقت نفسه غرضا إنجازيا غير مباشر هو " التذكير " والذي يدلّ على ذلك هو مقام التخاطب.

فعبد الحميد بن باديس بصدد تذكير المسلم الجزائري بضرورة التمسك بعقيدته الإسلامية والاعتزاز بها لأنّها نهج حياة وسبيل النجاة في الدنيا والآخرة، وأن يعتزّ بجزائريته لأنّها رمز وطنيته وعروبته، فيعمل ما عاش لإسلامه ولجزائريته.

ويستهل الكاتب خطابه بسلسلة من الأفعال الكلامية صاغها في شكل مقدمة وتتمثل في قوله «**هاك وصايا مختصرة على وجه الإجمال، وسنعيدها عليك مختصرة على وجه التفصيل هاك آدابا تقتضيها إنسانيتك، ويفرضها عليك دينك، وتستدعيها مصلحتك في هاته الحياة ، هاك ما إن تمسكت به كنت إنسان المدنية ورجل السياسة وسيدا حقيقيا يرمق من كل أحد بعين الاحترام والتعظيم** ... ».

نلاحظ أن هناك علاقة دلالية منطقية تتحكم في النسق العام لهذه المقدمة، وقد أطلق الدارسون على هذا النوع من العلاقات " علاقة الإجمال والتفصيل " وتحمل هذه العلاقة بين طياتها بعدا تداوليا إذ تهدف إلى التأكيد " ...أي تأكيد التفصيل للإجمال ".[1]

حيث أجمل ابن باديس الكلام في قوله " هاك وصايا ، هاك آدابا "، ثم عمد في متن النص إلى التفصيل في هذه الوصايا والآداب من خلال سلسلة الأوامر التي تمثل أفعالا كلامية جزئية يتضمنها فحوى هذا الخطاب وهي (حافظ ، احذر ، احذر ، هاك ...) مما ساعد ذلك على انسجام هذا النسيج المتواشج وترابط أجزائه من جهة، وإضفاء مسحة شاعرية وجمالية على بنيته من جهة أخرى .

- ولنتأمل صيغ الأفعال الواردة في هذا النموذج:

1- محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،المغرب، ط 1، 1999. ص 188 .

صيغة الماضي	صيغة المضارع	صيغة الأمر
تمسكت	سنعيدها	هاك (تكرر ثلاث مرات)
كنت	يفرضها	احذر (تكرر ثلاث مرات)
	تستدعيها	حافظ
	يرمق	تجنب
	يزهدك	
	يريد	
	يقف	
	يتاجر	

انطلاقا من الجدول أعلاه نسجل حضور ثمانية عشرة فعلا تتراوح صيغتها بين الماضي والمضـــارع والأمر.

وقد أدى تنوع صيغ هذه الأفعال إلى إضفاء نوع من الحركية والديناميكية وتجدد المعنى ، والانتقال من وضع إلى آخر،أي من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل،وهذا ما يثير انتباه القارئ فيجعله أكثر تفاعلا مع موضوع الخطاب.

وقد وردت (الأفعال الماضية والمضارعة) مثبتة غير منفية والفعل المثبت عموما له دلالة خاصة داخل النسق التركيبي لأن: « الإثبات بالفعل يقتضي موضوعه تجدد المعنى المثبت به شيئا فشـــيئا (حركـــي، تعاقبي) ... » .[1]

وهذا ما يضفي الصبغة التداولية على هذا النموذج ولنبدأ بتحليل الفعل الماضي:

يتجلّى لنا حضور الفعل الماضي داخل هذا النسق الخطابي من خلال جملة الشرط " ... مـــا إن تمسكت به كنت إنسان المدنية ورجل السياسة" والتي تتركب من:

جملة الشرط ـــــ ما إن تمسكت بـــه.

1- عمر أوكان : اللغة والخطاب ، افريقيا الشرق ، المغرب، دط،2001، ص90.

جواب الشرط ـــــ كنت إنسان المدنية وجل السياسة.

يطلق حماســـة عبد اللطيف على العلاقة التي تربط جملة الشرط بجوابه بـــ "ترابط الترتب"[1] ويعني بلفظ الترتب " أن يتوقف أحد أجزاء الكلام على جزء آخر".[2]

وهذا يقتضي أن جواب الشرط لا يتحقّق إلا إذا تحقق الشرط فلا يكون المسلم الجزائـــري إنســـان مدنية ورجل سياسة إلا إذ تمسك بالوصايا والآداب التي تقتضيها إنسانيته وتستدعيها مصلحته.

فالغرض من أسلوب الشرط في هذا المقام هو غرض تربوي تعليمي ، فيه توجيه للإنسان بضـــرورة التمسك بما يساعده على بلوغ درجة من الكمال الإنساني والرقي الحضاري ، وهذا ما تهـــدف إليـــه الفلسفة التربوية لابن باديس والتي تقوم على ثنائية الهدم ثم إعادة البناء لأن " ...فلســـفته في التربيـــة والتعليم كانت بعيدة المقاصد حيث تجاوزت الاحتياجات الآنية إلى التفكير في إيجاد قاعدة بشرية متينة، وتكوين جيل واع، قادر على الانطلاق نحو المستقبل ...".[3]

أمّا إذا ما أنعمنا النظر في دلالة الفعلين الماضي " تمسكت "، " كنت" نجد أن صـــيغتهما قـــد خالفتا الدلالة الأصلية التي وضعت لهما والمتعلقة بما (مضى وانتهى)، لتدل على الاستقبال وســـياق التلفظ هو الذي كشف عن هذه الدلالة الجديدة .

ومن هذا المنطلق نستخلص أن القوة الإنجازية المتضمنة في هذا القول " ما إن تمسكت كنت ... " غرضها هو " **النصح والإرشاد** " ومن هنا يكون فعل " النصح والإرشاد مستلزما حواريـــا والقرينـــة اللغوية الدالة على ذلك هي عبارة وصايا وآدابا ،فيتحول هذا الغرض الإنجازي" النصح والارشاد " إلى **فعل كلامي مركزي** تؤول إليه جميع الأفعال الأمرية الصريحة الواردة في هذا الخطاب.

أما **الفعل الناتج عن القول** فيتمثل في مدى امتثال السامع لهذه الوصايا ومن ثمة فإنجاز الفعـــل يتعلـــق بالمستقبل عموما.

1- محمد حماسة عبد اللطيف : بناء الجملة العربية ، ص 210 .

2- المرجع نفسه ، ص ن.

3- عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ، ص 174 .

ونلاحظ أن الأفعال المضارعة سبقت معظمها بفعل الأمر، ويفضي هذا التقابل إلى إحداث إيقاع جميل له أثره على المتلقي:

هاك ⟵ سنعيدها

هاك ⟵ تقتضيها ويفرضها وتستدعيها

احذر ⟵ يزهدك

احذر ⟵ يريد أن يقف

احذر ⟵ يتاجر

وبما أن هذه الأفعال المضارعة قد وردت في سياق يفهم منه الطلب فقد تخلصت من دلالة الحال إلى دلالة الاستقبال

وقد شرح السيوطي (911ه) الحالات التي يكون عليها الفعل المضارع بقوله:" للمضارع أربع حالات...ويرجح الحال مفردا. ويتعين ب(الآن)ونحوه، و(ليس)،و(ما)،و(إن)،و(لام الابتداء)عند الأكثر والاستقبال بظرفه، وإسناده لمتوقع، وكونه طلبا، أو وعدا ،مع توكيد وترج ، ...وينصرف للمضي ب(لم)و(لما)...".[1]

وما نستخلصه من القول السابق أن السيوطي يؤكّد على أن من بين الحالات التي قد يكون عليها الفعل المضارع تخلص دلالته من الحال إلى الاستقبال إذا كان يفهم منه الطلب، وقد وردت الأفعال المضارعة الآتية :{ يزهدك، يريد، أن يقف، يتاجر} مسبوقة بفعل أمر {احذر}يفيد الطلب إذا فهذه الأفعال قد انصرفت من دلالة الحال إلى دلالة الاستقبال.

أما الفعل المضارع "سنعيدها " فقد اقترن "بالسين" وهي حرف تنفيس - كما أطلق عليها النحاة – وقد حولت هي الأخرى دلالة هذا الفعل المضارع من وصف الحال إلى الاستقبال يقول ابن هشام الأنصاري(761ه): "السين المفردة: حرف يختص بالمضارع، ويخلصه للاستقبال ...ومعنى قول المعربين فيها حرف "تنفيس"، حرف توسيع، وذلك أنها تقلب المضارع من الزمن الضيق ـوهو الحال ـ إلى الزمن الواسع وهو الاستقبال » .[2]

1- السيوطي : همع الهوامع ، ج1 ، ص 32.

2- ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1997، ج1 ، ص231 و232.

أما بالنسبة للأفعال: تقتضيها – تستدعيها – يفرضها فقد دلت صيغتها على المضارع ولكن دلالتها أفادت الأمر.

« وهذه الألفاظ الدالة على معنى الأمر تسمى أمرا ».[1]

وتتضمن هذه الأفعال قوة انجازية مباشرة تدل على الإلزام والتكليف، وقوة إنجازية غير مباشرة تدل على " النصح والإرشاد " وهذا ما يطلق عليه سورل بتعديل القوة الإنجازية ويعني به "تكييف المخاطب لمنطوقه مع مقصده في سياق تواصلي بعينه".[2]

وبناء على ما سبق نستنتج أن سلسلة الأفعال الكلامية الواردة في هذا النموذج التي أشر لها تركيبيا بالأفعال الماضية والمضارعة وأفعال الأمر قد تولد عنها فعل كلامي مركزي هو " النصح والإرشاد " وهذا ما حذا بنا إلى إدراج هذا النموذج ضمن صنف التوجيهات .

ومن الظواهر التركيبية المائزة لبنية هذا الخطاب نلاحظ "ظاهرة التكرار "بنوعيه "اللفظي" ويتمثل في قوله (هاك، هاك، هاك)، (احذر، احذر، احذر) والتكرار بالمرادف (يفرضها – يستدعيها – يقتضيها...).

والتكرار عموما له بعد تداولي إذ يهدف إلى تأكيد المعنى وتقويته،كما يعده اللغويون من العوامل التي تساعد على تماسك أجزاء الخطاب وترابطه من خلال إعادة عنصر من العناصر اللغوية بهدف تقوية المعنى وتأكيده مما يؤدي ذلك إلى توليد " قوة في اللفظ وقوة في الدلالة".[3]

وكما هو معلوم أن المعنى إذا تكرر تقرر في نفوس السامعين فيصبح الكلام واضحا جليا مما يساعد ذلك على إنجاح فعل التواصل.

حيث كان هذا المصلح في سعي دؤوب لبث أفكاره الإصلاحية بأسلوب سهل ومباشر يتماشى والمستوى الفكري البسيط للفرد الجزائري آنذاك ،حتى يحدث تفاعلا تواصليا مع الطرف الموجه إليه الخطاب ويقصد بالتفاعل« علاقة المرسل بمتلقيه، سواء أكان ذلك المتلقي فردا أو جماعة ، موجودا

1– ينظر محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. ص100 .

2 – ينظر نادية رمضان النجار: الاتجاه التداولي و الوظيفي في الدرس اللغوي ص 54 .

3– صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر، ج2، ص 29.

بالفعل أو بالقوة .ومن شأن هذه العلاقة ... أن تجعله يكيف خطابه على قدر عقل متلقيه ليحصل التفاعل وكسب استماله المتلقي ونيل رضاه ».[1]

فقد حشد ابن باديس لموضوعه الأكبر زخما من الأفعال بصيغها المختلفة (الماضي والمضارع والأمر)، و عبرت قواها الإنجازية عن معنى "النصح والإرشاد" وهذا ما تتأسس عليه فلسفته الإصلاحية، والمتمثلة في إرشاد الناس وتوجيههم لما يحقق لهم سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ونلاحظ أن شرط الإخلاص قد تحقّق لأن رغبة هذا المصلح كانت صادقة في تحقيق مصالح العباد، وأن المطابقة كانت من العالم إلى الكلمات.

وتستمر جهود الكاتب الإصلاحية من خلال تعريف الناس بحقيقة وجوهر هذا الدين ليميز لنا بين الإسلام الذاتي والإسلام الوراثي وهذا ما سنكتشف عنه من خلال تحليل النموذج الآتي:

ب – عنوان النموذج: "الإسلام الذاتي والإسلام الوراثي أيهما ينهض بالأمم":

يقول ابن باديس:

« ... **هذا الإسلام الذاتي هو الذي أمرنا الله به... فبالتفكر في آيات الله السمعية وآياته الكونية وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر تنهض الأمم، فتستثمر ما في السماوات وما في الأرض وتشيد صروح المدنية والعمران.**

إذا ! فنحن – المسلمين – مطالبون دينيا بأن نكون مسلمين، إسلاما ذاتيا.

فبماذا نتوصل إلى هذا الواجب المفروض ؟ ...

لذلك سبيل واحد، هو التعليم. فلا يكون المسلم مسلما حتى يتعلم الإسلام... » .

تتجلّى التوجيهات بارزة في هذا النموذج نظرا لما يتضمنه من أفعال أمر واستفهام، ولنبدأ بالعنوان الذي يمثل عتبة النص: " **الإسلام الذاتي والإسلام الوراثي أيهما ينهض بالأمم ؟**"

يتمحور هذا العنوان على صيغة وضعت للدلالة على الاستفهام، إلا أن القوة الإنجازية لهذه الصيغة لا تدل على معنى الاستفهام الحقيقي وإنّما تعبر عن معنى إضافي مستلزم هو الإنكار.

1- محمد مفتاح: دينامية النص، ص 51.

فبهذه الصيغة الإنكارية يتحول هذا الخطاب الذي بين أيدينا إلى رسالة رفض وإنكار مفتوحة موجهة من عبد الحميد بن باديس إلى كل مسلم يدعي انتسابه إلى الإسلام، ولكنّه لم يتعلم يوما شيئا عن هذا الإسلام .

فهو ينكر عليه تمسكه بهذا الدين دون أن يتغلغل في أعماقه ليتعلم (أصوله ومبادئه وأحكامه ومقاصده...)، كما يرفض ابن باديس أن يكون المسلم مسلما بالوراثة فيكون إسلامه مجرد حركات تعبدية ورثها عن آبائه وأجداده وهو ما أطلق عليه اسم "الإسلام الوراثي" وهو إسلام معظم عوام الأمة الإسلامية .

وفي المقابل نجده يأخذ بيد كل مسلم ليعرفه بالإسلام الحقيقي وهو " الإسلام الذاتي " وهذا ما عبر عنه بقوله: « هذا الإسلام الذاتي هو الذي أمرنا الله به ... » .

فالقوة الإنجازية الحرفية التي تضمنها الفعل أمرنا غرضها هو الطلب على وجه الاستعلاء وذلك بالنظر إلى طرفي العملية التخاطبية:

اللـــه	**أمرنـــا بذلـك**
↓	↓
الآمر أعلى	تحيل إلى المسلمين
↓	↓
مرتبة من المأمور	أدنى مرتبة من الآمر

وإذا ما تتبعنا المسار التداولي لهذا النموذج نخلص إلى أن شرط الإخلاص قد تحقق ويتمثل في رغبة ابن باديس الصادقة في توجيه المخاطب للامتثال والإذعان لكل ما يأمرنا به الله تعالى من تعاليم، وما يصدره عز وجل من أوامر واجب التنفيذ ومن ثمة فإنّ المطابقة كانت من العالم إلى الكلمات.

أما **الفعل التأثيري** أو **الفعل الناتج** عن هذا القول فيهدف إلى التأثير في سلوك المسلم وتوجيهه إلى ضرورة تعلم أصول دينه، ليكون إيمانه على يقين وليس مجرد طقوس تؤدى في مناسبات أو أوقات مخصوصة .

ويؤكد ابن باديس على هذه المقاصد من خلال القول الآتي «إذا ! فنحن – المسلمين – مطالبون دينيا بأن نكون مسلمين، إسلاما ذاتيا ».

ومن هذا المنطلق يتبين لنا أن الكاتب قد اعتمد في إستراتيجيته الخطابية على الصراحة والمباشرة والوضوح وهذه الصفات تحدد الإطار الذي يكون فيه الكلام مناسبا للسياق، وهي الصفات والشروط ذاتها التي أطلق عليها أوستين "**شروط النجاح**" « والإخلال بأي شرط منها يؤدي إلى نمط من أنماط الفشل ، كأن يكون الفعل منعدما أو حشويا ، أو ليس له أي تأثير ». [1]

ويتدرج ابن باديس في طرحه الخطابي من خلال توجيه السؤال الآتي :

« فبماذا نتوصل إلى هذا الواجب المفروض ؟ »

إن الجملة التي بين أيدينا تتضمن استفهاما، يقتضي الإعلام أو الاستخبار عن شيء مجهول أو غير معلوم إلا أنه وباعتماد مبدأ التعاون عند غرايس يتضح لنا أن هذه الإستراتيجية التوجيهية التي تتمثل في صيغة الاستفهام قد أنجزت في سياق محدد تخرج بمقتضاه إلى معنى إضافي مستلزم هو " **النصح والإرشاد**".

فابن باديس بصدد إرشاد الناس وتوجيههم إلى أن السبيل الوحيد للتوصل إلى هذا الواجب الديني المفروض عليهم هو " التعليم " .

وسنحاول تلخيص الإستراتيجية التوجيهية التي اعتمدها ابن باديس في هذا النموذج من خلال المخطط الآتي :

1- ينظر: نادية رمضان النجار: الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، ص 58.

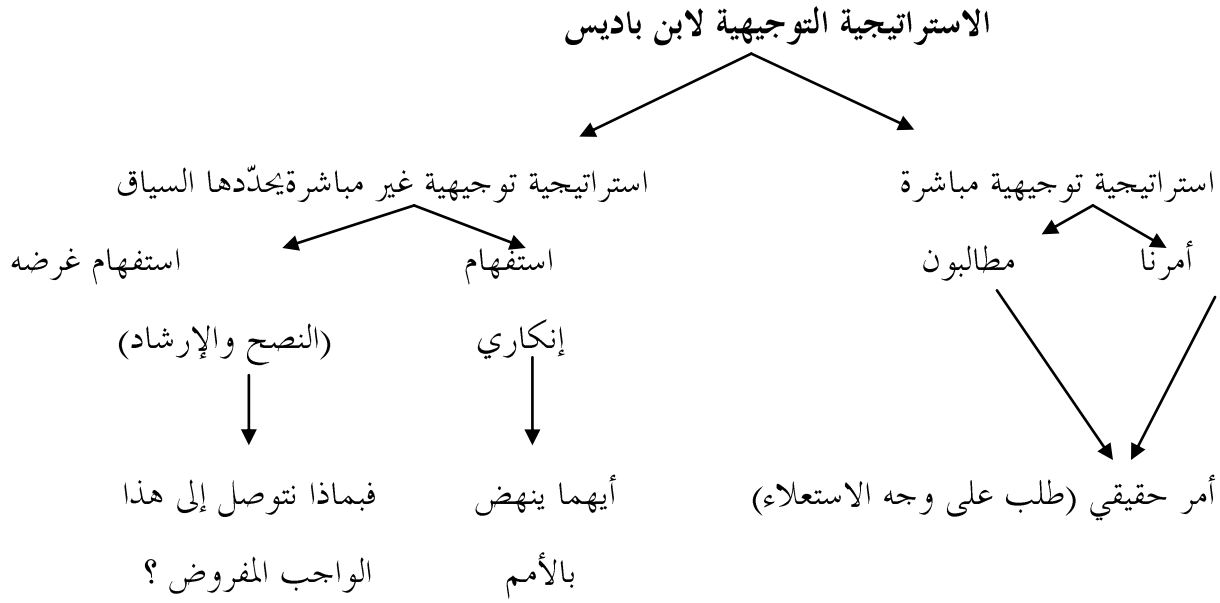

وبما أن **سورل** قد عمد إلى تطوير شروط الملاءمة عند أستاذه **أوستين** ، فسنحاول تطبيق هـــذه الشروط على ما ورد في هذا النموذج وهذا ما سنكشف عنه من خلال المخطط الآتي:

– شروط الملاءمة عند سورل:[1]

شرط المحتوى القضوي	الشرط التمهيدي	شرط الإخلاص	الشرط الأساسي
المتحدث عنه : المسلم الجزائري وغير الجزائري الخبر : التفريق بين الإسلام الذاتي والوراثي وضرورة التمسك بالإسلام الذاتي واعتبار ذلك واجبا دينيا نصل إليه بـــ "التعليم"	* ويتحقق إذا كان المسلم سيلتزم بكل ما كلف به مستقبلا	ويتمثل في رغبة ابن باديس الصادقة في تبليغ هذه الأوامر	ويتمثل في محاولة ابن باديس التأثير في الناس لتعلم دينهم ليحل الإسلام الذاتي محل الإسلام الوراثي

ومن هنا يمكننا القول إن هذا النموذج قد اشتمل على الكثير من الخصائص التداولية، نظرا لما يتوفر عليه من صيغ دالة على الأمر، والاستفهام كما اتسمت لغته بالبساطة والوضوح والمباشرة، والابتعاد عن

1- فصل محمود أحمد نحلة في هذه الشروط، انظر كتابه: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 48.

الحشو والغموض ليكون لكلامه تأثير ووقع في نفوس السامعين، ومن ثمة تحصل الإفادة، ويتحقق الهدف المنشود.

بالإضافة إلى أن المقصد الأول الذي كان يسعى إليه هذا العلامة هو توجيه الناس إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، ولا يحصل هذا النفع إلا إذا انصاع المسلم لأوامر دينه والتي تحث أساسا على التعليم لخدمة هذه الرسالة النبيلة « لقد آمن ابن باديس بالعلم والتعليم وسيلة مثلى لإحياء الأمة ومقاومة القابلية للاستعمار ، وهو أساس أي عمل إصلاحي يستهدف تغيير واقع المجتمع إلى ما فيه صلاح البلاد والعباد... ».[1]

كما حرص ابن باديس على أن يكون التعليم شاملا لكل الفئات العمرية ،ولاسيما فئة الأطفال الذين هم أمل الأمة ورجاءها وقد خاطبهم في هذا النموذج الذي يحمل العنوان الآتي:

ج–عنوان النموذج: "حديقة الأدب من المنثور والمنظوم، اليوم وقبل اليوم تحية المولد الكريم":

يَانَشءُ أَنْتَ (رَجَاؤُنَا) وَبِكَ (الصَّبَاحُ) قَدِ اقْتَرَبْ
خُذْ لِلحَيَاةِ سِلاَحَهَا وَخُضِ الخُطُوبَ وَلاَ تَهَبْ
وَارْفعْ مَنَارَ الْعَدْلِ وَالإِ حْسَانِ وَاصْدُمْ مَنْ غَصَبْ
وَأَذِقْ نفُوسَ الظَّالِمِينَ السم يُمْزَج بالرَّهَبْ
وأقلع جذور الخائنين فمنهم كلّ العطب
وَاهْزُزْ نفوسَ الجَامِدينَ فَرُبَّمَا حَيّ الْخَشَبْ

تكشف لنا هذه الوصلة الشعرية عن جانب آخر من شخصية عبد الحميد بن باديس ، فبالإضافة إلى براعته في مجال النثر نلمس براعة ومقدرة أخرى في مجال الشعر.

لقد مزج ابن باديس الشاعر في هذا الخطاب بين مطالب إنسانية مشروعة وعادلة وبين قيم مؤثرة ، فغلب على النص الطابع الحماسي والانفعالي وذلك بالمصاهرة بين ما هو واقعي وتخييلي.

1 – عمار بن مزوز: عبد الحميد بن باديس وجهوده في الدعوة والإصلاح ، ص 164 .

ويوظف هنا لغة تقترب من اللغة المتداولة ليكيف خطابه على قدر عقول مخاطبيه وهم (الناشئة) لاستنهاض هممهم وإذكاء جذوة الحماس في نفوسهم ، ليهيئهم لحمل لواء الجهاد مستقبلا لأنهم أمل الأمة ورجاؤها وهذا ما يؤكده بقوله:

يَـــــــانَشءُ أَنْـــتَ (رَجَـــاؤُنَـــا) وَبِـــــــــكَ (الصَّبَـــاحُ) قَـــدِ اقْـــتَرَبْ

إن فحص بنية هذا البيت الشعري يوقفنا على خصوصية " أسلوب النداء " الذي استهل به هذا النموذج

والنداء باعتباره فعلا لغويا قد أدى غرضين تداوليين في الوقت نفسه.

أما **الغرض الأول**: فهو غرض إنجازي مباشر يتمثل في "التنبيه" أو "لفت انتباه المخاطب" لإشراكه في فحوى الخطاب.

وأما **الغرض الثاني**: فهو غرض إنجازي غير مباشر يرمي إلى معنى مستلزما إضافيا هو الرجاء والاستعطاف والقرينة اللغوية الدالة على ذلك قوله: أنت (رجاؤنا).

وهذا النداء الموجه لفئة الصغار يكشف عن إستراتيجية تربوية بعيدة يتأسس عليها المشروع الإصلاحي لابن باديس هذا المشروع الذي يسعى بجد إلى : « تكوين جيل مسلح بالعقيدة الإسلامية المتينة، والوطنية الصادقة، والمعرفة العلمية، متشبع بالفكر الإصلاحي، قادر على مقاومة الانحراف، ومظاهر الجمود والخنوع واليأس، المتفشية في المجتمع، متمكن من الإسهام في تغيير واقع أمته، والسير بهذا الواقع في الاتجاه الذي يستجيب لمتطلبات الكفاح من أجل إثبات الذات ، والذود عن الكرامة والشخصية الوطنية التي كانت الإدارة الاستعمارية تسعى للنيل منها وتدمير الأركان التي تقوم عليها»[1].

ويهدف الشاعر من وراء هذه التعبئة الثورية أن تظل مستمرة ومتواصلة جيلا بعد جيل «... حتى يبقى التواصل بين الماضي والحاضر، والسلف والخلف قائما متلاحما، وحتى تجعل الأجيال من هذا التواصل دعامة لبناء المستقبل ».[2]

1- عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان : إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ، ص 234 .

2- المرجع نفسه، ص 05.

وتتضمن القوة الإنجازية لأسلوب النداء غرض الرجاء والاستعطاف ،والمطابقة كانت من العالم إلى الكلمات، أما عن **الفعل التأثيري** أو **الفعل الناتج عن القول** فهو متحقق، لأن ابن باديس كان صادقا في مشاعره وأقواله.

فقد عبّر بإخلاص عن تجربة شعورية ومأساة إنسانية عايش هو نفسه تفاصيل أحداثها، فتأثر بها أيما تأثر.

ومن التوجيهات البارزة في هذا النموذج سلسلة الأفعال الأمرية المتواترة في فضاء هذا الخطاب وتتجلى في قوله: {خذ، خض، ارفع، اصدم، أذق واقلع، واهزز}.

وردت هذه الأفعال على وزن " افعل " وغرضها الحقيقي إلزام المتكلم المخاطب القيام بفعل ما في المستقبل، لكن وبالنظر إلى الاعتبارات المقامية فإن المعنى المتحقق من التركيب لا يدل على الغرض السابق، وإنما يحمل غرضا إنجازيا مستلزما هو "التشجيع والتحفيز" أي تحفيز الناشئة على السير قدما لحمل راية الجهاد، فيكون ذلك عاملا من عوامل اليقظة التي تؤثر في نمطهم الفكري فيثوروا على الأوضاع السائدة.

ويبرز في جسد هذه المقطوعة الشعرية " التنغيم " كملمح تداولي وقد أضفى على مضمون النص قوة في الدلالة، وبما أن النغمة أربعة مستويات: " النغمة المنخفضة، النغمة العادية، والنغمة العالية والنغمة فوق العالية ". [1]

وعليه فإن هذا النموذج يندرج ضمن النغمة فوق العالية لأن هذه النغمة تكون مصاحبة بالانفعالات التي يبديها المتكلم، وتبرز أيضا مع صيغ الأمر، وهذا ما يحاكي الحالة النفسية والشعورية لابن باديس المشحونة بروح الوطنية وحبّ التغيير.

كما أن هذه النغمة المتصاعدة تنسجم مع إيقاع القصيدة وهو "إيقاع ثوري عنيف".[2]

والتنغيم من وجهة نظر سيرل هو دليل على القوة المتضمنة في الفعل ويسميه – دليل القوة الإنجازية.[3]

---

1 – www.abtisama.com

2 – محمد مفتاح : دينامية النص ، ص 63 .

3 – محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 47 .

كما يمتزج في فضاء هذا الخطاب الفعل المضارع والفعل الماضي بالإضافة إلى فعل الأمـــر، وإن كان حضور المضارع والماضي بنسبة أقلّ مقارنة بالأمر.

واللافت للانتباه أن هذه الأفعال عُرِضَتْ في تدرج مرحلي قصد تحديد المهام الملقاة على كاهل الناشئة، والمبادئ التي يجب أن يشبُّوا عليها ليكونوا رجال المستقبل وحماة الوطن.

وأما فيما يخص الفعل الماضي (قد اقتربت) وإن كانت صيغته تدل على ما مضى وانتهى إلاّ أنّ السياق الذي ورد فيه فرض عليه دلالة جديدة وهي دلالة الاستقبال، فقد حملت قوته الإنجازية معـــنى الرجاء أي رجاء انبلاج الصبح بعد ليل الاستعمار الطويل والحالك.

أما صيغة النهي (لا تهب) وبإنعام النظر في غرضها الإنجازي يتبين لنا أنها مَنْزِلَةُ تأكيد وإثبات للغـــرض السابق وهو (التحفيز والتشجيع) أي تحفيز النشء على خوض الصعاب دون رهبة أو خوف ليغرس فيهم روح التحدي والصبر والإرادة من أجل بلوغ الهدف المنشود .

وتنوع الأزمنة في فضاء هذا الخطاب يرمز إلى التحول من وضع ابتدائي النشء هم رجاء الأمـــة وصناع مستقبلها وبهم يتحقق استقلال (الوطن)، إلى وضع نهائي (لا بد لهذا النشء أن يأخذ بأســـباب النصر والتمكين لتحقيق هذا الرجاء).

« ومع أن الشاعر استعمل أفعالا مختلفة زعزعت انسجام النص ، فإنها صنعت خصبه وحركته وتطوره وثراء رسالته ».[1]

وما نخلص إليه أن هذا النموذج وغيره من النماذج المختارة يعد تداوليا في صميمه، نظرا لمـــا يتضمنه من أغراض ومقاصد متعددة كشفت عنها صيغ الأفعال المختلفة ، وقد كان أسلوب النداء أكثر الأفعال الإنجازية بروزا وتجليا لأنه حول هذا النص إلى رسالة ثورية تعبق بحب الوطن والإخلاص له .

وقد وظف ابن باديس لغة شعرية تتميز بالبساطة والوضوح والسلاسة وهي اللغة التي يراهن عليها كثير من شعراء الحداثة، وكأن بهذه اللغة الشعرية هي سمة ذلك التصور الـــذي عرضـــه جـــون كـــوهين

1 – محمد مفتاح : دينامية النص ، ص 68 .

JohnCohen في تمييزه بين لغة التخاطب اليومي ولغة الشعر، إن هذه الأخيرة حسبها حاجة الناس إليها فتلفهم بعباءتها وتجعلهم يتنسمون أريجها وهم محاطون بها. [1]

ويستمر هذا المصلح في نشر فلسفته الإصلاحية، هذه الفلسفة التي تنشد التغيير الدائم والتجدد المتواصل، وتهدف إلى إصلاح الفرد والمجتمع على نهج كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقد عقد العزم على تعليم الكبار والصغار أصول دينهم من تفسير وفقه وحديث، بالإضافة إلى بعض العلوم اللغوية وغير اللغوية كتعليم مبادئ الجغرافيا والحساب، وهذا **المضمون التربوي التعليمي** هو الذي سنميط اللثام عنه من خلال تحليلنا للصنف الثالث من الأفعال الكلامية وهو الالتزاميات.

3- الالتزاميات:

ويندرج تحت هذا الصنف النموذج الذي يحمل العنوان الآتي:

أ- عنوان النموذج" عبداويون " ثم " وهابيون " ثم ماذا ؟ لا ندري والله":

« **لما قفلنا من الحجاز وحللنا بقسنطينة ... وعزمنا على القيام بالتدريس أدخلنا في برنامج دروسنا تعليم اللغة وآدابها والتفسير والحديث والأصول ومبادئ التاريخ ومبادئ الجغرافية ومبادئ الحساب وغير هذا، ورأينا لزوم تقسيم المعلمين إلى طبقات** ... ».

وردت أغلب الأفعال في هذا النموذج بصيغة الماضي. لتفيد قوتها الإنجازية سرد وتقرير أحداث وقعت في زمن مضى وانتهى وهذه الأفعال هي: {قفلنا – حللنا – عزمنا – أدخلنا – رأينا }.

ويتضح لنا أن الفعل عزمنا قد تضمن قوة إنجازية حرفية وأخرى مستلزمة. فأما الحرفية فقد دلت عليها صيغة الماضي (السرد والتقرير)،وأما المستلزمة فقد كشفت عنها جملة القرائن المقامية والمقالية، والتي عبرت عن المقاصد التداولية لابن باديس والمتمثلة في فعل " الوعد " وهو الوعد الذي قطعه ابن باديس على نفسه يوم كان متواجدا في المدينة المنورة مع رفيق دربه البشير الإبراهيمي، حيث أجمعا على وضع خطة واستراتيجية تربوية تعليمية تهدف إلى تكوين الناشئة، وإعداد رجال المستقبل القادرين على حماية الوطن والحفاظ على مقومات الأمة.

---

1 – ينظر صلاح فضل : شفرات النص ، دراسة سيميولوجية في شعرية القص والقصيد ، دار الآداب القاهرة ، ط1 ، 1999 ، ص62 .

وفي هذا السياق يصرح البشير الإبراهيمي قائلا : « كانت الخطة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة المنورة (1913) في تربية النشء هي ألا نتوسع في العلم ، وإنما نربيه على فكره صحيحة ، ولو مع قليل فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا ...". [1]

يفهم من القول السابق أن الكاتب قد عقد العزم وهو خارج الوطن على أن يعود إلى مسقط رأسه (قسنطينة) ليجعل منها منارة للعلم والمعرفة، فسخر بياض يومه وسواد ليله لخدمة هذه الرسالة النبيلة، من خلال إنشاء المدارس، وتقديم الدروس والمواعظ في المساجد، وتأسيس النوادي الأدبية، بل أكثر من كل هذا وذاك فقد كان يعمل جاهدا لتأسيس الجرائد والمجلات ونشر الفكر الإصلاحي والتشهير بالقضية الجزائرية لإيصال صوتها للعالم، وهذه الجهود ظلت منضوية تحت لواء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي تولّى هو نفسه تأسيسها.

بناء على هذا الطرح نخلص إلى أن الفعل الإنجازي الوعد فعل متحقق، وأن التلفظ كان مطابقا للعالم، وأما شرط الإخلاص فيتمثل في القصد ونعني به صدق نية ابن باديس وعزمه على تنفيذ وعوده، وقد تجسد ذلك في عبارة البشير الإبراهيمي السابقة « فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا ... ».

وإذا ما تأملنا بنية الأسماء في هذا النموذج نلاحظ توظيف ابن باديس للفظ " لزوم " وهذا اللفظ يمثّل مصدرا يمكن تعويضه بالفعل الصريح **لزم** وعليه فإن الغرض الإنجازي لهذا المصدر هو "**الوعد**".

أما فيما يخص الجمل المشكلة لنسيج هذا الخطاب فهي جمل خبرية وتتضمن هذه الجمل محتوى قضويا يتعلق بطريقة ابن باديس في التدريس، وقد عبر عن هذا المحتوى القضوي الفعلين الماضيين "ورأينا" يقول ابن باديس «**أدخلنا** في برنامج دروسنا تعليم اللغة وأدبها والتفسير والحديث... **ورأينا** لزوم تقسيم المعلمين إلى طبقات».

ومن هذا المنطلق يمكن أن نوجز الإستراتيجية التعليمية لهذا المصلح على أنها تقوم على الدعامتين الآتيتين:

1- ينظر تركي رابح عمارة: الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة ، موفم للنشر، الجزائر، ط 2، 2013، ص 71

« – التربية العلمية عن طريق التدريس لتلامذته

– التربية الأخلاقية عن طريق ضرب المثل والقدوة .... » .[1]

وهذه المبادئ التي اعتمدها ابن باديس قديما في حقل التدريس تعد في العصر الحالي من صميم التوجهات الحديثة في ميدان التربية والتعليم ،ويتجلى **المضمون التربـــوي التعليمـــي** في الخطـــاب الإصلاحي من خلال النموذج الذي يحمل العنوان الآتي :

ب– عنوان النموذج" الرجل المسلم الجزائري".

يقول ابن باديس:«... **نرى حقا علينا بعدما تكلمنا على الرجل المسلم الجزائري أن نتكلم شيئا عن المرأة المسلمة الجزائرية من نواحيها الثلاث أيضا ... فعلينا أن نعلمها ما تحتاج إليـــه ... فعلينـــا أن نعلمها ما تكون به مسلمة** ... ».

يكشف هذا النموذج وغيره من النماذج عما يمتلكه ابن باديس من طاقات تعبيرية هائلة مكنته من اختيار أدواته اللغوية للتعبير عن مقاصده بحرية تامة .

فقد عبر في هذا النموذج عن غرض إنجازي واحد هو **الوعد** موظفا شكلين لغويين مختلفين ويتجلى ذلك من خلال المخطط الآتي:

فعل الوعد ←
- نرى حقا علينا ... أن نتكلم شيئا عن المرأة المسلمة الجزائرية
- فعلينا أن نعلمها ما تحتاج إليه
- فعلينا أن نعلمها ما تكون به مسلمة

وانطلاقا من هذا الرسم التوضيحي يتبين لنا أن هذا الخطاب ينطوي على ثلاث التزاميات:

– **فالالتزام الأول:** يبرز مدى اهتمام ابن باديس بقضية المرأة باعتبارها قضية جوهرية لا تقل أهمية عن قضية الرجل.

– **أما الالتزام الثاني:** فيتلخص في الوعد الذي قطعه (ابن باديس)على نفسه بضرورة تعليم المرأة كل ما تحتاج إليه في هذه الحياة،أي تعليمها ما يساعدها على تأدية وظيفتها كأنثى داخل المجتمع.

1– تركي رابح عمامرة : الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ص 71 .

-وأما **الالتزام الثالث:** ويتمثل في الواجب الذي أوكله لنفسه على أن يعلمها أمور دينها، وما تكون به مسلمة.

وبما أن للمؤشرات السياقية دورا بارزا في استقصاء المعاني الحافة للخطاب، فإنّه لا مناص من وجوب النظر في جملة القرائن المقامية والمقالية لهذا الخطاب، بغية كشف ظروف وملابسات انتاجه، باعتبار أن البينة السطحية للنص ما هي إلا محطة عبور للوصول إلى المعنى الإضافي أو المستلزم لفعل القول وإلى المقاصد الحقيقية للمتكلم.

وإذا ما نقبنا البحث في تضاعيف الكتب التاريخية المتعلقة بسيرة هذا المصلح ، فإننا نجد أن هذا النموذج مقتطف من محاضرة ألقاها (ابن باديس) في الجزائر العاصمة « خلال شهر أوت عام 1929 وقد كانت من بين المواضيع التي تدور حولها المناقشات آنذاك في الأوساط المفرنسة هو دعوة المرأة الجزائرية إلى الدراسة في المدارس الفرنسية » .[1]

وقد كشف ابن باديس حقيقة هذه الدعوات، وما تنطوي عليه من نوايا سيئة ، تسعى إلى فرنسة المرأة الجزائرية، وتعليمها تعليما أجنبيا يبعدها عن تعاليم دينها وينأى بها عن تقاليد مجتمعها، فتصبح نموذجا مستنسخا من المرأة الغربية.

حيث عمل جاهدا للتصدى لهذه الحملات المسعورة ، فأنشأ المدارس والمعاهد ودعا إلى تعليم المرأة تعليما دينيا يمكنها من أداء رسالتها في الحياة كما ارتضتها لها الشريعة الإسلامية السمحاء « ... والواقع أن ابن باديس كان واعيا بأهمية تعليم المرأة الجزائرية وإن كان قد قصر تعلمها على الزاوية الدينية، والدليل على اهتمامه بقضية تعلم المرأة الجزائرية أنه عندما أنشأت جمعية التربية والتعليم الإسلامية مكتبا لتعلم البنين والبنات فإنه أجاز التعليم المجاني للبنات سواء القادرات أو العاجزات منهن عن دفع النفقات...».[2]

وسنحاول تلخيص أهم الملامح التداولية لهذا النموذج من خلال المخطط الآتي:

1 – محمد الميلي : ابن باديس وعروبة الجزائر ، ص 119 .

2 – محمد بهي الدين سالم : ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير ، ص 108 .

العناصر التداولية لهذا النموذج

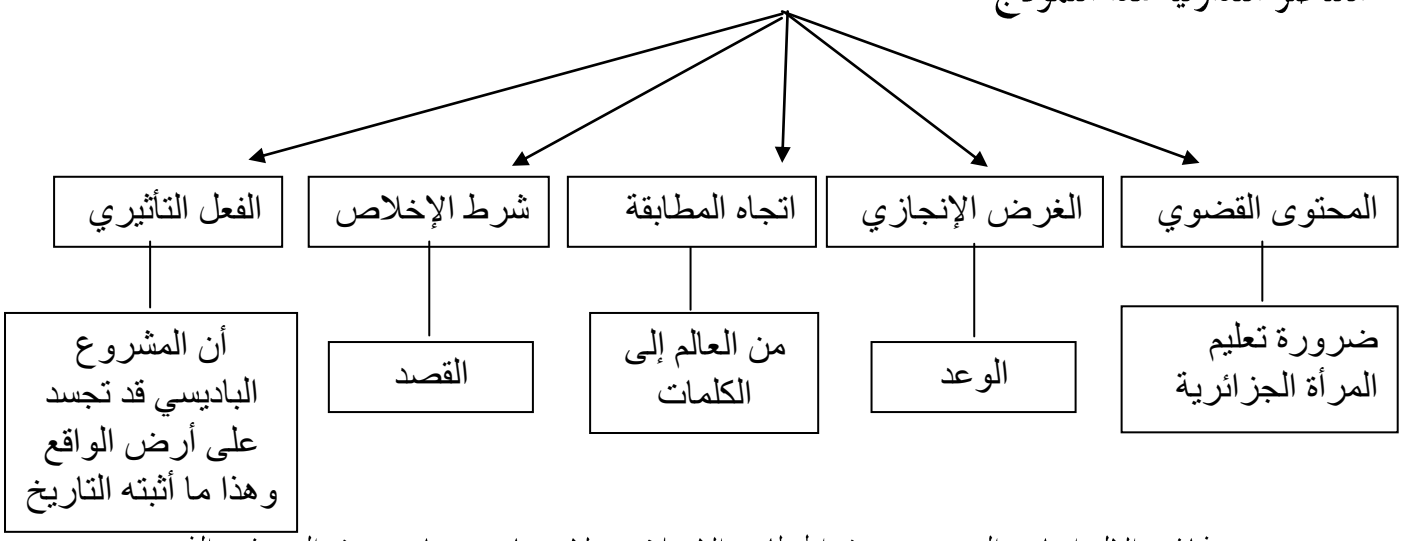

ومن نماذج الالتزاميات التي وردت في الخطاب الإصلاحي لابن باديس ما ورد في النموذج الذي يحمل العنوان الآتي:

ج- عنوان النموذج "فاتحة السنة الخامسة عشرة":

« ... **هذا وإننا نجدد العهد بيننا وبين قرائنا على السير على ما عرفوه فينا من صـــدق وصـــراحة وقصد للخير** ... ».

ويمكن تلخيص عناصره التداولية من خلال الجدول الآتي :

المحتوى القضوي	الغـــرض الإنجازي	اتجـــــاه المطابقة	شرط الإخلاص	الفعل التأثيري	نمط الإنجاز
" وإننا نجدد العهد بيننا وبين قرائنـــا على ما عرفوه فينا من صدق ..."	الوعد	من العـــالم إلى الكلمات	رغبة ابن باديس الصادقة في تنفيذ العهد الذي قطعه على نفسه	اهتمـــام القـــراء وشغفهم بنشاط ابن باديس ولذلك فهو يجدد لهـــم العهـــد لمواصلة السير	عـــدم خـــرق الشروط السابقة يؤدي إلى إنجاح الفعل وإنجـــازه إنجازا موفقا ...

ما يمكن أن نستخلصه من الجدول الموضح أعلاه أن الكاتب قد اعتمد استراتيجية توجيهيـــة في تأدية فعل الوعد . وإن كان استعمل لفظ " العهد " بلفظ صريح وبصيغة المصدر بدل الفعل المضارع " أتعهد" المسند إلى ضمير المتكلم لأن الأفعال الأدائية حسب أوستين هو كل فعل مسند إلى ضمير المتكلم في الزمن.

الحاضر وتكون مبنية للمعلوم، [1] وعليه فيمكن القول « أن الأدائيات الصريحة أيسر لأنها تعلن عن نفسها في كل سياق تقال فيه".[2] ولا شك أن الإستراتيجية التعبيرية المباشرة تكشف بيســـر عـــن مقاصد المتكلم، وهذا ما يصدق على المضامين الإصلاحية لهذا المصلح .

وقد أجمل ابن باديس لفظ العهد في بداية الخطاب ثم راح يفصل في متن الخطاب فيما سيتعهد به مستقبلا ، وهذا ما سنكشف عنه من خلال هذا المخطط :

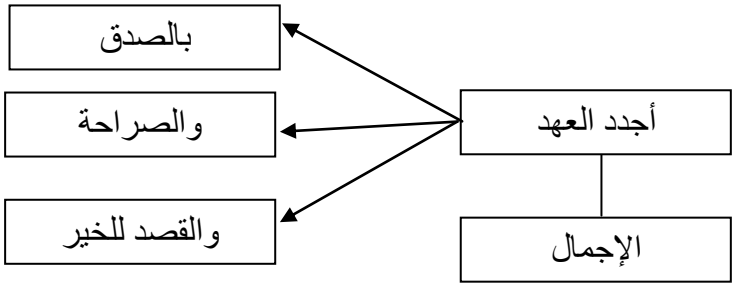

بهذه العلاقة الدلالية المنطقية (الإجمال والتفصيل) يتحول النص الذي بين أيدينا إلى فعل إنجازي واحد هو " الوعد ".

1- آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص 31 .

2- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 67 .

وإنشاء الوعد في الغالب يرتبط بسياق "يعتقد فيه الواعد أن المخاطب يتطلع إلى هـــذا الوعـــد ويتعلق به"[1].

وهذا ما ينطبق على قراء عبد الحميد بن باديس فقد عودهم على التزام الصدق والصراحة والقصد للخير في كل ما يقوله ويكتبه ويخطط لإنجازه، والقرينة اللغوية الدالة على هذا القصد هو الفعل الماضي (عرفوه)، وإن كانت صيغة هذا الفعل قد حملت غرضا إنجازيا مباشرا يتمثل في التقرير والتأكيد، إلا أن وروده في هذا السياق جعله يحمل معنى إضافيا مستلزما وهو الحال والاستقبال، أي أن ابن باديس اشتهر في أوساط قرائه بهذه الفضائل التي ستظل لصيقة به طيلة مسيرته النضالية، لأن فعل الوعد يتعلـــق بمـــا يستقبل من الزمن والتزام ابن باديس بالصفات السابقة (الصدق والصراحة والقصد للخير) كل هـــذه المبادئ يمكن إدراجها ضمن " قواعد الكفاءة التداولية" التي صاغتها روبين لايكوف بعد دمج القاعدتين كما يلي: [2]

1- كن واضحا ⟵ (الصراحة)

2- كن مؤدبا ⟵ (الصدق والقصد للخير)

وما نخلص إليه أن هذه المبادئ التداولية (الصدق والصراحة والقصد للخير) من العوامل المســـاهمة في إنجاح الخطاب والتأثير في المتلقين واستمالتهم.

والتزم ابن باديس بهذه المبادئ السامية مكنته من إرساء مشروعه الإصلاحي على أسس قوية ومتينة ومتماسكة امتد تأثيرها للأجيال اللاحقة.

1- المرجع السابق ، ص ن.

2-ينظر طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص240. وانظر أيضا عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، ص 99 .

4- التعبيريات :

تندرج تحت هذا الصنف الأفعال التي تتضمن قوتها الإنجازية غرض التعبير عن المشاعر والعواطف والانفعالات النفسية، وهذا النوع من الأفعال ليس له اتجاه مطابقة أو ملاءمة وإنما الشرط فيه هو الصدق، والأفعال المعبرة عنه هي: أتأسف، أعتذر، أشكر، أكره ... .[1]

ومن نماذج التعبيريات في خطب ابن باديس النموذج الذي يحمل العنوان الآتي:

أ- عنوان النموذج « حول كلمتنا الصريحة »:

« **لقد أحدثت الكلمة الصريحة التي نشرناها بالعدد الأسبق من الشهاب أثرها المطلوب ، وكان لها الدوي العظيم الذي كنا نتوقعه لها ، فتلك كانت أول مرة فيما نعلم ، جوبهت فيها الحكومة وجوبه فيها رجال السياسة بحقيقة ، هي عين الحقيقة التي تعتقدها الأمة ، وفيها بيان لعواطف وإحساس وشعور الأغلبية المطلقة من سكان هذا الوطن الجزائري ، فأما الذين طهرت سريرتهم وخلصت نيتهم ، فقد حبذوا وشكروا لنا صراحتنا وحمدوا لنا هذا الموقف الذي وقفناه ضد محاولات التجنيس الخائبة** ... ».

يختلف هذا النموذج عن النماذج السابقة كونه يندرج ضمن **المضمون السياسي** : (التصدي لمحاولة التجنيس) .

ويستهل الكاتب خطابه بفعل تأثيري أشر له تركيبيا بالجملتين الآتيتين:

-« أحدثت الكلمة الصريحة ... أثرها ».

- « كان لها الدوي الذي كنا نتوقعه لها ... ».

ويعد ابن باديس هذا الفعل التأثيري بمثابة المقدمة التي يهدف من ورائها إلى إثارة ذاكرة المتلقي، لتنبيهه حول مضمون ما صرح به سابقا، وهذا بناء على خلفية معرفية مشتركة بينهما، ويتدرج في طرحه الخطابي من خلال سرد وقائع تتعلق بهذه " الكلمة الصريحة التي ألقاها " وقد عبر عن هذا الغرض الإنجازي من خلال سلسلة من الأفعال الكلامية الآتية (كانت، نعلم، جوبهت، جوبه، تعتقدها ...)

1 - جون سيرل : العقل واللغة والمجتمع ، ص 219 .

تدلّ هذه الأفعال على أن هناك " منازعة جدلية " [1] جرت لأول مرة بين ابن باديس وبين الحكومة ورجال السياسة وهذا النوع من المنازعات يبرز أكثر في الخطاب السياسي لأنّه : " يغلب على طرفيها المكابرة والمعاندة إذ يسيطر هاجس الظفر والغلبة على أطوار المنازعة ". [2]

والغرض من هذه المنازعة هو محاربة التجنيس وتقويض المشروع التغريبي الفرنسي، وبما أن الفعل الإنجازي هو " فعل سياقي بحيث لا يمكن أن ننظر إليه بمعزل عن السياق". [3]

فإن هذا النموذج يتنزل ضمن سياق تاريخي يتعلق **بمشروع فيوليت** الذي يهدف إلى المساواة بين الفرنسيين والجزائريين في بعض الحقوق مع فرض التجنيس « فعلى الرغم من قبول بعض الفئات الجزائرية (مشروع فيوليت) الذي يعطي بعض الحقوق للجزائريين الذين وافقوا على الإندماج إلا أن المستوطنين ومعهم حكام فرنسا رفضوا كل المطالب وقد نبه ابن باديس إلى خطورة سياسة الإدماج والتجنيس وحارب دعاتهما ... » . [4]

وقد أشار ابن باديس إلى ردود الأفعال المختلفة التي أحدثتها هذه الكلمة، وقد عبرت عن هذه الردود سلسلة الأفعال الكلامية الآتية: « طهرت، خلصت، حبذوا، شكروا، حمدوا ... ».

و تتضمن هذه الأفعال الماضية غرضا إنجازيا مباشرا هو السرد والتقرير، وغرضا إنجازيا مستلزما هو الشكر والمدح الذي خصّ بهما ابن باديس نتيجة تصديه للمخططات الاستعمارية الدنيئة .

و يعبّر الشكر والمدح عن مواقف نفسية وحالات شعورية ولذلك نجد أن هذا النموذج يمثّل هذا الصنف من التعبيريات، وسنوجز أهم الملامح التداولية لهذا **المضمون السياسي** من خلال الجدول الآتي :

التعبيريات	الغرض الإنجازي	اتجاه المطابقة	شرط الإخلاص	نمط الإنجاز
بيان لعواطف وإحساس وشعور الأغلبية	التعبير عن حالة شعورية تتمثل في	يخلو هذا الصنف من الأفعال من	متحقق وأصدق مثال على ذلك	بتوفر الشروط السابقة يكون أداء

1- نور الدين اجعيط : تداوليات الخطاب السياسي ، ص 15 .

2- المرجع نفسه، ص ن.

3- نادية رمضان النجار : الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي ، ص 58

4- ينظر عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان : إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ، ص 146.

-حبذوا خطتنا -شكرو لنا صراحتنا حمدوا لنا هذا الموقف	الشكر والمدح	اتجاه مطابقة حسب سورل	التفاف الناس حول مشروع ابن باديس الإصلاحي	الفعل موقفا

وتستمر الجهود الإصلاحية لابن باديس في الميدان **السياسي** ، وهذا ما سنكشف عنه من خلال النموذج الذي يحمل العنوان الآتي :

ب- عنوان النموذج" سياسة وخز الدبابيس":

« **لا ننكر أننا من المعجبين بالآداب الفرنسية ، ولا ننكر أننا مع المعجبين فوق ذلك بالصحافة الفرنسية الكبرى ، وما لها من بديع نظام ، ومهرة أقلام ، وجرأة و إقدام ، لهذا يؤلمنا ويزعجنا ويملأ أنفسنا حسرة وإشفاقا أن نرى الآداب الفرنسية وأن نرى الصحافة الفرنسية الكبرى تنحط أحيانا إلى دركة الهذر واللغو والسخافة وتنغمس في حمأة التعصب الممقوت المظلم فتنكر على غيرها ما تستحسنه لنفسها...".**

ويحمل هذا النموذج الأبعاد التداولية الآتية:

1- **المحتوى القضوي:** ويتمثل في القضية المعبر عنها في هذا النموذج، وتتعلق بحقوق الجزائريين المهضومة فما تنكره فرنسا عليهم ، تستحسنها هي لنفسها وهذا ما أطلق عليه ابن باديس بـ "التعصب الممقوت المظلم" رغم شعارها الكاذبة التي تروج لها الصحافة الفرنسية والمتمثلة في الأخوة والمساواة والعدالة.

2- **الغرض الإنجازي:** ويتمثل في التعبير عن واقع بائس يتمثل في القهر ، الظلم ، الاستبداد ، وقد عبرت عن هذه المآسي الأفعال الإنجازية الآتية : « يؤلمنا، يزعجنا، يملأ، تنحط، تنغمس، تنكر، تستحسن .. » وهي أفعال مضارعة حملت قوتها الإنجازية معنى حرفيا يتمثل في وصف الحال، ومعنى إضافيا مستلزما يتمثل في التعبير عن انفعالات نفسية تتمثل في الألم، الانزعاج، الحسرة، الإعجاب.

3- **اتجاه المطابقة** : يخلو هذا الصنف من اتجاه مطابقة لأنه يعبر عن محتوى قضوي يكون شرط الإخلاص فيه هو الصدق.

4- **نمط الإنجاز** : بتوفر الشروط السابقة يكون أداء الفعل أداء موفقا.

ويمكن أن نجسد مختلف المواقف الشعورية لابن باديس من خلال المخطط الآتي:

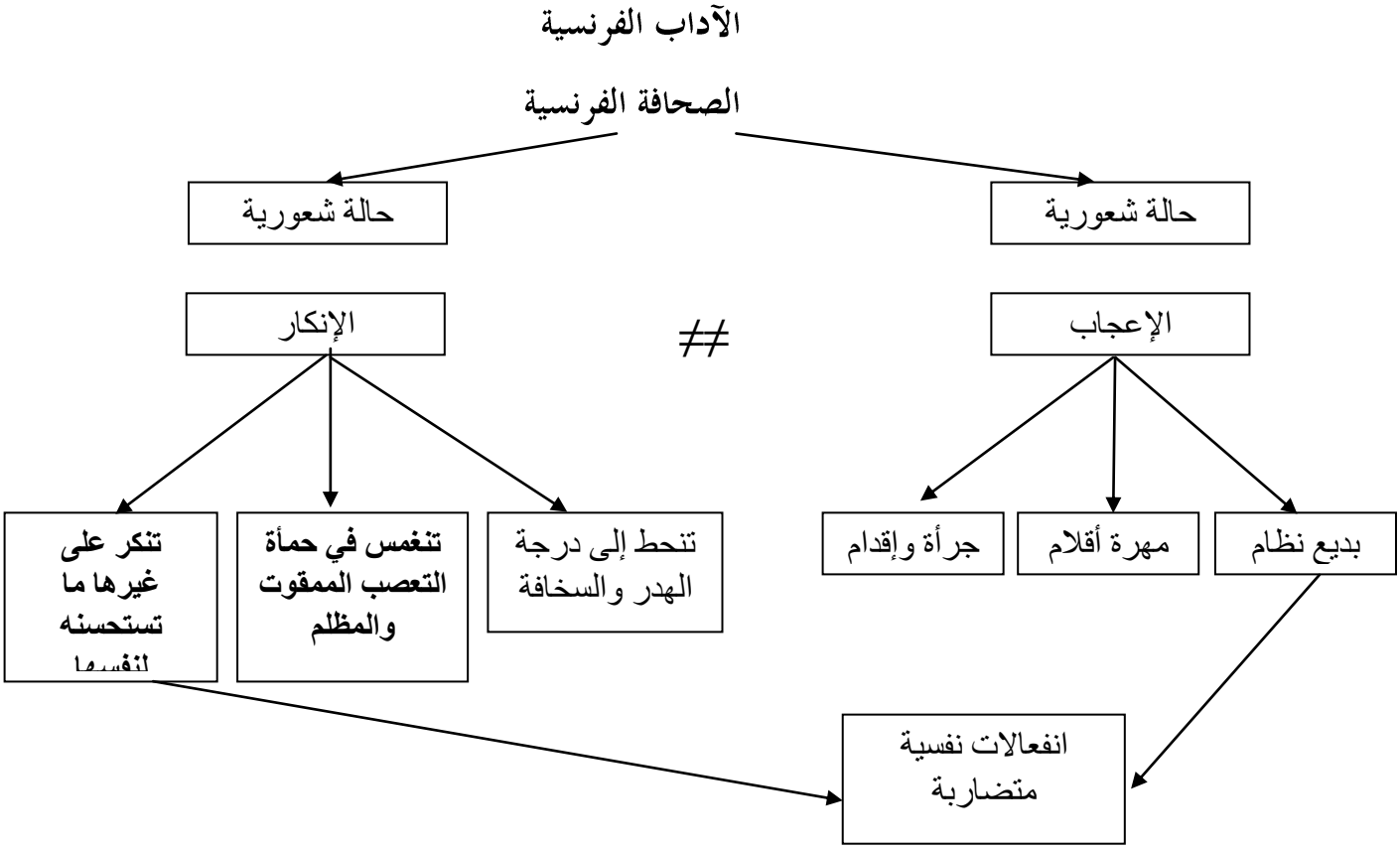

ويمكن توضيح كل هذه الانفعالات التي ينطوي عليها هذا النموذج من خلال الرسم الآتي:

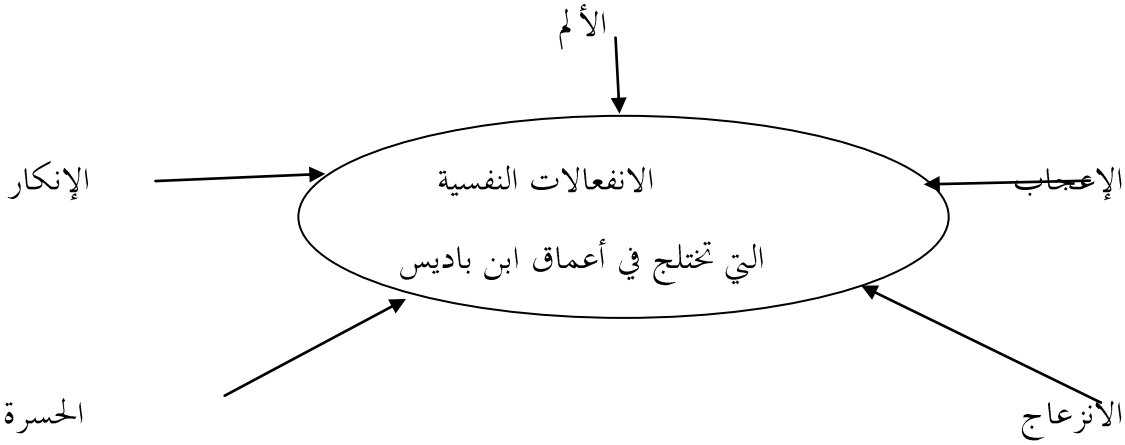

فقد رسمت هذه التعبيريات ملامح واقع بائس في ظل احتلال فرنسي غاشم ،تجرع الشعب الجزائـــري على يديه أصنافا من القهر والذل والعذاب.

5- الإعلانيات:

من سمات الإعلانيات الواردة في الخطاب الإصلاحي لابن باديس النموذج الذي يحمل العنوان الآتي :

أ-عنوان النموذج :بيان عن هلال شوال: "من جمعية العلماء المسلمين إلى المسلمين الجزائريين":

« .. ولما تحملنا هذه الشهادات قمنا فذهبت إلى فضيلة قاضي قسنطينة الشيخ محمد بن الساسي فأدينا عنه الشهادة ... فأصدر حكمه بدخول شهر شوال بالأحد ، وأعلن ذلك للناس ، وتولت هيئة جمعية العلماء توزيع الخبر بالبرقيات والتلفونات – كعادتها – على أنحاء القطر ».

والأفعال الواردة في هذا النموذج هي كالآتي: (تحملنا، قمنا، ذهبت، أدينا، أصدر، أعلن، تولت).

نلاحظ أن الفعل الماضي سجل حضورا بارزا ، وهذا ما يتلاءم وسياق التخاطب لأن ابن باديس بصدد سرد وقائع متصلة ببيان هلال شوال، ومن بين هذه الأفعال الماضية نجد أن الفعلين (أصدر / أعلن) تضمنت قوتهما غرضا إنجازيا هو " الإعلان "، والإعلانيات أو التصريحات تختص بالمرسل وما سيصدره للمتلقي من إعلانات أوتصريحات تتعلق بتغيير وضع أو موقف ما وأداءها الناجح يتمثل في مدى " مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي".[1]

ومن السمات الأخرى المميزة لها أنها تحدث تغييرا في الوضع القائم، واتجاه المطابقة فيها يكون مزدوجا أي من العالم إلى الكلمات ومن الكلمات إلى العالم ولا تحتاج لشرط الإخلاص.[2]

ونلاحظ أن الفعلين الإنجازيين (أعلن) و (أصدر) قد ارتبطا بالعرف الاجتماعي ولذلك يرى **سورل** « أن أداء الفعل الكلامي أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم، بل هو مرتبط أيضا بالعرف اللغوي والاجتماعي ».[3]

وحدّد أوستين الأسس التي يكون فيها الفعل الكلامي مناسبا للسياق الذي ورد فيه باعتباره فعلا عرفيا، وهذه الشروط هي:

« - الظروف والأشخاص المشاركون في إنجاز الفعل الكلامي

- مقاصد الأشخاص

1- محمود أحمد نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 50 .

2- المرجع نفسه ، ص ن.

3_ نادية رمضان النجار : الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي ، ص 58.

– نمط الإنتاج المرتبط بإنتاج الفعل الكلامي وقوليته»[1].

وإذا ما حاولنا تطبيق هذه الشروط على الفعلين الإنجازيين (أعلن)، (أصدر) فإننا نلاحظ ما يلي :

1– **الظروف:** السياق الذي تنزل فيه هذا الخطاب هو سياق تاريخي بالدرجة الأولى مرتبط تحديدا بحقبة استعمارية مظلمة، بالإضافة إلى سياق آخر ديني يتمثل في شهر رمضان والقرينة اللغوية الدالة على ذلك هو " هلال شوال ".

–**الأشخاص المشاركون في إنجاز الفعل الكلامي:** هو ابن باديـــس باعتباره الإمام ، والمصلح والمرشد ، وقاضي قسنطينة الشيخ محمد بن الساسي .

2– **مقاصد الأشخاص:** الإعلان عن بيان هلال شوال وهذا يعني الإعلان عن انقضاء شهر رمضـــان وحلول عيد الفطر المبارك.

3– **نمط الإنتاج المرتبط بإنتاج الفعل الكلامي وقوليته:** نلاحظ أن ابن باديس وظف الفعل " أعلـــن" بلفظ صريح ومباشر لتدل قوته الانجازية على إعلان حلول عيد الفطر، وهذا الإعلان قد أحدث تغييرا في الواقع (من الإمساك ⟵ إلى الإفطار)

(انقضاء رمضان ⟵ حلول عيد الفطر)

فكلما توفرت هذه االشروط كان الفعل ناجحا ، كلما اختلت هذه الشروط خفقت في تأدية الفعل.

ومن نماذج الإعلانيات النموذج الذي يحمل العنوان الآتي:

ب– عنوان النموذج "المجلة الزيتونية":

« ... كانت أول دعوة للإصلاح الإسلامي أعلنت في هذا الشمال الإفريقي على لسان الصـــحافة ... حتى جاء هذا العام المبارك فجاءت المجلة الزيتونية تعلن الإصلاح وتحمل رايته ... ».

وسنوجز عناصره التداولية في الجدول الآتي :

1– المرجع السابق ، ص ن.

الإعلانيات	الغرض الإنجازي	اتجاه المطابقة	شرط الإخلاص	نمط الإنجاز
-أعلنت في هذا الشمال الإفريقي ... - تعلن الإصلاح	إحداث تغيير في الوضع القائم من خلال إعلان الدعوة للإصلاح الإسلامي -إعلان المجلة الزيتونية للإصلاح وأنها ستحمل رايته	مطابقة المحتوى القضوي للعالم الخارجي فهي مطابقة مزدوجة من العالم إلى الكلمات ومن الكلمات إلى العالم	لا يحتاج هذا الصنف من الأفعال إلى شرط الإخلاص -حسب سورل-	بتوفر الشروط السابقة يكون أداء الفعل ناجحا

وانطلاقا من الجدول السابق نستنتج أن الفعل الكلامي الشامل الذي سيطر على هذا النموذج هو فعل "الإعلان" وهذا ما يستدعيه مقام التخاطب.

أما فيما يخص الأفعال الكلامية الجزئية (كانت – جاء – جاءت – تحمل) فقد كانت في خدمة هذا الغرض الشامل (الإعلان).

وقد استطاع ابن باديس بنفاذ بصيرته، وسعة اطلاعه، وامتلاكه لناصية اللغة وتحكمه في فنونها المختلفة أن يسخر قلمه وقرطاسه لخدمة مجتمعه، فكانت رسالته الإصلاحية وسيلته الوحيدة لإنشاد الإصلاح والتغيير، وقد تم له ذلك من خلال سلسلة الأفعال الكلامية التي بُني عليها العمل، وتحدّد بها القصد .

فتراوحت خطبه بين الإخباريات أو التقريريات والتوجيهيات والالتزاميات والتعبيريات والإعلانيات وإن كانت بنسب متفاوتة، حيث برزت هذه الأفعال بوضوح في المضامين الإصلاحية الآتية: **المضمون الديني، والمضمون التربوي والاجتماعي والمضمون السياسي** وهذا ما كشفنا عنه من خلال هذه الدراسة.

فنظرة ابن باديس الإصلاحية كانت نظرة شمولية ، وإن كنا نسجل غياب **المضمون الاقتصادي لـــدى صاحب الآثار** نظرا للظروف الاستعمارية القاسية التي كان يعاني منها الشعب الجزائري ،بالإضـــافة إلى هيمنة المحتل الفرنسي المطلقة على ثروات البلاد .

خلاصة:

1- كشف هذا الفصل عن أصناف الأفعال الكلامية حسب نموذج –سورل- من خلال فض الأنسجة اللغوية لهذه النماذج المختارة للنفاذ إلى بنيتها العميقة ،والتغلغل فيها بغية الكشف عن المقاصد المعلنة وغير المعلنة في هذه النصوص والنظر في استراتيجياتها القريبة والبعيدة المدى،كونها تقدم تصوّرا للعالم إزاء واقع مرير وفي ظل احتلال غاشم.

2- حاول ابن باديس بأسلوبه الهادئ والمباشر، وبألفاظه العذبة السلسة التي تقترب من لغة التخاطب اليومي أن يمرر رسالته الإصلاحية الموجهة لمختلف شرائح المجتمع، فأحدث ذلك تفاعلا تواصليا بينه وبين المتلقين امتد أثره إلى الأجيال اللاحقة .

3- يشكّل المضمون الإصلاحي فضاء خصبا تلتقي فيه مختلف النظريات اللسانية (التداولية – نظرية أفعال الكلام – لسانيات النص – تحليل الخطاب) لفحص البنى اللسانية المشكلة لنسقه العام من جهة ، وللنظر من جهة أخرى في عوامل أسهمت في إضفاء انسجامية مميزة لهذه النصوص مثل العلاقات المنطقية الدلالية كعلاقة السبب بالنتيجة، وعلاقة الإجمال والتفصيل التي كان لها الدور البارز في الحفاظ على التدرج المنطقي للأفكار في هذا الطرح الخطابي.

4- سجلت حضورا بارزا للإخباريات أو التقريريات حيث اتّخذها ابن باديس وسيلة لرصد الداء المتفشي في المجتمع قبل وصف الدواء المناسب له ، وأما التوجيهيات فاشتملت على أوامر ونواه تحمل قواها الإنجازية غرض النصح والإرشاد، أي توجيه العباد لما ينفعهم في الدنيا والآخرة، أما الالتزاميات فقد تضمنت وعودا قطعها هذا المصلح على نفسه وتتعلق بمسيرته الإصلاحية والتي ينشد من ورائها الصراحة والصدق والقصد للخير كما صرح هو نفسه بذلك ، وتضمنت التعبيريات غرضا إنجازيا يتمثل في تلك الانفعالات النفسية التي تتراوح بين الشكر والإعجاب والإنكار والانزعاج إزاء بعض الظواهر ، أمّا الإعلانيات فقد أدت إلى إيقاع أفعال مكنت من تغيير وضع ما .

وما يمكن تأكيده في هذا المقام أن الكشف عن الأبعاد التداولية للخطاب الإصلاحي لابن باديس أو لغيره من النصوص يجعل منها « ذات قيمة تداولية، لأن أي نص إذا لم يتداول يبقى حبرا على ورق، ومن ثمّةَ لا تعطى له الأهمية التي يستحقها، ولا يثمّن المجهود الذي بذله له المؤلف في صياغته وصنعته... ».[1]

1- محمد مفتاح : دينامية النص ، ص 179 .

الفصل الرابـع

عناصر السياق ووظائف الخطاب في الخطاب الإصلاحي لدى عبد الحميد بـن بـاديس

أولا- أهمية عناصر السياق في تشكيل بنية الخطاب الإصلاحي.

1- المرسل / عبد الحميد بن باديس.

2- الرسالة / الخطاب الإصلاحي.

3- المرسل إليه / متعدد.

ثانيا: وظائف الخطاب.

1- الوظيفة التعبيرية.

2- الوظيفةالندائية .

3- الوظيفةالمرجعية.

4- الوظيفة الانتباهية.

5- وظيفة ما وراء اللغة.

6- الوظيفة الشعرية.

الخلاصـــة.

توطئة

يعتمد التحليل التداولي للخطاب الإصلاحي عند ابن باديس على توجيه النظر إلى العناصر التي يتشكل منها هذا الخطاب، وحسب تصور **دومينيك مانقانو** فإن: « السياق ليس جهازا يمكن للملاحظ الخارجي الإحاطة به ».[1]

وعلى هذا الأساس حاول محلّلو الخطاب ضبط العناصر التي يتكون منها السياق حيث أدرج هايمس « المشاركين والمكان والزمان والغاية، ونوع الخطاب والقناة واللهجة المستعملة والقواعد التي تحكم التداول على الكلام في صلب جماعة معينة ».[2]

ونلاحظ أن هايمس يركز على العالم الخارجي الذي أنتج فيه الخطاب، ويضيف بعض الدارسين إلى هذه العناصر الخلفية المعرفية المشتركة بين المخاطبين لأن التطور الحاصل في مجال البحث اللساني أفضى إلى تجاوز « ...النقل الحرفي، إلى البحث في الخلفيات المعرفية والسياقية التي تحكم التواصل التفاعلي الإيجابي بين المتكلمين والمستمعين ».[3]

أولا– أهمية عناصر السياق في تشكيل بنية الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس:

يتأسس الفعل التواصلي على قطبين هما المرسل والمرسل إليه بمعنى **أنا** مقابل **أنت وهذه** «القطبية الموجودة في الضمائر هي الشرط الرئيسي في تتمة العملية التبليغية ».[4]

ونوضّح هذه العلاقة من خلال المخطط الآتي:

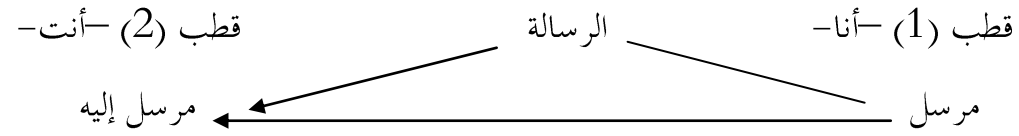

وبما أنّ هوية المشاركين في العملية التخاطبية لها تأثير كبير على نوع اللغة المستخدمة، وأهداف الخطاب وقناة التواصل والمعرفة الخلفية، لذا سأقتصر منهجيا على إبراز دور هذه العناصر في تحقيق تماسك هذه الخطابات وانسجامها.

1- دومينيك مانقانو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 27.

2- المرجع نفسه، ص 25 وص 26.

3- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب، دط،2006 ، ص 18.

4- ينظر عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي، ص 70.

1- المرسل /عبد الحميد بن باديس Emeteur

إنّ الحديث عن المرسل يقودنا للحديث عن الشروط التداولية التي تعدّ أساسا لإنجاح فعل التواصل ويمكن تلخيصها في النقاط الآتية:[1]

1- **الصدق:** ما يتلفظ به المرسل يجب أن يكون صادقا ولا يحتمل الكذب.

2- **المصداقية:** يجب أن تكون عبارات المرسل محكمة التعبير عن نواياه ومقاصده التداولية.

3- **الصلاحية المعيارية:** أن يخضع المرسل كلامه إلى القواعد اللغوية المتعارف عليها في مجتمع ما.

وتعكس هذه التصورات جميعها علاقة المتكلم بالعالم المادي الخارجي، والعالم الداخلي النفسي والعالم المعيشي الذي تجسده العلاقات الاجتماعية.[2]

ويحاول المرسل خلق انسجام بين هذه العوالم الثلاثة، وبهذا المعنى يستطيع أن ينتج خطابا تابعا ومقيّدا بسياق معين.

لأجل ذلك كانت اللغة ولا تزال وسيطا فعّالا تتجسد من خلالها علاقة المرسل بمختلف السياقات التي أسهمت في إنتاج خطابه.

وهكذا اعتبر اللجوء إلى السياق التخاطبي لتفسير الملفوظات هو السبيل الوحيد للكشف عن المعاني الكامنة في النفس البشرية.

فالمرسل يوظّف عبارات اللغة ليعبّر عن أفكاره ومعتقداته ومشاعره ورغباته وكل ما يجول في خاطره، لذا حاول **أوستين** في العقد الثاني من القرن العشرين زعزعة بعض المبادئ السوسيرية التي طالما نادت بـــ" دراسة اللغة لذاتها ولأجل ذاتها " أي دراسة الظواهر اللغوية من الداخل وبمعـــزل عن قائليها، باعتبارها أشكالا مفرغة خالية من أي معنى في ذاتها، وبعيدا عن السياقات التي أسهمت في إنتاجها « وقد لخّص أوستين رأيه في دراسة اللغة باعتبارها حقيقة تخص الأشخاص المتكلمين لا دراسة اللغة في ذاتها».[3]

---

[1]- حسن مصدق: يورغن هابرهاس ومدرسة فرانكفورت النظرية النقدية التواصلية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005 ، ص 131 .

[2]- المرجع نفسه: ص 132.

[3]- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص 62.

ويؤكّد طرحه هذا بقوله: « لقد درست اللغة في ذاتها بكثير من العمق، وهي اليوم ينبغي أن تدرس من أجل حقيقة هي حقيقتنا نحن كأشخاص نتكلم ».[1]

وبهذا المفهوم يتجاوز أوستين النظرة التقليدية في التعامل مع اللغة، فاللغة ليست بنية شكلية صورية كما هو الحال عليه في الأنحاء السابقة، إنّما هي بنية تفاعلية ونشاط تواصلي مخطط له، لأجل ذلك يجب على المرسل أن يمتلك من الكفاءات المعرفية والتواصلية ما يؤهله لإنتاج خطاب ناجح ومؤثر.

والمرسل في الخطاب الإصلاحي يتمثل في شخص عبد الحميد بن باديس وهو من الشخصيات البارزة في تاريخ الجزائر الحديث وممن يصدق عليهم القول: « **يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها** ».[2] **رواه أبو داوود.**

لأجل ذلك عكف ابن باديس طيلة مسيرته الإصلاحية على إصلاح أحوال أمته، فبدأ بإصلاح الفرد قبل المجتمع تماشيا مع منهجه سبحانه وتعالى:﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾. [سورة الرعد: الآية 11.]

أما العوامل التي ساعدت على نبوغ هذه الشخصية وتفوقها فقد لخصها الدارسون في عوامل محلية وأخرى خارجية.[3]

أ/ **عوامل محلية**: وتتمثل في المحيط الأسري حيث اشتهرت أسرته بالجاه والعلم والتدين، وقد اعترف ابن باديس نفسه بفضل والديه عليه، يقول:« إن الفضل يرجع أولا إلى والدي الذي رباني تربية صالحة، ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة اتبعها، ومشربا أرده، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم... وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا، وكفاني كلف الحياة، فلأشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر».[4]

---

[1]– المرجع نفسه، ص 62.

[2]– عماد الدين أبو فداء إسماعيل بن عمر بن كثير، النهاية في الفتن والملاحم ،دار الجيل بيروت،لبنان،ط1، 1988،ج1،ص39 .

[3]– عمار بن مزوز: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 49. وانظر أيضا: عبد الحميد بن باديس: الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره ، مج1،ص58.

[4]– عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص 58.

كما يعود الفضل أيضا إلى أساتذته « ويحرص ابن باديس على تسميتهم بمشايخي»[1] ومنهم **حمدان لونيسي والمولود بن الموهوب وصالح بن مهنا.**

ب/ العوامل الخارجية: وتتمثل في مواصلة ابن باديس لمسيرته العلمية في جامع الزيتونة العريق وقد تتلمذ على يد الطاهر بن عاشور ومحمد النخلي وبشير بن صفر، كما تأثر بحركة الإصلاح في المشرق العربي.[2]

ويؤكّد الكثير من الباحثين المهتمين بسيرة هذا الرجل مدى تنوع مصادر ثقافته وثرائها، ومنهله الأول هو القرآن الكريم حيث عكف على حفظ سوره منذ نعومة أظافره، وانكبّ على فهمه وتفسيره ما يقارب الربع قرن، وإلى جانب القرآن الكريم عني بالحديث النبوي الشريف – باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي– حفظا وشرحا وتدريسا.

كما نهل من عيون الأدب العربي (شعره ونثره) واطّلع على كتاب الأمالي لأبي علي القالي، وديوان الحماسة لأبي تمام، وديوان المتنبي، وقرأ مقدمة ابن خلدون، وكتاب العواصم من القواصم لأبي بكر بن عربي ، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني.[3]

ونظم الشعر وكتب المقالات المتنوعة، وفسّر القرآن، وشرح الحديث، فنشاطاته متنوعة وثرية ثراء شخصيته الفذة التي لا يستطيع بحث كهذا الإلمام بكل جوانبها، وقد وصفه محمدا لميلي قائلا: "لعل أهم صعوبة يصطدم بها الباحث لشخصية ابن باديس هو تنوع هذه الشخصية وخصبها ونشاطها في أكثر من ميدان".[4]

وهذا الثراء والتنوع انعكس على لغة خطاباته حيث تنساب كلماته من دون تكلف أو عناء طيعة لينة سلسة وعذبة ومن نماذج ذلك يقول ابن باديس:« **من الناس قوم ... عريقون في التدجيل، عريقون في التضليل، رضعوا خسة الطبع، وأولعوا باستراق السمع ليفرغوه في قالب التزوير، ويطلوه بطلاء التغرير لا يردعهم من الافتراء ما يرونه في كتب اللغة من الحياء !!... وكثرت الجن**

---

[1]– عمار بن مزوز: عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح، ص 51.

[2]– المرجع نفسه، ص 59 و60.

[3]–عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج 1، ص 92.

[4]– محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ص 20.

في الاسترق فاستحقت الخزي كل الاستحقاق وأرادت أن تسمع الملأ الأعلى ... والحال أن لا سلم لها ولا منطاد، وبعد فإن " الشهاب " لها بالمرصاد ...».[1]

تبدو الكلمات في هذا النموذج جزلة قوية ومعبرة بدقة متسامية عن المعاني القابعة في أعماق النفس، حيث استعمل ابن باديس السجع في هذا السياق التلفظي دون تكلف كما استحضر بعض الألفاظ من المعجم الديني كما في قوله " استرق السمع "، " كثرت الجن في الاسترق فاستحقت الخزي كل الاستحقاق ". و" أن تسمع الملأ الأعلى " وهذه العبارات تتناص مع قوله تعالى:﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ(18)**﴾. [سورة الحجر: الآيات 16، 17 و18.]

وإلى جانب التناص، نلمح توظيف الكاتب للاستعارة في قوله: « رضعوا خسة الطبع » وهذا النوع من الصور البيانية يعتبره التداوليون آلية من آليات الحجاج، ومن هنا يدخل الجانب البلاغي كعنصر رئيسي وفعّال في تشكيل الخطاب جماليا إذ تعد الاستعارة الحجاجية بأنها "...النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية ».[2]

ويلجأ المرسل في الخطاب الإصلاحي إلى استخدام لغة مباشرة وصريحة وشفافة في بعض السياقات، ويلاحظ أن هذه اللغة تقترب أكثر من لغة التخاطب اليومي ومن نماذج ذلك قوله: « **قد جرت عادة الناس من قديم عند قدومهم من الحج أن يمكثوا في بيوتهم أياما ثلاثة أو سبعة يستقبلون الزائرين والمهنئين وينفقون في ذلك ما قد بلغ شطر ما أنفقوا في الحج أو يقاربه أو يجاوزه بحسب حالهم ...».**[3]

تبدو الألفاظ والعبارات في هذا السياق التخاطبي بسيطة واضحة بعيدة عن الغموض أو التعقيد، تعبّر عن ظاهرة اجتماعية تتمثل ــفي الإفراط في التبذير وإقامة الولائم بعد قدوم الحجاج من الحج ــحيث كان ابن باديس حريصا على التصدي لمثل هذه الظواهر حتى لا تستفحل أكثر في أوساط المجتمع الجزائري، وقد نبّه الناس إلى موقف الدين من مثل هذه التصرفات المذمومة، ويقصد من

[1]– عبد الحميد بن باديس:المصدر السابق، مج 5، ص 22.

[2]– أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج ، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت،لبنان، دط،2009، ص110.

[3]– المصدر نفسه، مج 6، ص 18.

وراء كل ذلك رفع الكلفة والحرج عنهم و إرشادهم ليتجنبوا ما يتنافى و تعاليم دينهم، وقد وردت عبارته سلسة وعذبة، وبأسلوب وصفه الدارسون بالسهل الممتنع.[1]

وما يرمي إليه ابن باديس من أهداف يتقاطع مع مشروع هابرماس Habermas الذي «يرتكز على أن اللغة في نظره حوار بين عقول المتحدثين، تهدف إلى إقامة جسر التفاهم وبلوغ الإجماع بصدد القضايا، واللغة هنا جملة قواعد تؤسس للاتصال بين الناس وليست أصواتا تلقى شذرا مذرا ».[2]

وينطوي الخطاب الإصلاحي عموما على مقصدية مباشرة، لا يكتنفها الغموض أو التعقيد، ولا تكلف القارئ عناء البحث في مختلف الدلالات المتخفية وراء النسيج اللغوي، لأن المرسل يرمي إلى تحقيق أهداف اجتماعية سامية تتلخص في مدى إفادة المخاطب وتوجيهه وإرشاده إلى ما فيه خير البلاد والعباد، وكل هذا يتوقف على مدى وضوح الرسالة وشفافيتها.

غير أنه في بعض السياقات يضطر (ابن باديس) إلى استخدام أسلوب يعتمد على التضليل والتمويه والمغالطة، فهو يتعمد انتقاء العبارات التي تحرك العواطف لتثير التعاطف، ومن نماذج ذلك يقول ابن باديس:« **ولأننا مستعمرة من مستعمرات الجمهورية الفرنسوية نسعى لربط أواصر المودة بيننا وبين الأمة الفرنسوية وتحسين العلائق بين الأمتين** ...».[3]

ويضيف في موضع آخر قائلا: « **حافظ على مبادئك السياسية، ولا سياسة لك إلا سياسة الارتباط بفرنسا فتمسك بفرانسة العدالة والأخوة والمساواة فإن مستقبلك مرتبط بها**».[4]

ويشيد في سياق آخر بفرنسا ورجالها قائلا: « **ونحن لا يسعنا في هذا المقام إلا أن نسجل بمداد الفخار على غرة جبين التاريخ هذا الوعد الصريح الصادر من رجل عظيم من رجال فرنسا المتشبعين بالمبادئ الديمقراطية الحرة** ».[5]

---

[1]- عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج 1، ص 92.

[2]- حسن مصدق: يورغن هبرماس ونظرية فرنكفورت النظرية النقدية التواصلية، ص 125.

[3]-المصدر نفسه، مج 3، ص 254.

[4]- المصدر نفسه، مج 3، ص 159.

[5]- المصدر نفسه، مج 5، ص 30.

يقصد ابن باديس من وراء هذه الألاعيب اللغوية تمرير مشروعه الإصلاحي دون أن تتفطن فرنسا لذلك فتسارع إلى تقويضه من الداخل، كما تعمل على وأد نشاطاته، وحل جمعيته دون وجه حق فهي خطة مبيتة منه حتى لا تتفطن فرنسا لسياسته.

ويؤكد أحد الدارسين هذا الطرح حيث يقول في هذا الشأن:« ولعل هذا التكتيك ...هو الذي جعل الجمعية محل نقد ممن لم يفهموا خطتها، ولا نستبعد أن تكون الإدارة الفرنسية قد حلت الجمعية وقضت عليها في مهدها، لو لم تختر هذا الطريق المحفوف بالأخطار والمزالق، وقد كان ابن باديس في الواقع (بسمارك الجزائر) خلال الثلاثينات فكان يدير لعبة الدين كما كان (بسمارك ألمانيا) يدير لعبة السياسة، وكلاهما نجح في خطته، وبقي على رجال الأخلاق أن يحكموا على قيمة كل منهما».[1]

يتّضح لنا من هذا القول أن المرسل (ابن باديس) يسعى دائما إلى التستر خلف ألفاظه وكلماته، عند مخاطبته للاستعمار الفرنسي خشية أن تنكشف نواياه الحقيقية، تاركا للقارئ فسحة التأمل في المعاني الخفية التي تحملها هذه الكلمات وقراءة ما خلف السطور للوصول إلى جوهر الدلالات التي تتضمنها هذه النصوص. وعلى هذا الأساس يرى **فيتجنشتاين** « أنّه حتى نصل إلى فهم ما يقوله الآخرون يجب أن تكون لدينا معرفة بما تضمره نفوس البشر ».[2]

ويتطرق ابن باديس لمعالجة قضايا مجتمعه السياسية والاجتماعية والثقافية الفاعلة والمؤثرة في النسيج الاجتماعي، لتشكل خطابا متداولا ترتبط فيه مختلف الأبعاد البلاغية والأسلوبية وعلاقتها بالسياقات التي أسهمت في إنتاجها، لإدراك الوظائف الخطابية فيه، ذلك أن التحليل النصي يؤدي دورا بارزا في السياقات الإدراكية، ولا يقارب بين العوامل الاجتماعية المشتتة وغير المتجانسة، سواء كان ذلك لمنتج النص أو متلقيه.[3]

وإن أول ما يتبادر للأذهان عند ذكر الخطاب الإصلاحي لابن باديس أنّه عرض مطابق للواقع، يحاكيه ويجاريه ويتفاعل مع حيثياته يؤثر فيه ويتأثر بأحداثه.

---

[1]- ينظر عبد القادر فوضيل ومحمد الصالح رمضان: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص 159.

[2]- جان مارك فيري: فلسفة التواصل، ترجمة عمر مهيبل، منشورات الإختلاف، الجزائر، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2006، ص 29.

[3]- صلاح فضل:في بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 248.

وتجسد الآليات اللغوية وبعض الصور البيانية والأدوات الحجاجية المتجلّية عبر نسيجه المتشابك حضورا قويا وفعالا، ترمز إلى حضور الذات المخاطبة بقوة في بنية الخطاب العميقة.

ويذكر ابن باديس ما أحدثته كلمته الصريحة من وقع في نفوس بعض المناوئين له قائلا: «... **وأما الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وأنكروا ما لهذه الأمة من مجد، وما لها من تاريخ، وما لها من روابط تجعل منها أمة متحدة ومتجانسة لها من الاتحاد والتجانس ما لأكثر الأمم تجانسا واتحادا في كل بلاد الأرض، فأولئك قوم فزعوا من مقالنا كما تفزع الخفافيش عندما ينبثق نور الفجر، ومنهم من انتقد ومنهم من رد، ومنهم من أفحش وأقذع، وأن إلى الأمة التي أنكروها إيابهم وأن عليها – مهما تجاهلوها – حسابهم** ».[1]

تستمد الذات المخاطبة مادتها اللغوية من القرآن الكريم ويبرز ذلك في قوله:﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾، [سورة البقرة، الآية 10].﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾، [سورة الحشر، الآية 19].﴿ **إِيَابَهُمْ** ﴾، [سورة الغاشية، الآية 25].﴿ **حِسَابَهُمْ** ﴾. [سورة الغاشية، الآية 26].

ويعدّ التناص مع القرآن الكريم حجة نقلية لأداء وظيفة إقناعية وتحقيق أغراض تواصلية، فبالإضافة إلى أن هذا النوع من الحجاج يضفي على الأسلوب رونقا وجمالا، ويزيد المعنى قوة وبيانا فإنّه يدلّل على مدى كفاءة المرسل التداولية.

ويستعمل المرسل إلية التشبيه للتلميح إلى قصده من جهة ولتأكيد المعنى من جهة أخرى، كما في قوله: « **فأولئك قوم فزعوا من مقالنا كما تفزع الخفافيش عندما ينبثق نور الفجر** ».

فالتشبيه في هذا السياق التلفظي يعد وسيلة حجاجية لها تأثيرها على المتلقي من زوايا متعددة، فهو يشدُّ ذهن القارئ إلى العالم الخارجي حتى يمكّنه من إدراك الوشائج التي تصل بين المعنى المجازي كما هو موظف في سياق الكلام و ا المعنى الحقيقي كما هو على أرض الواقع .

ومن الروابط الحجاجية التي برزت كمؤشّرات تركيبية على مستوى البنية السطحية للخطاب [الواو، ما، الفاء، أنّ وإنّ].

[1]– عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج 3، ص 289.

ويوظّف ابن باديس هذه الآليات اللغوية لتعمل على ربط العناصر المتباعدة لأجزاء الخطاب، وتجعل منه بناء يتدرج تدرجا منتظما من البداية إلى النهاية، إذ أغنى استعمالها في هذا السياق التلفظي عن تكرار بعض الكلمات والعبارات والجمل مما أدى ذلك إلى اختزال مضمون النص، وقد أكّد هاليداي Halliday ورقية حسن R.Hasan على أنّه لكي « تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة...».[1]

وهذا الاتّساق الذي تحقّقه هذه الوسائل اللغوية يضمن اختزال عبارات النص وعدم تكرار أفكار الكاتب، حتى يحظى خطابه بقبول واستحسان القارئ باعتبار أن المقبولية l'Acceptabilité تعد مقوما من مقومات النصية كما تجعل النص يصطبغ بصبغة تداولية.

وعليه فإن المرسل يتعمد توظيف أدوات الربط التي تتناسب وموضوع الخطاب ومقام التلفظ ليضمن تمرير مشروعه الإصلاحي.

وثمة معالم أخرى من معالم الذات المخاطبة نلمحها في هذه المدونة من خلال استحضاره لشخصيات دينية :{محمد صلى الله عليه وسلم، عبادة بن الصامت، هند بنت عتبة، سعد بن الربيع،} وأخرى فكرية فلسفية {ابن العربي، الشيخ الطاهر الجزائري} وشخصيات سياسية مثل {مصطفى كمال أتاتورك، عبد العزيز الثعالبي، وغيرهم ...}.

ويقصد المرسل/ ابن باديس من استحضاره لمثل هذه الرموز التاريخية إحياء الانتماء الحضاري في نفوس الأفراد، واستنهاضهم من أجل السير بهم قدما نحو التغيير والتطوير والإنتاج، فيتمكن بذلك من تكوين جيل يمجد الفكر الإصلاحي ويؤمن بمنطق العمل وحب التغيير.

فالمرسل في هذه الخطابات يعدّ شاهدا على عصره، وموثقا لتاريخ أمته وهو المربي والمعلم، والمصلح والمرشد، والحاضر في وعي كل تاريخ الوطن الجزائري، وهذا ما جعل شخصيته تتسم بالثراء والتنوع والخصب.

[1] – محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 13.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نعدّ ابن باديس من أبرز أعمدة الفكر والثقافة والأدب في تاريخ الجزائر الحديث، بحيث لا يمكن أن ننكر جهوده أو نتجاهل قيمته، وكل ما قدمه من أعمال جليلة يوما ما.

كما يمكن للقارئ أن يتعامل مع هذه المضامين الإصلاحية على أنّها كشف لتجارب المتكلم، ومدى معاناته مع الاستعمار الفرنسي، ومدى تفاعله مع قضايا أمته وأحداث عصره، فهذه النصوص تعد مرآة عاكسة لواقعه وما ينطوي عليه هذا الواقع من آلام وآمال.

بهذه النظرة العميقة للوجود والأشياء يحقق هذا النوع من الخطابات انسجامه وفرادته وتميزه.

2- الرسالة: (الخطاب الإصلاحي) Message

يمثّل الخطاب الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس جسرا يربط بين الأدب والفكر في بنية تفاعلية تحاورية، تندرج ضمن سياق تواصلي يقوم على ثنائية (المرسل – المرسل إليه) باعتبارهما الشريكين الفاعلين في الخطاب « فالأثر الأدبي أو اللغوي لا تتحقق فاعليته إلا ضمن مسار تواصلي ثنائي، طرفاه المبدع والمتلقي ».[1]

هذا التجاوب الواعي بين طرفي الخطاب تتحكم فيه مجموعة من المقاصد والمواضعات اللغوية والأعراف الاجتماعية بحسب ما يعتقده – سورل – وهو ما يجسّده المشروع الإصلاحي لابن باديس.

ويعدّ الدارسون تراث هذا المصلح نموذجا رفيعا من الأدب الجزائري الذي ترعرع في كنف الحركة الإصلاحية في بدايات القرن العشرين.

ويتميّز أسلوبه الهادئ الرصين بجودة التأليف، وحسن التركيب، وتعبر لغة هذه النصوص عما تختزنه ذاكرته من موروث ثقافي كبير، ومتنوع ،تمثل في حفظ القرآن الكريم ،والحديث النبوي الشريف ،وسير وتراجم بعض الأعلام، بالإضافة إلى اطلاعه المستمر على مجريات أحداث عصره، إن على الصعيد الوطني أو الدولي لمواكبة ما يجري من أحداث، وعبر عن هذه المضامين بأشكال فنية مختلفة،

[1]- عبد اللطيف حني: التداولية الإبداعية في الشعر الثوري الجزائري، ديوان أطلس المعجزات للصالح خرفي نموذجا، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ص 216.

وضروب من الكتابة متعددة منها: الخطبة، المقالة، القصة، الترجمة، السيرة، الفتوى، التفسير، شرح الحديث، نظم الشعر، كتابة الخواطر وغيرها من فنون التعبير وأشكاله المتعددة.

وقد تبدو نصوص هذا المصلح – للوهلة الأولى – أنّها منفصلة لا رابط بينها نظرا لتعدد الميادين التي طرقها والأبواب التي عالجها، يعوزها التماسك والتلاحم والانسجام، والحقيقة أن المتفحص لها « لا يعزب عنه الخيط الذي ينتظمها، والسلك الذي يجمع بينها فهي حلقات يأخذ بعضها ببعض، لتكون سلسلة حاصر بها ابن باديس جيوش الباطل، وجحافل الضلال، ورسّخ بها مقوّمات أمة في طريقها إلى الزوال ».[1]

ولعل الحقيقة التي غفلت عنها فرنسا أن هذا الإنتاج الأدبي الكبير الذي خلفه ابن باديس، وإن كان يبدو في ظاهره أنه أدب خالص لخلق المتعة أو اللذة لذة القراءة – على حد تعبير بارت – إلا أنه يحمل بين ثناياه إستراتيجية بعيدة المدى، وخطة غير معلنة الأهداف والمرامي لتغيير شؤون البلاد والعباد وإصلاح أحوال الأمة.

« فقد كان يلقى القبض على إمام النهضة عبد الحميد بن باديس فيحقق معه، ثم يطلق سراحه، ومما أعان الشيخ ابن باديس على إقناع عدوه ببراءته رغم توجسه منه أسلوب الأدبي الهادئ غير المباشر، وقد تفطن رحمه الله لهذا الأسلوب بذكائه، وغدا يعد للأمر عدته، ويأخذ بأسباب النصر والتمكين »[2].

لقد تقنع هذا الرجل بقناع الأدب، وتحلّى بحلية الفنان المبدع، وليس لباس رجل دين حتى بدا لفرنسا أنه رهبان دير وهو يخفي وراء كل هذا وذاك نية صادقة وعزيمة قوية لمجابهة العدو.

من هذا المنظور يمكننا أن نتعامل مع الخطاب الإصلاحي لابن باديس على أنه مزيج من خليط متجانس يجمع بين الأدب والفكر والدعوة إلى توحيد الله.

---

[1] – عبد الحميد بن باديس :آثار عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ، ط1، 1984، ج3، ص 12.

[2] – محمد هيشور: الأدب في برنامج جمعية العلماء المسلمين ضمن كتاب أدب الحركة الإصلاحية مفاهيم وقضايا، دورة علال الفاسي، أعمال الملتقى الدولي الرابع للأدب الإصلاحي، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المملكة المغربية، أيام 18، 19، 20 مارس، ص326.

وما نلاحظه هو تعدد وظائف الخطاب في بنية الخطاب الإصلاحي، وتبرز من منظور تداولي وظيفتين وهما:[1]

أ/ **الوظيفة التعاملية:** حيث تكون اللغة وسيطا فعالا لنقل المعلومات فيحرص المرسل على تشكيل بنية خطابه حتى يتمكن المرسل إليه من أن يستمد منها المعلومات والمعارف الصحيحة والدقيقة ،ففي خطاب له موسوم ب " **الصدق والكذب أين يهدي كل واحد منهما** " تطرق ابن باديس من خلاله إلى شرح حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصدق والكذب قائلا:« **والصدق مطابقة الخبر للواقع وتصويره على ما هو عليه، والكذب عدم مطابقة الخبر للواقع وتصويره على خلاف ما هو عليه...**».[2]

ويضيف قائلا:« **تمسّكوا بالصدق وألزموه فإنّ الصدق يوصل إلى العمل الصالح الخالص من كل مذموم، وإنّ العمل الصالح يوصل إلى الجنة، ... واحذروا الكذب واجتنبوه فإن الكذب يوصل إلى الشر والانبعاث فيه وأن الشر يوصل إلى النار ...**».[3]

تبرز الوظيفة التعاملية في المضامين الإصلاحية من خلال حرص ابن باديس على بناء خطاب يتضمن مفاهيم تربوية أخلاقية تتعلق بالصدق والكذب، متوخيا الشرح والتوضيح والتبسيط، وبأسلوب تقريري تعليمي يقصد من ورائه الحرص على تعليم الناس أمور دينهم، وتوجيههم إلى ما يخدم مصلحتهم في الدنيا والآخرة معتمدا في ذلك إستراتيجية توجيهية أثناء تبليغ خطابه ،ويؤشّر لهذه الإستراتيجية بأفعال الأمر الآتية: {تمسكوا، ألزموا، احذروا، اجتنبوا}، وبهذه الكيفية يتلقى المرسل إليه المعلومات بكل يسر وسهولة، فيتحقق التبليغ و الإفهام .

وعلى هذا الأساس تعدّ الوظيفة التعاملية « إحدى مزايا اللغة الطبيعية التي تمكن الناس من تطوير ثقافاتهم من خلال المعلومات المتناقلة، ومن تحقيق التواصل فيما بينهم سواء كان ذلك بغرض التوجيه، أو التعليم أو غيره ».[4]

---

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 02.

[2]- عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج 2، ص 280.

[3]- المصدر نفسه، مج 2، ص 281.

[4]- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 04.

فالرسالة التي هي الخطاب الإصلاحي تهدف إلى النصح والإرشاد والتثقيف والتربية والتعليم.

ب/ الوظيفة التفاعلية: يبرز هذا النوع من الوظائف في المضامين الإصلاحية من خلال حرص ابن باديس على إقامة علاقات مع أفراد مجتمعه في إطار التعامل اليومي بغرض تثبيت هذه العلاقات، وقد يتجاوز ذلك إلى التأثير فيهم.[1]

ومن نماذج ذلك ما أورده في خطاب له توجه فيه إلى أهالي مدينة قسنطينة:

« **أيها القسطنطنيون ... برهنوا على وطنيتكم، برهنوا على ديانتكم، برهنوا على حياتكم، برهنوا على محبتكم للعلوم والآداب، برهنوا على محبتكم للرقي والمدنية ... برهنوا على هذا كله بإقبالكم العظيم على الاحتفال الفني الذي ستقيمه شبيبة الكلية الجزائرية** ... ».[2]

نلاحظ في هذا النموذج حضور سلطة المتكلم وقصديته بقوة، فهو يحاول أن يمارس تأثيرا على المتلقي من خلال الإمكانات اللغوية المتاحة له، ويتجلّى ذلك في استهلاله لخطابه بأداة النداء " أيّها " لجلب انتباه المخاطب، ولإحداث تواصل تفاعلي معه، وإشراكه في موضوع الخطاب، وتوظيفه لفعل الأمر {برهنوا } والذي تكرّر (ست مرات) بالإضافة إلى الضمير المتصل (كم) الدال على جمع المخاطبين وقد تكرر (خمس مرات) لتأكيد المعنى وتقويته من جهة، بالإضافة إلى خلق نوع من الدافعية والتحفيز لاستنهاض الهمم من أجل المشاركة الإيجابية والفعالة داخل النسيج الاجتماعي من جهة أخرى ، باعتبار أن الخطاب الإصلاحي عموما هو نشاط اجتماعي وفعل تواصلي مخطط له، ويسعى إلى ربط أواصر المجتمع وتثبيت العلاقات الاجتماعية بين أفراده، وعليه « فإن علاقاتنا الاجتماعية تحدد الكثير مما نقوله، وقدرا عظيما مما نوصله، فالتفاعل اللغوي هو بالضرورة تفاعل اجتماعي ».[3]

ويذهب الدارسون إلى أن هاتين الوظيفتين (التعاملية والتفاعلية) تندرج تحتهما وظائف لغوية مختلفة.

وسنتطرق إلى تحليل باقي الوظائف في معرض حديثنا لاحقا عن الترسيمة التواصلية لرومان جاكبسون، وهذا بعد توجيه عنايتنا للطرف الآخر الموجه له الخطاب وهو " المرسل إليه ".

---

[1]- المرجع السابق ، ص ن.

[2]- عبد الحميد بن باديس، المصدر نفسه، مج 5، ص 52.

[3]- جورج يول: التداولية، ص 97.

3- المرسل إليه/ متعدد(الشعب الجزائري /الاستعمار...) Récepteur

يمارس هذا الطرف نوعا من السلطة على المرسل (المتكلم)، ويتجلّى ذلك في انتقاء المتكلم لوسائل لغوية محدّدة تكون مناسبة لمقام التخاطب من أجل إحداث تواصل تفاعلي مع الطرف الموجه إليه الخطاب، ولتكون الرسالة مؤثرة وناجحة.

ومن أبرز المؤشرات التركيبية في الخطاب الإصلاحي لابن باديس والتي لها صلة بالمرسل إليه/المتلقي عموما ضمائر المخاطب بأنواعها المتصلة والمنفصلة والمستترة ومن نماذج ذلك قوله: « **حافظ على حياتك، ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك، وجميل عاداتك، وإذا أردت الحياة لهذا كله، فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل** ».[1]

يتوجه بخطابه إلى المتلقي بشكل مباشر وصريح، وهذا ما جعل المرسل إليه يحضر بقوة في بنية النص السطحية والعميقة، وقد يتجسد حضوره من خلال (كاف الخطاب) المتصلة بالوحدات اللغوية الآتية:[حياتـــ(ـــك)، قومـــ(ـــك)، لغتـــ(ـــك)، عاداتـــ(ـــك)، وطنـــ(ـــك)، دينـــ(ـــك)]، بالإضافة إلى الضمير المستتر في قوله: [حافظ (أنت)، أردت (أنت)، فكن (أنت)] والضمير المنفصل "أنت ".

ويهدف ابن باديس من وراء هذه الإستراتيجية الخطابية تقديم جملة من النصائح والإرشادات التي تعين المسلم على فهم أسرار الحياة، كما بين له السبل التي تؤدي به إلى السعادة، وهذا بالحفاظ على دينه ووطنه، وجميل عاداته، ويجب أن يكون عصريا في تعامله حتى لا يشذ عن الوسط الذي يعيش فيه.

ومن المؤشرات اللسانية الأخرى المتعلقة بمتلقي الخطاب، ما ورد من أسلوب الشرط في قوله: « **وإذا أردت الحياة لهذا كله، فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه**».

ويعد الدارسون أسلوب الشرط من الأساليب الحجاجية التي تهدف إلى إقناع السامع والتأثير فيه، والشرط عموما محكوم بقاعدة أن الجملة الأولى (جملة الشرط) تستلزم بالضرورة الجملة الثانية (جملة

[1]- عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج 3، ص 158.

جواب الشرط)، فالعلاقة التي تحكمها هي علاقة الربط السببي « ويعني هذا أن هناك ترابطات أقوى من العرضية وهي الترابطات السببية وعليها يتوقف انسجام النص السردي ».[1]

فالتركيب الشرطي يساعد على ترابط الخطاب وانسجامه ويعدّه علماء لغة النص من العلاقات المنطقية الدلالية التي تضمن نمو الخطاب واستمراريته.

والغرض من توظيف هذا النوع من العلاقات الدلالية هو مد جسر التواصل بين النص والقارئ (المرسل إليه) لتحقيق التفاعل الإيجابي بين أطراف التخاطب.

ومن ثمّ فإن الخطاب الإصلاحي مدين في انسجامه وترابطه إلى الآليات اللغوية والمنطقية والبلاغية والتداولية، حيث تعمل هذه العناصر في تضافرها على تقديم يد المساعدة للقارئ للبحث عن الدلالات المتخفية وراء عبارات النص من أجل سبر أغواره، وكشف معانيه.

ولهذا عُدَّ القارئ أو "المرسل إليه" في النظريات اللسانية المعاصرة منتج ثان للنص، لأنه يمارس عند قراءته للنص عملية الهدم وإعادة البناء، فدوره لا يقل أهمية عن دور منتج النص، فكل واحد منهما له أهميته في إدارة اللعبة الكلامية.

ثانيا: وظائف الخطـــاب:

يقترن مفهوم الوظيفة عند علماء التداولية بمفهوم الاستعمال وعليه يمكن الإقرار أن « الوظيفة تعادل الاستعمال ».[2] وبناء على هذا التصور قدم **فتجنشتاين** « نظرية للمعنى مرتبطة باستخدام اللغة»[3]. ذلك أن « ...تنظيم أية لغة طبيعية يفسر في ضوء نظرية وظيفية».[4]

وبما أن مصطلح الوظيفة يشغل مساحة كبيرة على خارطة البحث اللساني في الآونة الأخيرة، فقد عني الدارسون بتحديد ماهية هذا المصطلح وعلاقته باللغة الإنسانية، وهذا ما حذا بهم إلى طرح السؤال الآتي:

هل للغة الإنسانية وظيفة واحدة أم وظائف متعددة ؟

---

[1]- محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص 84.

[2]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 271.

[3]- جان مارك فيري: فلسفة التواصل، ص 27.

[4]- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 271.

والإجابة عن هذا السؤال تقودنا للحديث عن مختلف التصنيفات التي وضعها الدارسون للوظيفة ومنها تصنيف عالم النفس النمساوي كارل بوهلر **K. Buhler** الذي قسمها إلى ثلاث وظائف تعبيرية **Expressive** ونزوعية Conative وتمثيلية représentation. واستساغت مدرسة براغ تصنيفاته فتبنتها، أما رومان جاكبسون فلم يكتف بهذه الوظائف الثلاث وإنما وسعها من خلال إضافة ثلاث وظائف أخرى وهي: الوظيفة الشعرية، والوظيفة التعاملية، والوظيفة الماورائية.[1]

لقيت تصنيفات جاكبسون ترحابا واسعا، وحظيت برواج كبير على الأقل في فرنسا في فترة الثمانينات[2].

وسنمثل للترسيمة التواصلية التي اقترحها جاكبسون عبر الخطاطة الآتية:[3]

المقام Contexte

المرسل ← الرسالة Message ← المتلقي

Destinateur — الاتصال Contact — Destinataire

السنن Code

وينتج عن كل عامل من هذه العوامل وظيفة مميزة فإذا « تركز الخطاب على المرسل وعبر عن عواطفه تولدت الوظيفة الانفعالية أو التعبيرية ... إذا تركز الكلام على المرسل إليه وبالتالي فهو يتوخى التأثير على المخاطب ووظيفته عند ذلك الندائية Conative ... الخطاب الذي يركز على السياق يهدف إلى الكلام عن العالم وبالتالي فإن وظيفته معرفية أو تثقيفية أو مرجعية " Référentielle Cognitive ».[4]

---

[1]- المرجع السابق ، ص 268.

[2]- جان ميشال غوفار: تحليل الشعر، ترجمة محمد حمود، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،لبنان،ط1،2008، ص 102.

[3]- جاكسون مونان ميكي هابرماس وآخرون: التواصل نظريات ومقاربات، ترجمة عز الدين الخطابي و زهور الحوتي ، منشورات عالم التربية،،الدار البيضاء، ط1،2007،ص 65.

[4]- جان ميشال غوفار: تحليل الشعر، ص 103.

وإذا كان هذا القول ركز على ثلاث وظائف للغة تتعلق بالمرسل (تعبيرية) والمرسل إليه (ندائية) والرسالة (معرفية/مرجعية)، فإننا سنعمل على توضيح الوظائف الست مجتمعة عبر الخطاطة الآتية:[1]

مرجعية

انفعالية إنشائية ندائية

إقامة اتصال

تعدي اللغة

وبما أن الخطاب الإصلاحي لابن باديس يمثل بنية تفاعلية ونشاط تواصلي يتجاذبه طرفان (المرسل والمرسل إليه) من خلال قناة تواصلية معينة، فإنّنا سنحاول في هذا المستوى من التحليل التداولي إسقاط هذه الترسيمة التواصلية لجاكبسون على المضامين الإصلاحية لابن باديس، لنكشف عن شتّى الوظائف التي تؤدّيها اللغة عند استعمالها في السياق التخاطبي، وسنبدأ بتحليل أول وظيفة وهي:

1- الوظيفة التعبيرية: Fonction Expressive

تبرز هذه الوظيفة في الخطابات التي تركز على المرسل باعتباره الذات المبدعة والمنتجة للخطاب وتشير بصورة مباشرة إلى انفعالاته ومشاعره وأحاسيسه ومواقفه تجاه قضية ما « وهي تسعى إلى ترك الانطباع بوجود انفعال صادق أو متصنع ».[2]

ويقترح مارتي Marty تسميتها بالوظيفة الانفعالية Emotive أفضل من تسميتها بالتأثرية Emotionnelle.[3]

وإذا كان ابن باديس هو منتج هذه النصوص ومبدعها من هنا يحق لنا طرح السؤال الآتي:

- كيف تجلت الوظيفة التعبيرية في المضامين الإصلاحية؟ وهل صورت – بدقة – انفعالات الكاتب؟ وهل عبّرت حقيقة عن مواقفه المعلنة وغير المعلنة تجاه قضايا مجتمعه؟

---

[1]- ميشال زكريا: مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة للمؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص173.

[2]- حسن مصدق: جاكبسون مونان مبيكي هابرماس وآخرون: التواصل نظريات ومقاربات، ص 65.

[3]- المرجع نفسه، ص ن.

للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها يجب علينا أن ننظر إلى هذه الشخصية من عدّة زوايا:

- عاش هذا المصلح محبا لدينه ومخلصا لوطنه – رغم الشبهات التي أحاطت به والتهم التي ألصقت بحركته – مؤمنا بالوحدة الوطنية وحالما بالقومية العربية، كما كان مناصرا للقضية الفلسطينية وكل قضية إنسانية عادلة في العالم.
- عزف ابن باديس عن شغل الوظائف وتولي المناصب والمسؤوليات – عملا بنصائح مشايخه – من أجل التفرغ لنشر رسالته الإصلاحية.
- قضى هذا المفكر بياض نهاره وسواد ليله في المحافظة على ثقافة الأمة وإحيائها من خلال تعليم اللغة العربية حتى لا تحل محلها اللغة الفرنسية، ونشر المبادئ الإسلامية السمحة ومحاربة الطرق الصوفية والفرق الضالة.
- كان يحمل مشروع الحلم الأكبر وهو "الاستقلال" والتحرر من براثن الاستعمار.
- عدّه الدارسون بمثابة الخبير النفسي الذي استطاع أن يصوّر بدقة المعاناة الداخلية للفرد الجزائري، والإحباطات التي يواجهها كل يوم، وقد حمل مشروعه الإصلاحي صراعا نفسيا جسدته الثنائيات الضدية الآتية [الاستعمار/الاستقلال]، [السجن / الحرية]، [الظلم / العدل]، [العلم / الجهل]، [الظلمات / النور]، تعبّر هذه الثنائيات عن مشاعر القلق تجاه واقعه، كما تصور انفعالاته الداخلية وانسكبت كلها في نفسه وتجسّدت في خطاباته، لقد كان واقعيا أكثر منه خياليا، إنّه يطمح باستمرار إلى السير قدما نحو التطور والتقدم يقول في هذا الشأن:« **وأنا أظن نفسي مفهوما عند من يتصلون بي مثلكم ولو كان ذلك في زمن قليل لأنني ما فتئت أعلن عن فكرتي التي أعيش لها وغايتي التي أسعى لها في كل مناسبة ... فنحن إذا كنا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها، ولا للإضرار بسواها –معاذ الله – ولكن ننفعها وننفع ما اتصل بها من أوطان الأقرب فالأقرب** ».[1]

وتحضر الوظيفة التعبيرية في الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس من خلال النماذج الآتية:

[1]– عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج 3، ص 214.

النموذج الأول: « إذا فنحن – المسلمين – مطالبون دينيا بأن نكون مسلمين، إسلاما ذاتيا، فيما ذا نتوصل إلى هذا الواجب المفروض ؟...».[1]

النموذج الثاني:« من يجهل بكاء الخنساء على صخرها ؟ فقد ضربت العرب بحزنها عليها الأمثال، وشعرها الخالد من أبلغ ما قالته العرب في مرارة اللوعة البالغة »[2]

النموذج الثالث: « من هذا العلامة ؟ من هذا النابغة ؟ من هذا المحقق ؟ من هذا الذي يحمل الألقاب الثلاثة في قرية طولقة ... فكيف يبلغ السيد عبد العزيز هذا كله ونحن لم نسمع باسمه قبل اليوم مع معرفتنا بعلماء الصحراء وكتابها ؟».[3]

النموذج الرابع: «... ونحن ننصح لإخواننا أن يقلعوا عن هذه العادة الذميمة والبدعة الضالة التي يزداد قبحها، ويعظم إثمها بصدورها من وفد الله وضيوفه الذين رجعوا – إن شاء الله تعالى – برحمته ومغفرته وإكرامه ».[4]

النموذج الخامس: « الحمد لله الذي جمل الإنسان بالبيان، وجمل البيان بالقرآن ... أحمده أرسل محمد صلى الله عليه وسلم بشيرا ونذيرا ... وأشكره، هدانا واجتبانا، فرضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا ... فوالله لو بذلت لنا الدنيا بحذافيرها في تركه ما ساوت عند ناحبةرغاما، توفيقا منه تعالى ويقينا صادقا ...».[5]

وردت في هذه النماذج أساليب لغوية تشير بصورة مباشرة إلى ذات المرسل (ابن باديس). ففي قوله:« من جهل بكاء الخنساء على صخرها ؟ ».

يستهل ابن باديس خطابه بطرح هذا السؤال، وهو لا يستخبر به عن مجهول، فهو إذا سؤال تقريري، ويهدف المتكلم من سؤال التقرير تأكيد معارف مسبقة تكون مشتركة بينه وبين المخاطب.

أما الاستفهام الإنكاري فيبرز بصورة واضحة وجلية في قوله:

---

[1]– المصدر نفسه، مج 3، ص 219.
[2]– المصدر نفسه، مج 4، ص 217.
[3]– المصدر السابق، مج 5، ص 60.
[4]– المصدر نفسه، مج 6، ص 18.
[5]– المصدر نفسه، مج 1، ص 157.

- من هذا العلامة ؟
- من هذا النابغة ؟
- من هذا المحقق ؟
- من هذا الذي يجهل الألقاب الثلاثة في طولقة ؟
- فكيف ونحن لم نسمع باسمه ؟

} الاستفهام الإنكاري

يعد الاستفهام الإنكاري من الأساليب الحجاجية « فالأسئلة أشد إقناعا للمرسل إليه، وأقوى حجة عليه، وذلك عندما يكون قصد المرسل غير مباشر ».[1]

والاستفهام الإنكاري هنا يعبّر عن موقف ابن باديس من شخصية تظاهرت بالنبوغ والتفوق وهو لم يسمع باسمه قط، فهو ينكر عليه مثل هذه الادعاءات الباطلة، ويرشده إلى العدول عن مثل هذه التصرفات المغرضة.

ومن الأساليب اللغوية التي عبرت عن انفعالات المتكلم" أسلوب القسم ويمكن التمثيل له بقوله: **" أيها المسلم الجزائري الكريم ! ...تالله لن تكون مسلما إلا إذا حافظت على الإسلام ، ولن تحافظ عليه إلا إذا فهمته ...".**[2]

يذهب الدارسون إلى أن للقَسَمِ قوة تأثيرية على المتلقي خاصة و أن طرفي الخطاب تربطهما مرجعية دينية واحدة، فقد وظّف ابن باديس هذا النوع من الأساليب من أجل تأدية أغراض تواصلية، فهو وسيلته الوحيدة لإثارة مشاعر المسلم ليشاركه أفكاره ويخلق انسجاما مع معرفته.

ويلجأ المتكلم/ ابن باديس بأسلوبه العذب السلس إلى التعبير عما يختلج في نفسه من مشاعر داخلية (الوظيفية الانفعالية) من خلال توظيفه لأساليب لغوية متنوعة أشر لها تركيبا وتداوليا بالاستفهام الإنكاري والاستفهام التقريري والقسم، وإن كانت هذه الظواهر اللغوية لم تحضر بقوة في هذه المدونة، كون أن المقام يقتضي التبليغ والتقرير والتعليم، ولا يحتفي كثيرا بالتغني بالذات.

---

[1] – عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص 484.

[2] –عبد الحميد بن باديس: المصدر نفسه، مج 6، ص35.

2- الوظيفة الندائيـــة : **fonction conative**

ويطلق عليها أيضا بالوظيفة الإفهامية أو التأثيرية وتتوجه بصورة مباشرة إلى الطـــرف الآخـــر الموجه له الخطاب (المتلقي)، وتبرز هذه الوظيفة مـــن خـــلال صـــيغ النـــداء **vocatif** و الأمـــر **impératif**.[1]

وهذه الصيغ لا تحتمل صدقا أو كذبا و إنما الغرض منها لفت انتباه المخاطب أو إثارته للقيـــام بفعل ما أو الكف عنه.

وتتجلّى هذه الوظيفة في النماذج الآتية:

– النموذج الأول: " وبعد فأنتم يا رجال القضاء الإسلامي – الرمز الوحيد الذي بقـــي للســـلطة الإسلامية...".[2]

النموذج الثاني: " أيها القسطنطينيون...برهنوا على وطنيتكم، برهنوا على حياتكم، برهنوا علـــى محبتكم للعلوم والفنون...".[3]

– النمـــوذج الثالث:

" أيها المسلم الجزائري ....هاك آدابا تقتضيها انسانيتك، ويفرضها عليـــك دينـــك، وتســـتدعيها مصلحتك في هذه الحياة...هاك ما إن تمسكت به كنت انسان المدنية ورجل السياسة وسيدا حقيقيا يرمق من كل أحد بعين الاحترام والتعظيم...حافظ على صحتك...قه أهلـــك وولـــدك ومـــن إلى رعايتك...فاحذر كل (متعيلم) يزهدك في علم من العلوم...".[4]

_ النموذج الرابع:

"...هذا أيها الإخوان– هو مرادي ، بقولي:" أني أعيش للجزائر" والآن – أيها الإخـــوان– وقـــد فهمتموني وعرفتم سمو فكرة العيش للإسلام والجزائر فهل تعيشون مثلي للإسلام ؟ نعـــم! نعـــم ! بصوت واحد.

1- حسن مصدق: جاكبسون، مونان، ميكي، هابرماس وآخرون: التواصل نظريات ومقاربات، ص67

2- عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق ، مج 6، ص95

3-المصدر نفسه، مج5، ص52.

4- المصدر نفسه، مج3، ص157.

فلنقل كلنا: ليحيا الإسلام! لتحيا الجزائر !"[1]

– النمـــوذج الخامس:

" أيها الشعب عملت و أنت في أول عملك فاعمل ودم على العمل وحافظ على النظام ، واعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو إلا خطوة ووثبة ووراءه خطوات ووثبات وبعدها إما الحيـــاة و إمـــا الممات".[2]

– النموذج السادس:

" وقد كتب أبناء يعرب و أبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون...فأي قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم ؟لولا الظنون الكواذب والأماني الخوادع، يا عجبا !لم يفترقوا وهـــم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوي؟....."."[3]

– النموذج السابع:

" من هذا الغلام العربي في عباءته؟ من هذا الراعي الصغير في غنيمته؟ من هذا الصبي الناشيء علـــى الحمل والرعاية من طفولته؟ من هذا اليافع الذي يأبى إلا أن يعيش من كد يمينه؟ ...". [4]

– النموذج الثامن:

" عجبنا أن تعطل جريدتنا بهذه التصرفات الإدارية...عجبنا....وعجبنا...وعجبنا ...ولم نعجب من هذا كله ! ...لأنا نعلم أن في أطراف الإدارات عنا كب لا تفتأ تنسج من خيوط الأوهام بيوتا".[5]

– النموذج التاسع:

" جرت عادتنا أن نفتتح دروس التفسير من كل سنة بخطبة ، تارة نخرج منها إلى نفس التفسير وتارة نطرق بعدها موضوعا مناسبا للمقام، ولم نكن فيما مضى نعود إلى كتابتها وفي هذه السنة رأينـــا أن نحلي بها صدر الشهاب تعميما للفائدة." .[6]

1- المصدر السابق، مج 3، ص214 و215.
2- المصدر نفسه، مج3، 303.
3- المصدر نفسه، مج6، 16.
4- المصدر نفسه، مج4، 259.
5- المصدر نفسه، مج5، 06..
6- المصدر نفسه، مج1، ص157.

– النموذج العاشر:

" ...و الملتزم للكذب الضاري عليه يرتكب العظائم ولا يبالي أن ينفي عن نفسه كاذبا..."[1]

تتجلّى الوظيفة الندائية في النماذج السابقة من خلال بروز الأساليب الإنشائية الآتيـــة: الأمـــر و النداء والاستفهام فقد تعددت هذه الأساليب ، وتعدّدت معها الصيغ الموجهة للمخاطبين والغرض من ذلك إثارة انتباه المتلقي من جهة، والامتثال للأوامر من جهة أخرى و الجدول الآتي يوضح ذلك:

رقم النموذج	الأمر	النداء و التنبيه	التعجب	النفي و الاستفهام
النموذج الاول	/	(با) رجال القضاء الإسلامي	/	/
النموذج الثاني	برهنوا(تكررت 3مرات)	أيها القسطنطينيون	/	/
النموذج الثالث	هاك(تكررت 3مرتين) حافظ على صحتك قه أهلك وولدك فاحذر كل متعيلم	أيها المسلم الجزائري	/	
النموذج الرابع	فلنقل كلنـــا: ليحـــب الإسلام لتحيا الجزائر	أيهـــا الإخـــوان(تكررت مرتين)	/	فهل تعيشون مثلي للإسلام وللجزائر
النمـــــــــوذج الخامس	فاعمل ودم على العمل واعلم إن عملك هـــذا على جلالته...	أيها الشعب	/	/
النموذجالسادس	/	/	يا عجبا ! لم يتفرقوا وهم الأقوياء !	فأي قوة بعد! هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم ؟ فكيف يفترقون

1- المصدر السابق، مج2، ص282.

				وغيرهم القوي؟
النموذج السابع	/	/	/	من هذا الغلام العربي في عباءته؟ من هذا الراعي الصغير في غنيمته؟ من هذا الصبي الناشيء على الحمل والرعاية منذ طفولته؟ من هذا اليافع الذي يأبى العيش بكد يمينه
النموذج الثامن	/	/	عجبنا أن تعطل جريدتنا...ع جبنا ..وعجبنا... و لم نعجب من هذا كله !	لا تفتأ تنسج من خيوط الأوهام بيوتنا
النموذج التاسع	/	/	/	و لم نكن فيما مضى نعود إلى كتابتها
النموذج العاشر	/	/	/	لا يبالي عن نفسه كذبا

وأمثل لنسبة تواتر الأساليب الإنشائية المتعلقة بالوظيفة الندائية من خلال الجدول الآتي:

الأساليب الإنشائية	الأمر	النداء	التعجب	الاستفهام	النفي
نسبة تواترها	%42.42	%15.15	6.06	21.21	9.09

ويوضح السلم البياني أنواع الأساليب الإنشائية في النماذج السابقة

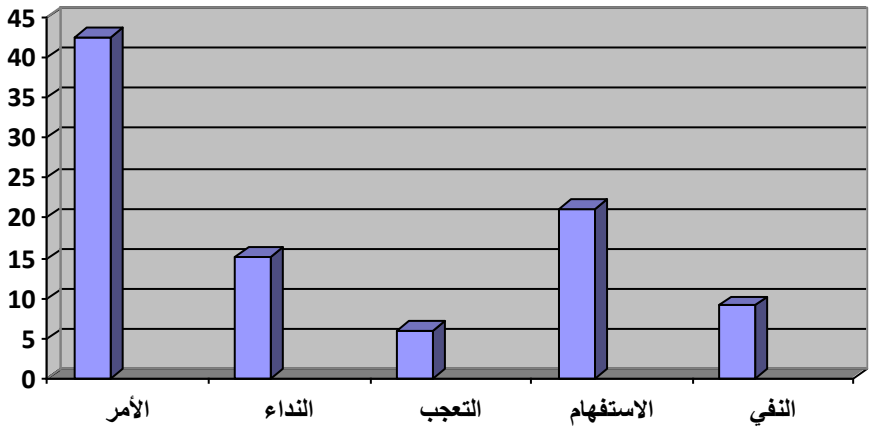

ما يمكن أن يستنبط من هذه النسب المئوية للأساليب الإنشائية بأنواعها، أن تواتر أفعال الأمر ورد بأعلى نسبة، وهذا يرجع إلى طبيعة الخطاب الإصلاحي الذي يهدف إلى إثارة المتلقي وتوجيه سلوكه الوجهة المطلوبة ، وقد توخّى ابن باديس الإستراتيجية التوجيهية في مخاطبة المسلم الجزائري ويتجلى ذلك في قوله:" {هاك، حافظ، قه ، احذر ، اعمل...}.

ويخرج فعل الأمر في هذه السياقات عن دلالته الأصلية والمتمثلة في طلب القيام بالفعل على وجه الاستعلاء إلى دلالات أخرى تتمثل في النصح و الإرشاد، لأنّ ابن باديس كان يحرص دائما على ما يخدم مصلحة الفرد الجزائري، حيث كان يجنح في كل وقت إلى تحقيق التعاون معه من أجل إنجاح رسالته الإصلاحية وعلى هذا الأساس اقترح غرايس استثمار مبدأ التعاون عند التخاطب وهذا المبدأ "...يوجب أن يتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف المرسوم من الحديث الذي دخلا فيه"[1] ولا يتحقق التعاون بين طرفي الخطاب (ابن باديس/ المسلم الجزائري) إلا إذا امتثل الطرف الثاني إلى كل ما

1- ينظر طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص238 .

يوجه إليه من أوامر لأن " كل فعل تواصلي ينتج أثارا مختلفة بمجرد وجود تعبير كتابي أو شفوي" [1] و الآثار الناتجة عن هذه الأوامر (التي أصدرها ابن باديس)تتمثل أساسا في تغيير ذهنية المسلم الجزائري وتطهيرها من كل الشوائب التي علقت بها من انحراف عقدي وقابلية للاستعمار ، وجهل و أمية، ورضوخ واستسلام للمستعمر، والرضا بالهوان، ويأس من الحرية وغيرها وعليه فإن الرؤية الإصلاحية لهذا المفكر الجزائري تتأسس على التغيير الداخلي الذي يبدأ من الفرد ثم ينتقل إلى المجتمع لأن إصلاح الفرد هو أساس كل إصلاح.

ولذلك ارتبطت الوظيفة الندائية في هذه النماذج بالمرسل إليه (المسلم الجزائري) فشكل محور التلفظ والهدف من كل ذلك إثارته وتوجيه و التأثير فيه ومن هنا كان "الفعل التواصلي هو فعل العمل الذي يتخذ هدفا له إثارة عمل ما ".[2]

وتأثير ابن باديس على مخاطبيه امتد إلى الجيل الذي عاصره ، والأجيال اللاحقة ، فقد كشف الواقع ، أن الشعب الجزائري كان دوما متعطشا لفكر هذا الرجل، ينهل منه باستمرار ودون توقف، وكانت خطاباته تحظى بقبول و استحسان الجمهور ، فكان تأثيره عليهم واسع النطاق، بل إن احتضان الجزائريين له ولحركته هو الذي ساعد على إنجاح مشروعه وتفوقه على المستعمر.

ومن الأساليب الأخرى التي ارتبطت بالوظيفة الإفهامية في النماذج السابقة " الاستفهام والذي بلغت نسبة تواتره 21.21%كما في قوله " فهل تعيشون مثلي للإسلام وللجزائر؟" ينطوي هذا السؤال على بعد تداولي والهدف منه هو التقرير.

والاستفهام التقريري عموما لا ينتظر من ورائه المستفهم جوابا، إنّما غرضه تقرير ما ترسخ في ذهن المستمع من معارف ومعلومات ويكون الجواب عن هذا السؤال غالبا بالإيجاب وهذا ما يؤكده جواب الحاضرين بقولهم : " نعم ! نعم !، مما يؤكد تفاعلهم الشديد معه.

فالمتكلم يهدف إلى خلق التواصل مع المتلقي بهدف استمالته والتأثير فيه لتحقيق مقاصد معينة، ومن هنا تبرز الوظيفة الندائية التي تؤكد على أهمية المرسل إليه ومدى تأثير المتكلم عليه لحظة إلقاء الخطاب.

---

[1] فرانسواز أرمنيكو : المقاربة التداولية ، ص75

[2] ينظر محمد مفتاح دينامية النص، ص31.

وورد أسلوب النداء بنسبة تقدر بـ 15.15% كما في قوله : " أيها الإخوان " " أيها الشعب"، "أيها المسلم الجزائري"، " يا رجال القضاء الإسلامي " أيها القسطنيطينيون "تكشف أداة النداء في هذه النماذج عن نوع الفئة أو الطبقة الاجتماعية الموجه إليها الخطاب ،ففي قوله " أيها الشعب " " أيها الإخوان" فالخطاب موجه إلى كافة أفراد الشعب ولا يقصد فئة محددة .

وفي قوله " يارجال القضاء الإسلامي "، " أيها القسطنيطينيون" فالخطاب موجه إلى فئة محدّدة من الشعب الجزائري، حيث كشف أسلوب النداء والتنبيه في هذا السياق عن هوية المشاركين في الخطاب ومرتبتهم الاجتماعية (رجال القضاء الإسلامي) ونوع اللغة المستخدمة ويتّضح ذلك من خلال توظيفه لبعض صيغ التأدب كما في قوله "أيّها الإخوان " مما يدلّ على التزام ابن باديس بضوابط تهذيبية عند مخاطبة الآخرين.

أما فيما يخص أسلوبا النفي و التعجب، فوردا بنسب ضئيلة مقارنة بباقي الأساليب الأخرى لأن وظيفة الخطاب الإصلاحي هي الإفهام والتبليغ ولا يحتفي كثيرا بالانطباعات النفسية (التعجب) فقد كان ابن باديس واقعيا أكثر منه خياليا يتعامل مع القضايا والأحداث الاجتماعية والسياسية برؤية عقلانية ومنطقية مستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويظل المرسل إليه (**الوظيفة الندائية**) في الخطاب الإصلاحي هو العملية التبليغية، بل إن مقاصد ابن باديس ونواياه مرتبطة أساسا بمدى استجابة المرسل إليه وتفاعله مع مضامينه الإصلاحية.

3- الوظيفة المرجعيـــة: fonction référentiel

وتبرز في المرسلات " التي يتم التركيز فيها على السياق التواصلي أو على نقل معارف ... وهي الوظيفة المهيمنة في التواصل اليومي.."[1]و تسمى هذه الوظيفة أيضا بالوظيفة التعريفية أو التعينية؛[2] أي أن كل رسالة تتطلب مقاما معينا تحيل عليه " وهذا المقام قابل للإحاطة من طرف المتلقي، وهو إما لفظي أو من الممكن التلفظ به".[3]

1- علي آيت أوشان: السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء،ط1، 2000، ص95.
2- نعمان بوقرة : المدارس اللسانية المعاصرة، ص100.
3 - حسن مصدق :جاكبسون ومونان ومبيكي وآخرون : التواصل نظريات ومقاربات، ص64 وص65.

أمّا عن حضور هذه الوظيفة في الخطاب الإصلاحي فإنّها تتجسد من خلال طبيعة الموضوعات التي عالجها ابن باديس، وهي تدور كلها حول محور واحد وهو " الإصلاح الحضاري" الذي تتوزع فروعه على الإصلاح الديني، والإصلاح السياسي والإصلاح الاجتماعي وتجسد هذه الفروع في تضافرها حصنا منيعا للتصدي لمخططات فرنسا التغريبية التي تهدف إلى تقويض معالم الأمة الجزائرية، والقضاء على كيانها وما يجدر الإشارة إليه أنّه لا تكاد تخلو خطبة من خطب ابن باديس من مرجعية دينية أو سياسة أو اجتماعية ومن النماذج التي تضمنت هذه المرجعيات:

– النموذج الأول:

" أيتها الأمة الكريمة ، أيها النواب الكرام !

حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمة ترى أو ترى أكثريتها ذلك كثيرا عليها...لندع الأمة الفرنسية ترى رأيها في برلمانها ولنتمسك عن إيمان وأمل بشخصيتنا ولنطلب بالمساواة التامة في جميع الحقوق في وطننا و أولها المساواة في المجالس النيابية...".[1]

– النموذج الثاني:

" أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية هائم بها...إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا ، وفتحنا قلوبنا ، فإن مدت إلينا يدها وملأت بالحب قلوبنا فهو المراد ..." .[2]

– النموذج الثالث:

" إن كثيرا من الناس يكونون في صحة من أبدانهم وفراغ من أشغالهم ولا يعمرون أوقاتهم الفارغة بطاعة الله ، ولا يستعملون أبدانهم الصحيحة فيها...".[3]

1- عبد الحميد بن باديس، المصدر السابق، مج3، ص336.

2- المصدر نفسه ، مج 3 ،ص303.

3- المصدر السابق ، مج 2 ،ص173.

– النموذج الرابع:

"... أحمده ، أرسل محمدا صلى الله عليه وعلى له وسلم– بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وأنزل عليه القرآن تبصرة وذكرى، ومعجزة كبرى، حجة وتذكيرا ، وشرع لنا من دينه الحنيف، مناهل العز والسعادة...."[1].

– النموذج الخامس:

" ولا أدل على وجود روح الحياة في الأمة، وشعورها بنفسها ورغبتها في التقدم من أخذها بأسباب التعليم: التعليم الذي ينشر فيها الحياة ويبعثها على العمل والسمو بشخصيتها في سلم الرقي الإنساني ويظهر كيانها بين الأمم".[2]

– النموذج السادس:

" يا جناب الوزير إلى اليوم ، وفي هذه الظروف ما يزال التضييق متواليا ومتزايدا على التعليم الإسلامي.

فالمساجد محجرة، وكثير من المدارس معطلة، وكثير من الكتاتيب القرآنية مغلقة وكثير من المعلمين متابعون في مجالهم ومئات الآلاف من أبنائنا مشردون في الشوارع".[3]

– النموذج السابع:

" قد جرت عادة الناس من قديم عند قدومهم من الحج أن يمكثوا في بيوتهم أياما ثلاثة أو سبعة يقتبلون الزائرين والمهنئين وينفقون في ذلك ما قد يبلغ شطر ما أنفقوا في الحج أو يقاربه أو يجاوزه بحسب حالهم ...وفي هذا مفسدتان عظيمتان...".[4]

إن المتأمل في هذه النماذج المختارة ، يدرك أنّها تحيل إلى مرجعيات متعددة نظرا لتعدد المقاصد التداولية للمتكلم وأهداف الخطاب، إلا أنّ القارئ لا يعزب عنه أن الجامع بينها هو ذلك الرابط الديني

1- المصدر نفسه ،مج ،ص157.
2- المصدر نفسه، مج 4،ص351.
3- المصدر نفسه ، مج 6 ، ص228.
4 – المصدر نفسه، مج 6، ص18.

الذي يحيل بصورة مباشرة إلى القرآن الكريم و إلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ظل ابن باديس يغترف من نبعهما الصافي طيلة مسيرته الإصلاحية، فالمرجعية الدينية حاضرة بقوة في خطاباته .

وقد استمد ابن باديس قوته وصلابته وجرأته في قول الحق ودفع الظلم، ومجابهة العدو، من هذين المصدرين (القرآن والسنة).

و ما يميّز مشروعه الإصلاحي أنّه مبني على نظرة متكاملة لا تفصل بين الدين والحياة الاجتماعية ولا بين الدين والسياسة لأن " الاهتمام بالنضال من أجل الوطن والدين واللغة واضح في كل أعماله ودروسه وخطبه ومقالاته ثم أن الربط بين هذه العناصر المتكاملة واعتبارها شيئا واحدا ظاهر كذلك في أفكاره وأعماله وبرامجه، لأنّه لا يتصور أن الإسلام مفصول عن اللغة العربية، وأن هذه الأخيرة مفصولة عن القرآن والإسلام كما لا يتصور الجزائر باعتبارها وطنا إسلاميا عربيا مفصولة عن هذين العنصرين، وقد يبدوا أن هذا الذي ذكرناه والذي تفرغ له ابن باديس و أعطاه كل حياته ليس هدفا واحدا، وإنّما هو هدف محوري متفرع إلى أهداف أخرى...".[1]

فالخطاب الإصلاحي وإن كان يبدو للقارئ أنّه نصوص متفرقة لا رابط يجمعها إلا أن المتفحص لمضامينها يدرك بفكره الثاقب أنّها متصلة ببعضها يحكمها الانسجام والترابط بين الموضوعات لاشتراكها في هدف واحد وهو " الإصلاح" سواء أكان هذا الإصلاح دينيا أم اجتماعيا أم سياسيا وهو ما يؤكّده القول السابق.

و إذا كانت المرجعية الدينية تحضر بقوة فإن باقي المرجعيات أسهمت بنسب متفاوتة في تشكيل بنية هذه الخطابات .

وقبل تحديد المرجعيات التي تحيل عليها مضامين النماذج السابقة ، نشير بدءا إلى أن عناوين هذه المدونة لا تخلو من الإحالة على مرجع محدد انطلاقا من أن العنوان هو " بنية دالة من بنيات النص، ونسق من أنساقه اللغوية، وما هو في الواقع إلا بنية أولى لدخول عالم النص واقتحامه".[2]

فالعنوان هو اختزال لمضمون النص، وهو الذي يحقّق له تناسله ونموه و استمراريته، وبإسقاط الترسيمة التواصلية لرومان جاكسون على العناوين التي يتضمنها الخطاب الإصلاحي، نلاحظ حضور

---

(1) عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص 62 و ص63.

(2) علي آيت أوشان : السياق والنص الشعري ، ص142.

جميع المرجعيات الدينية والاجتماعية والسياسية ، وإن كان بنسب مختلفة ومتفاوتة والجدول الآتي يوضح ذلك:

عنوان النموذج	نوع المرجعية	رقم المجلد	الصفحة
نعمة الإظهـــار و البيـــان بالرســـول والقرآن	دينية	01	162
كيف تكون الدعوة إلى الله والـــدفاع عنها	دينية	01	176
بر الوالدين	دينية	01	214
العدل في الإنفاق	دينية	01	235
الصحة والفراغ استغلالهما والاستفادة منهما	دينية	02	173
أثر النيات في الأعمال	دينية	02	181
ستر وجه المرأة من الدين على ما فيه من تفصيل	دينية	02	203
خروج النساء إلى المساجد	دينية	02	216
كتاب امرأتنا	اجتماعية	03	429
فلسطين الشهيدة	سياسية		
نداء إلى الأمة الجزائرية ونوابها	سياسية	03	374
بين المسلمين في غرداية	اجتماعية		

حول منع الإباضية إخـــوانهم مـــن الآذان في غرداية	اجتماعية +دينية	03	336
احتفال جمعية التربية و التعليم بالمولد النبوي	اجتماعية+ دينية	03	453
		03	454
		03	521
أثر السيد رشيد في العالم الإسلامي	دينية + سياسية	04	203
مصطفى كمال رحمه الله	سياسية	04	208
في سبيل الوحدة في تونس العزيزة	سياسية	04	317
مؤتمر لوكارنو فـــازت فيـــه فرنســـا وخابت به حكومة موسكو	سياسية	05	11
تصريحات جناب الوالي العام	سياسية	05	30
شبابنا في العيد الرياضـــي العشـــرين بقسنطينة	اجتماعية	05	162
التربية العامة أيها المسلم الجزائري	اجتماعية	05	238
التعليم : تعليم اللغتين ضروري لنا	اجتماعية	05	229
ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان	دينية +اجتماعية	06	16
جمعية التربيـــة والتعلـــيم الإســـلامية	دينية +اجتماعية	06	29

بقسنطينة			
الاحتجاجات على المعاملة السيئة التي عومل بها الحجاج هذه السنة	سياسية + دينية	06	41
قضية فلسطين	سياسية	06	109
في سبيل تعليم الإسلام ولغة الإسلام	دينية +اجتماعية	06	116
مساجيننا يسجنون مع المجرمين	اجتماعية	06	311

وأمثل لنسبة ورود كل مرجعية من خلال عملية الإحصاء التي سنبينها من خلال الجدول الآتي:

نوع المرجعية	دينية	اجتماعية	سياسية
النسبة	38.70	35.48	25.80

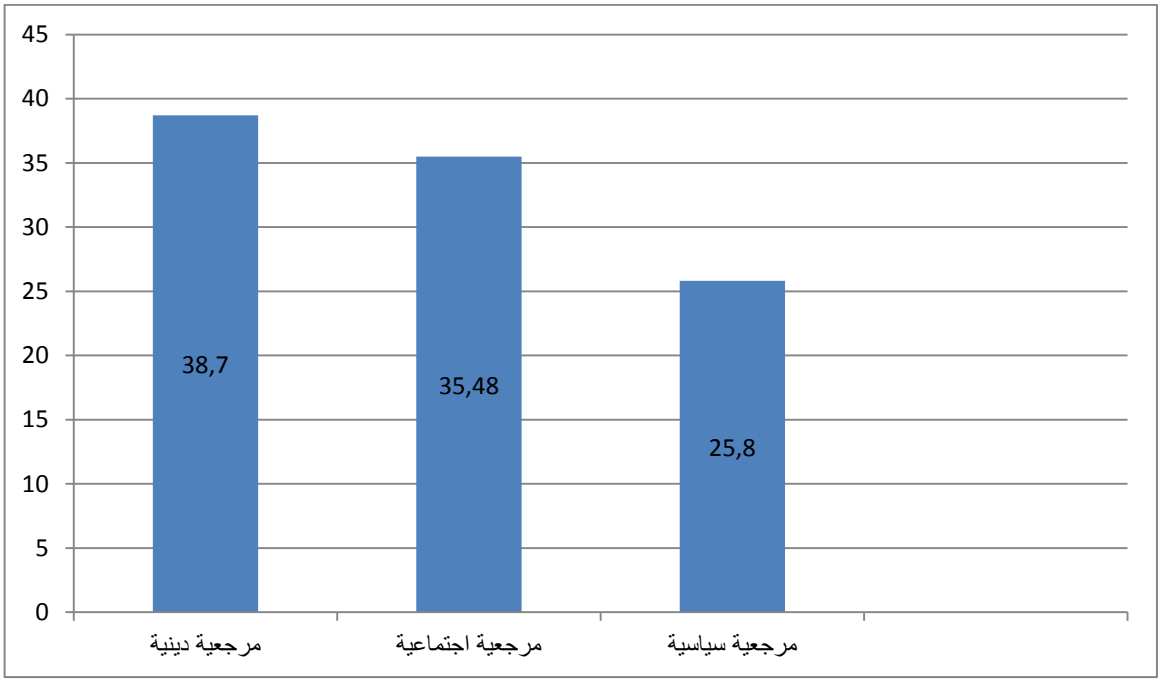

يغلب على المرجعيات المستمدة من العنوان المرجعية الدينية بنسبة 38.70% وتليها المرجعية الاجتماعية بنسبة تقدر بـ 35.48 %وأخيرا المرجعية السياسية بنسبة تقدّر 25.80ب% ، واحتفاء ابن باديس بالمرجعية الدينية يفرض على القارئ طرح العديد من الأسئلة ومن بينها:

ـ هل انشغال هذا المصلح بالقضايا الدينية كان عن قصد ونية أم أنه جاء اعتباطا؟

ـ و هل هناك مبررات تقف وراء هذه الاختيارات؟

وللإجابة عن هذين السؤالين يجب إعادة النظر في مسار الحركة الإصلاحية الباديسية في الجزائر، فحضور المرجعية الدينية بقوة يوضّح طبيعة المنهج الذي تبناه ابن باديس، والأساس الذي ارتكز عليه في الدعوة والإصلاح لأن : " الدراسة التاريخية الموضوعية تثبت أن للحركة الإصلاحية الباديسية دورا بارزا في ربط الشعب بدينه...وهذه قاعدة انطلاق أي عمل تغييري جاد".[1]

ويؤكد الطرح السابق أن للجانب الديني أهميته في حياة المسلم الجزائري فقد عدَّه ابن باديس قاعدة كل نشاط إصلاحي يهدف إلى التغيير الحقيقي والجاد.

و إذا ما تأملنا بنية هذه العناوين (كما وضّحنا ذلك في الجدول السابق) نجد أنّها تحيل مباشرة على القضية الأساسية التي يدور حولها موضوع الخطاب، ومن هذا المنطلق يمكن أن نعد كل عنوان من هذه العناوين فعلا كلاميا شاملا له علاقة بالبنية الدلالية الكبرى ، وهذا الفعل الكلامي الشامل أو الكلي يمكن أن ينجز بواسطة متوالية من الأفعال الكلامية.[2]

ويمكن الإشارة إلى أن الفعل الكلامي الشامل أو الكلي الذي طغى على عناوين هذه المدونة هو فعل "النصح والإرشاد والتوجيه"، وتنضوي تحت هذا الفعل الكلي أفعالا كلامية جزئية تتضافر كلّها مجتمعة لخدمة الغرض العام من هذه الخطابات.

أما عن نسبة حضور هذه المرجعيات في المضامين الإصلاحية انطلاقا من النماذج المختارة، فإننا سنوضحها من خلال الجدول الآتي:

1- عمار بن مزوز : عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة و الاصلاح، ص237.

2 - فان دايك : النص و السياق ،ص316.

أ- المرجعية الدينية:

رقم النموذج	الألفاظ الدالة على المرجعية الدينية
01	شرفنا الإسلامي- نتمسك عن إيمان –أمل
02	أحمده- أرسل- محمد صلى الله عليه وسلم -بشيرا نـــذيرا داعيـــا – الله – بإذنه- سراجا- منيرا- أنزل – القرآن- نصرة –ذكرى- معجزة كبرى – حجة – تذكيرا شرع دينه – الحنيف
03	الشريف – لا يعمرون
04	طاعة – الله- لا يستعملون أبدانها الصحيحة فيها
05	روح الحياة
06	التعليم الإسلامي – المساجد – حجرة- الكتاتيب القرآنية
07	قدومهم من الحج- مفسدتان عظيمتان – ينفقوا شطر ما أنفقوا في الحج.

ب- المرجعية الاجتماعية

رقم النموذج	الألفاظ الدالة على المرجعية الاجتماعية
01	/
02	عمل – شعب
03	الناس
04	/
05	الحياة – العمل- سموها في شخصيتها – شعورها بنفسها- رغبتـــها في التقدم- أسباب التعليم- يبعثها على العمل- سلم الرقي الاجتماعي
06	المدارس معطلة- المعلمين- أبنائنا –مشردون – الشوارع
07	جرت- عادة – بيوتهم –يقتبلون الزائرين- المهنئين- ينفقون شطر مـــا أنفقوا- حسب حالهم.

ج- المرجعية السياسية:

رقم النموذج	الألفاظ الدالة على المرجعية السياسية
01	الأمة – النواب- القومية- الأمة الفرنسية- البرلمان- برلمانها- المساواة- الحقوق- وطننا – المجالس الشعبية
02	الشعب – الحرية- الحكومة الفرنسية
03	جناب الوزير – متابعون في المحاكم
04	/
05	/
06	/
07	/

نوع المرجعية	المجموع	النسبة المئوية
دينية	37	%46.83
اجتماعية	26	%32.91
سياسية	16	%20.31
المجموع	79	%100.00

وأمثل لهذه النسب من خلال الرسم البياني الآتي:

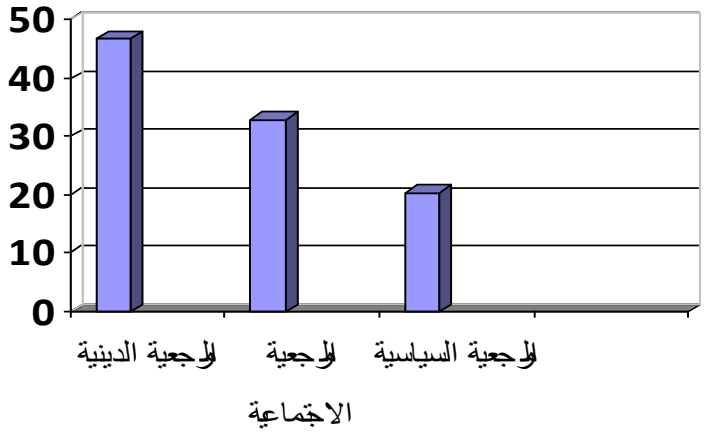

ما نستخلصه من المخطط المبين أعلاه أن المرجعية الدينية قد احتلت مركز الصدارة بنسبة تقدر بـ **46.83 %**، وتأتي في المرتبة الثانية المرجعية الاجتماعية بنسبة تقدر بـ**32.91%** وتليها المرجعية السياسية بنسبة تقدر بـ **20.31%** وهذا التفاوت في النسب يعود إلى طبيعة القضايا التي شغلت أكثر فكر عبد الحميد بن باديس، فقد أولى عناية فائقة للإصلاح الديني من خلال فتح الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم والحديث الشريف كما حرص على تقديم الدروس الدينية في المساجد لتعليم الناس أمور دينهم عملا. **بقوله تعالى** ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران (104).

فإذا ما استعرضنا" أعمال ابن باديس نجد اهتمامه بالإسلام وارتباطه به جعله يتخذه محورا جوهريا في إستراتيجية التغيير".[1]

و لم تقف جهود ابن باديس عند الإصلاح الديني لوحده، بل تعدّاه إلى إصلاح الجانب الاجتماعي فأولى عناية فائقة لحقل التربية والتعليم واهتم بحقوق المرأة كما انشغل بتثقيف الفرد.

وقد اتخذ هذا المفكر الدين منهجا لمعالجة هذه القضايا جميعها فهو لا يفصل بين الدين و المجتمع، ولا بين الدين والسياسة " بل يجعل السياسة جانبا من الدين ونشاطا قائما عليه."[2]

وهذه الإستراتيجية التي اتبعها ابن باديس في التعامل مع واقع مجتمعه جعلت نظرته للإصلاح نظرة متكاملة وشمولية، وهذه الخاصية جعلت حركته تتّسم بسمات مختلفة تميزها عن حركات الإصلاح في الوطن العربي.

و إذا كان المنطلق عند ابن باديس واحدا، والهدف واحدا، فإنّ هذا ما يجعل خطاباته على تنوعها واختلافها تصب في مصب واحد، مما يحقق لهذه الأعمال ترابطها وانسجامها على المستوى الشكلي و المضموني معا، حتى تبدو أنّها كتلة نطقية واحدة ، ومن هنا تكمن قيمة هذا العمل وتميزه" مما يجعله مفتوحا على لعبة القراءة".[3]

1- عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ،ص74.
2- المرجع نفسه،ص78.
3- علي آيت أوشان: النص والسياق الشعري، ص145.

وبهذا الفهم المؤسس تتحول لغة الخطاب الإصلاحي إلى قناة تواصل من خلالها يتم تفاعل القارئ مع هذه النصوص في إطارها الزماني والمكاني، والحديث عن اللغة باعتبارها قناة اتّصال يقودنا للحديث عن الوظيفة الانتباهية وهي الوظيفة التي تحرص على إبقاء التواصل مستمرا بين طرفي الخطاب وهذا ما سنكشف عنه في العنصر الموالي.

4- الوظيفة الانتباهية: Fonction phatique

وتظهر بصورة مباشرة في المرسلات " التي تراعي إقامة الاتصال و تأمين استمراره، وتقوم هذه الوظيفة على تعابير تتيح للقارئ تأمين الاتصال أو قطعه" .[1]

وتبرز هذه الوظيفة في النماذج الآتية:

- النموذج الأول: " هاك وصايا مختصرة على وجه الإجمال وسنعيدها عليك مختصرة على وجه التفصيل...هاك آدابا تقتضيها إنسانيتك ...هاك ما إن تمسكت به كنت إنسان المدنية ورجل السياسة...".[2] ويضيف قائلا: **" احذر من الخيانة...احذر من التوحش....احذر من التعصب"** .[3]

- النموذج الثاني:

" أيتها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام

- **اليوم وقد آيسنا من غيرنا يجب أن نثق بأنفسنا**
- **اليوم وقد تجوهلت قيمتنا يجب أن نعرف نحن قيمتنا**
- **اليوم وقد خرست الأفواه عن إجابة مطالبنا يجب أن نقول نحن كلمتنا.**
- **اليوم وقد اتحد ماضي الاستعمار وحاضره علينا يجب أن تتحد صفوفنا**
- **أيتها الأمة الكريمة أيها النواب الكرام ! ...."**

- النموذج الثالث:

" إن من جنايات الاستعمار الأوروبي على البشرية أنه قلب حقائق التاريخ".[4]

---

(1) ميشال زكريا : مباحث في النظرية الالسنية وتعليم اللغة ،ص173.

(2) عبد الحميد بن باديس: المصدر السابق، مج3، ص157.

(3) المصدر نفسه ، مج 4، ص29

(4) المصدر نفسه ، مج 4، ص29.

– النموذج الرابع:

" أيها القسطنطنيون...

برهنوا على وطنيتكم ، برهنوا على ديانتكم، برهنوا على حياتكم، برهنوا على محبتكم للرقي...برهنوا على أنكم تعملون للمستقبل، برهنوا على هذا كله."[1]

– النموذج الخامس:

"ها أنتم أولاء لا فرنسا خدمتم، ولا جيرانكم راعيتم فما أحقكم بالبغض وتعميل الجزاء من الجانبين"[2].

إن الظاهرة التي تشدّ انتباه القارئ في هذه النماذج المختارة هي ظاهرة التكرار سواء أكان تكرارا على مستوى المفردات ويسمى بـ " التكرار اللفظي أو المعجمي أو تكرارا على مستوى الجمل ويسمى بالتكرار النحوي أو الجرمايتكي" وسنوضح أهمية التكرار في الحفاظ على إقامة الاتصال وتأمين استمراره من خلال تحليل هذه النماذج:

1- التكرار اللفظي:

أ- النموذج الأول:

يظهر التكرار في هذا النموذج بنوعيه (التكرار اللفظي والتكرار النحوي)، والمخطط الآتي يوضح ذلك:

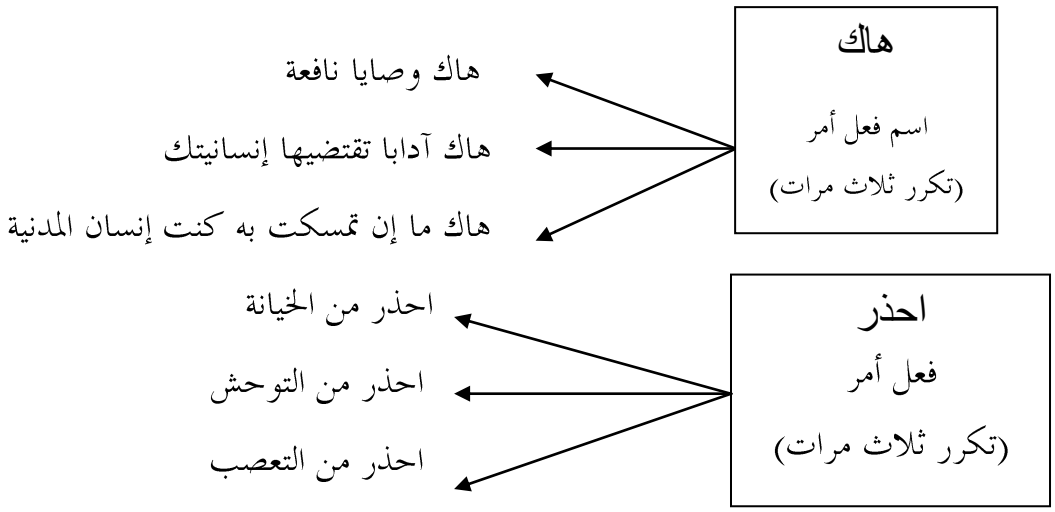

(1) المصدر نفسه، مج 5، ص 52

(2) المصدر السابق، مج 5،ص 156.

ب-النموذج الثاني:

نلاحظ تكرار لفظ " اليوم " و " وقد " و " ويجب أن " و" الواو" و" نحن"

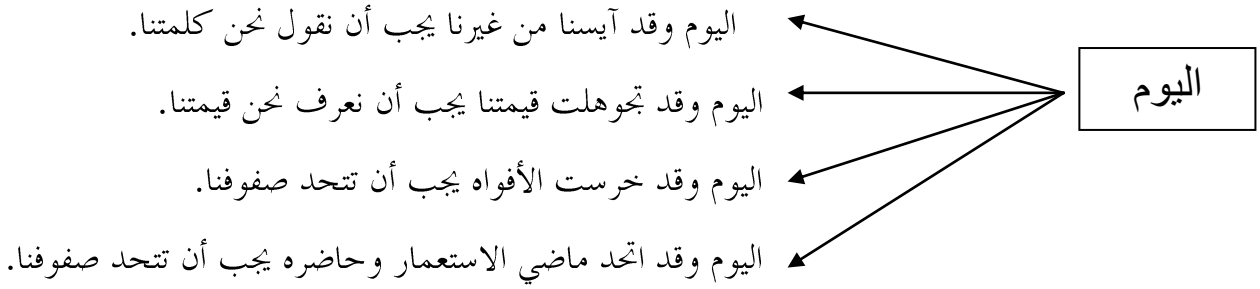

ويظهر تكرار الجملة في قوله:أيتها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام

أيتها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام (تكررت مرتين)

جـــ- النموذج الثالث:

نلاحظ في هذا النموذج تكرار أداة التأكيد إن /أن

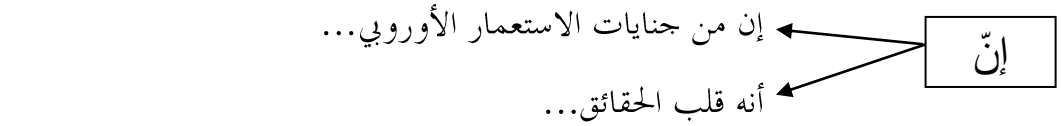

دـــ- النموذج الرابع:

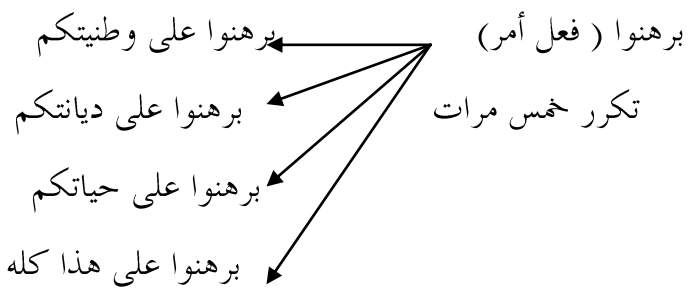

ه-النموذج الخامس:

نلاحظ حضور أداة التنبيه (الهاء) و(اللام النافية)

" ها أنتم"، " لا فرنسا " ، " لا جيرانكم"

أداة تنبيه — النفي — النفي

2- التكرار النحوي: (الجراماتيكي)

ويعني الدارسون بهذا النوع من التكرار أنّه يعني إعادة تركيب الجملة بكيفية واحدة، فتبنى الجملة وشبه الجملة بنمط واحد مع اختلاف الوحدات المعجمية التي تدخل في تشكيل بنية هذه الجمل.[1]

وسنمثل لهذا النوع من التكرار من خلال الجدول الآتي:

رقم النموذج	التكرار النحوي	صوره
01	احذر من الخيانة احذر من التعصب احذر من التوحش	فعل أمر+ شبه جملة (جار ومجرور) فعل أمر+ شبه جملة (جار ومجرور) فعل أمر+ شبه جملة (جار ومجرور)
02	اليوم وقد آيسنا...يجب أن نثق اليوم وقد تجوهلت ....يجب أن نقول أن نتعرف اليوم وقد اتحد ما في ...يجب أن نتحد	ظرف + قد للتحقيق+ فعل ماضي...+ فعل مضارع // // // // // //
03	برهنوا على وطنيتهم برهنوا على ديانتهم برهنوا على حياتهم برهنوا على هذا كله	فعل أمر+ حرف جر+اسم مجرور + ضمير متصل مضاف اليه // // // // // // // // // // // //
04	لا فرنسا خدمتم لا جيرانكم رعيتم	اداة نفي + اسم + فعل + فاعل // // + // // + //

1- أحمد عفيفي : نحو النص، ص111.

نلاحظ هيمنة ظاهرة التكرار على بنية هذه النماذج والتكرار بأنواعه يدرجه " محمد خطابي" ضمن الاتساق المعجمي،[1] ويعدّ وسيلة من وسائل مقاربة النصوص لسانيا وتداوليا، كونه يسهم في ربط الأجزاء المشكلة لبينة الخطاب، فيحقّق اتّساقه وترابطه ويضفي التكرار النحوي على الكلام رونقا وجمالا من خلال ما يحدثه من جرس موسيقي عذب وإيقاع رنان له تأثيره على المتلقي.

والتكرار عموما يعده الدارسون من الأنماط المحفزة للذاكرة لأنه يعمل على تنشيطها باستمرار من خلال إعادة بعض الوحدات اللغوية المشكلة لبنية النص بهدف إبقاء التواصل مستمرا بين طرفي الخطاب، وحتى يتم الإفهام و التبليغ والتفاعل بكل يسر.

فبروز التكرار بصورة –لافتة للانتباه –في هذه النماذج هو الذي يجسد الوظيفة الانتباهية.

ومن الأدوات اللغوية الأخرى التي ساعدت على إثارة انتباه المرسل "هاء" التنبيه، كما في قوله : "**ها أنتم**". ويؤدّي التوكيد دورا أساسيا في تأمين مسار العملية التواصلية ويتمثل ذلك في قوله :" إن من جنايات الاستعمار ...أنه قلب الحقائق" فقد أفاد التوكيد تثبيت المعنى وتقويته في ذهن المرسل إليه.

وتظهر براعة ابن باديس أكثر في تلاعبه بألفاظ اللغة و التأثير على المتلقي من خلال توظيفه لحرف النفي " لا" كما في قوله " لا فرنسا خدمتم، ولا جيرانكم راعيتم" ويندرج النفي في هذا السياق التلفظي ضمن ما أسماه انسكومبر **J.canscombre** وديكر **O.Ducrot** بالنفي السجالي **négation polémique** وهو عندهما: " يأتي لينفي إثباتا سابقا ويحمل تصحيحا لهذا الإثبات" .[2]

فالغرض من النفي في هذا النموذج تصحيح ما ترسخ في ذهن المرسل إليه من معتقدات سابقة، وحمله على تقبل عكس ما كان يعتقد.

ويؤدي فعل الأمر أيضا دورا بارزا في إبقاء التواصل قائما بين طرفي الخطاب ،ونلاحظ حضور هذا الصنف من الأفعال بكثرة في هذه النماذج فقد تكرر فعل الأمر هاك "ثلاث مرات "، والفعل **احذر** "ثلاث مرات "والفعل " برهنوا خمس مرات"، والغرض التداولي من هذه الصيغ الإنشائية هو إظهار المتكلم / ابن باديس للمخاطب مدى حرصه على تحقيق مصلحته وانشغاله الكبير بكل ما يتعلق بتفاصيل حياته .

1- محمد خطابي :لسانيات النص،24.

2- ينظر عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات الاختلاف، الجزائر ،ط1، 2013،ص223

فقد جسّد ابن باديس في هذه السياقات دور المصلح والمرشد والمربي وعلاقته بالمرسل إليه تتحكم فيها روابط الدين والدم واللغة ،وكل هذه العوامل كانت من دوافع انشغال المتكلم بالمخاطب ،والحرص على تحقيق مصالحه .

وما تجدر الإشارة إليه أن اللغة العربية عموما و المضامين الإصلاحية لابن باديس على وجه الخصوص تتوفر على أدوات لغوية كثيرة ومتنوعة تتعلق بالوظيفة الانتباهية، حيث تحرص هذه الأدوات على إبقاء التواصل مستمرا في أحسن الظروف التبليغية.

5- وظيفة ما وراء اللغة: Fonction métalinguistique

وتحيل بصورة مباشرة للمرسلات "التي تتمحور على اللغة نفسها، فتتناول بالوصف اللغة ذاتها ، وتشمل هذه الوظيفة تسمية عناصر البنية اللغوية وتعريف المفرادات".[1]

يفهم من هذا التحديد أن وظيفة ما وراء اللغة تتأسس على أن شركاء الخطاب ينطلقون في محاوراتهم من نظام لغوي مشترك، وهذا النظام المتفق عليه هو الذي يؤمن فعل التواصل ويسهم في إنجاح الرسالة اللغوية ويحقق التواصل التفاعلي بين طرفي التخاطب .

وتظهر هذه الوظيفة في النماذج الآتية:

- النموذج الأول:

" يا جناب الوزير إلى اليوم وفي هذه الظروف ما يزال التضييق متواليا ومتزايدا على التعليم الإسلامي.

فالمساجد محجرة ، وكثير من المدارس معطلة ، وكثير من الكتاتيب القرآنية مغلقة، وكثير من المعلمين متابعون في المحاكم، ومئات الآلاف من أبنائنا مشردون في الشوارع"[2].

تتولى اللغة في هذا السياق التلفظي مهمة شرح نفسها بنفسها و يتجلى ذلك من خلال شرحها للتضييقات الممارسة على التعليم الإسلامي والمخطط الآتي يكشف ذلك:

1- ميشال زكريا : مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة،ص173.

2- عبد الحميد بن باديس، المصدر نفسه،مج6،ص228.

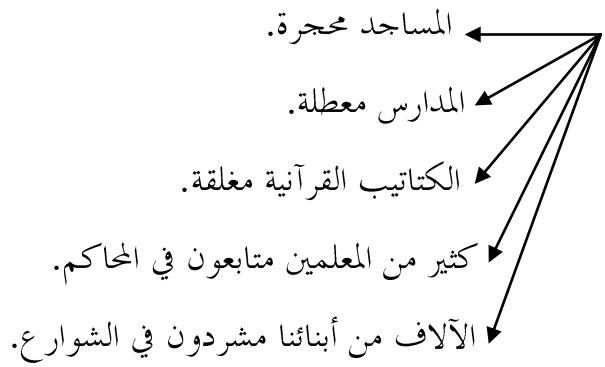

– النموذج الثاني:

" فهل روعي شيء من هذا في علمائنا الأبرار، وكلهم من ذوي السلوك الحسن ، والسيرة النقية ، والماضي الزاهر المشرق في قومهم، وفي سجلات حياتهم القانونية؟ كلا؟ ثم كلا؟".[1]

تقوم اللغة في هذا النموذج بوصف أخلاق العلماء وتعداد محاسنهم ويتضح ذلك كما يلي:

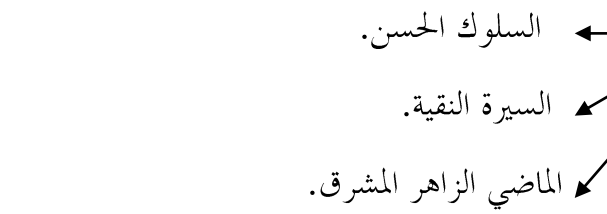

– النموذج الثالث:

" إن من جنايات الاستعمار الأوروبي على البشرية أنه قلب حقائق التاريخ على الناس فقد صور الأمم التي ابتليت به و أصيبت بشره بصور من الهمجية والوحشية والانحطاط لا أبشع منها ليبرر استيلاءه عليها...".[2]

يأتي شرح وتفصيل "صور الأمم" التي ابتليت بشر الاستعمار كما يلي:

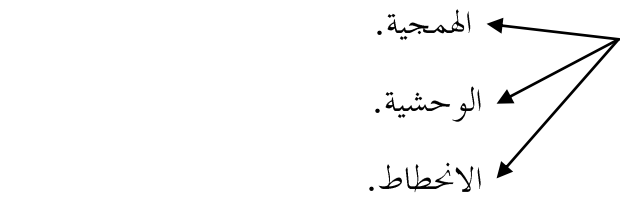

1 - المصدر السابق، مج6، ص312.

2- المصدر نفسه، مج4، ص29.

– النموذج الرابع:

" وإذا كان المؤمن عاملا في طاعة الله تعالى أيام صحته وفراغه، ثم مرض فإن له أجرين أجرا على ما كان يعمل في صحته بدليل ما تقدم، وأجرا على مرضه..." .[1]

يأتي شرح وتفصيل ما يحصله المؤمن من أجر عند مرضه كالآتي:

إن المؤمن له أجرين ← أجرا على ما كان يعمل في صحته

و أجرا على مرضه

نلاحظ أن وظيفة ما وراء اللغة حققت ربطا للأجزاء المشكلة لبنية هذه النماذج المختارة ، باعتبار أن الخطاب الإصلاحي لابن باديس عموما عبارة عن ستار جاهز يختفي وراءه المعنى، وبمفهوم بارتBarth يمكن أن نعده نسيج عنكبوت[2] لبراعة نسجه وتماسك أجزائه، بحيث يتعلق كل عنصر بالعنصر الذي يسبقه أو يليه ، ومن هنا تبرز خاصية أساسية وجوهرية لهذه الخطابات وهي أن اللغة تقوم بوظيفة تفسير ما غمض من مفرداتها وشرح المجمل فيها، فهي تؤدي دور القاموس أو المعجم.

و تهدف هذه الوظيفة إلى جعل الرسالة واضحة ومفهومة لتحظى بقبول و استحسان المرسل إليه فيتحقق التفاعل والتواصل.

وإذا ما عدنا إلى تأمل بنية هذه النماذج نجد أن هناك اتفاقا وتواضعا بين ابن باديس و الطرف الموجه له الخطاب ،حيث تتوفر لديهما المعطيات المعجمية نفسها المتعلقة بالنظام اللغوي الذي ينتميان إليه، ويتجلى ذلك في العبارات الآتية:{ جنايات الاستعمار، الهمجية، الانحطاط، العلماء الأبرار، أجر المؤمن عند مرضه...}.

وتحيل هذه العبارات اللغوية على مرجعيات مختلفة: دينية، اجتماعية، وسياسية.

وتؤكد هذه المرجعيات على أن هناك خلفية معرفية مشتركة بين أطراف العملية التخاطبية، وهذه الخلفية توحي بأن شركاء الخطاب قد انطلاقا من الوضع اللغوي نفسه ،وهذا ما يؤمن نجاح المرسلة

---

1 - المصدر السابق ، مج2،ص157.

2- رولان بارت: لذة النص، ترجمة فؤاد الصفا، وحسين سبحان ، دار توبقال المغرب، ط1 ، 1988،ص63.

اللغوية، و يضمن التواصل الفعال بين طرفي الخطاب، ومن هنا تبرز القيمة القصدية للخطاب الإصلاحي، وما ينطوي عليه من أبعاد تداولية.

6- الوظيفة الشعرية: fonction Poétique

تتجلّى هذه الوظيفة في المرسلات" التي تتمحور على المرسلة نفسها كعنصر قائم بذاته ، ولا تنحصر هذه الوظيفة في الشعر بل تتعداه لتشمل المرسلات الكلامية ككل".[1]

إن ما يميّز هذه الوظيفة عن باقي الوظائف الأخرى أنّها تعنى بالرسالة ذاتها من خلال إبراز خصائصها الجمالية والفنية ،وتتجلى هذه الوظيفة أكثر من خلال الحضور المكثف للصور البيانية من استعارة وكناية وتشبيه ومحسنات بديعية كالطباق والجناس والسجع.

وتظهر في الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس من خلال النماذج الآتية:

- النموذج الأول:

" الذين يغفلون أو يتغافلون...حتى يتلاعب بالأموال وهم ينظرون إن عجزوا (على زعمهم) عن التعبير، هل يعجزون عن النكير؟ كلا وخالق الدنانير...".[2]

- النموذج الثاني:

" فقد العبسي المشهور منذ شهور ، وتساءل عنه الكتاب ولم يظفروا بعد البحث عنه بجواب، فتحققت وفاته، وماتت معه خطراته، ولما كانت خطراته توافق خطتنا في الغالب، رأينا أن نحي ذكره في هذا " الشهاب الثاقب".[3]

- النموذج الثالث:

" .....لكن لا يمكن لحقيقة أن تبقى مستورة بالأباطيل فهي كالشمس لا بد أن تظهر...".[4]

---

1 - ميشال زكريا: مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة،ص 173.

2 - عبد الحميد بن باديس، المصدر السابق ، مج 5، ص10.

3 - المصدر نفسه، مج5، ص ن.

4 - المصدر نفسه، مج 4، ص46.

– النموذج الرابع:

" ....فقدموا الدكتور جلول فألقى خطابا جامعا صور فيه الواقعة تصويرا فوتوغرافيا نظن أنه أبلغ و أصدق ما سمعه..."[1].

– النموذج الخامس:

"...فكانوا من أول أمرهم رجال فكر ، وعقيدة ، وعمل ديني قانوني صريح....يشابههم الآباء البيض هنالك ببلدية ورقلة..." .[2]

– النموذج السادس:

"...وإذا كان من تقديم إخواننا للمحاكمة رفع ما للظلم عنا ، فإن فيه محوا ما لكلفة شوهت وجه عيد الحرية: فإلى المحاكمة إن كنتم تريدون نصرة العدل، وجمال الحرية."[3].

– النموذج السابع:

" لقد أحدثت الكلمة الصريحة التي نشرناها بالعدد الأسبق من الشهاب أثرها المطلوب وكان لها الدوي العظيم الذي ننتوقعه...إنكم ...لا تمثلونا ولا تتكلمون باسمنا ...و إنكم في واد والأمة في واد آخر".[4]

– النموذج الثامن:

" ...أثبتت الجمعية في تاريخ الإسلام وجودها، وسجلت في صحيفة الخلود رسمها، ونقشت في قلوب أبناء المستقبل اسمها، وبرزت في ذلك كله أسماء أولئك المسجونين...نجوما متألقة تأخذ الأبصار."[5]

وسنشرع في تحليل الصور البيانية التي تضمنتها هذه النماذج وسنبدأ بـــ:

1-- المصدر السابق، مج 4، ص46

2- المصدر نفسه، مج6، ص312.

3- المصدر نفسه ، مج 6، ص 310.

4- المصدر نفسه ، مج3، 289.

1-الاستعارة:

وظف ابن باديس هذه الآلية البلاغية كوسيلة للتأثير على المتلقي، فالهدف منها هو التبليغ والإخبار، وليس الوقوف عند حد تزيين الكلام وزخرفته وهذا ما أقره جورج لايكوف **Gorges lakoff** ومارك جونسون **Mark jonson** بقولهما: " تمثل الاستعارة بالنسبة لعدد كبير من الناس أمرا مرتبطا بالخيال الشعري، والزخرف البلاغي، إنها تتعلق بالاستعمالات اللغوية غير العادية، وليس بالاستعمالات العادية....وعلى العكس من ذلك، فقد انتبهنا إلى أن الاستعارة حاضرة في كل حالات حياتنا اليومية..."[1].

وإذا كانت الاستعارة تحضر في كل أنواع الخطابات العادية و غير العادية فقد عدّها اللسانيون من الآليات البلاغية التي تندرج ضمن مباحث نظرية الحجاج.

2- **التشبيه** : ويعد من الصور البيانية ، وظفه ابن باديس ليقوي به حجته ويدعمها ويستحضر (ابن باديس) من هذه الصور ما يتناسب ومقام التخاطب.

3- المحسنات البديعية:

يؤكّد اللسانيون على أن المحسنات البديعية على تنوعها ليست مجرد زخارف لفظية يؤتى بها لتنميق الكلام وتحسينه، وإنّما تعد هذه الآلية البلاغية وسيلة من وسائل الترابط النصي المعاصر حسب ما أكده الكثير من علماء النص.

فبالإضافة إلى أنّها تحقق ربطا لأجزاء الخطاب ربطا خطيا أفقيا فهي آلية من آليات الحجاج تهدف إلى استمالة الآخرين وإقناعهم، وهذا ما يساعد على إنجاح الفعل التواصلي.

و إذا ما عدنا إلى بنية الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس نلاحظ أنّه لم يبالغ في استعمال المحسنات البديعية، وما ورد منها كان ضمن سياقات محدّدة ودون تكلف منه، أو عناء لأن هدفه هو التركيز على " تبليغ الفكرة" وفكرته الأساسية تتمحور حول الإصلاح عموما سواء أكان دينيا أو اجتماعيا أو سياسيا، وقد اتّخذ البديع وسيلة لإيصال أفكاره وتبليغها وسنوضّح مختلف الصور البيانية والمحسنات البديعية التي أوردها ابن باديس في بعض خطاباته في الجدول الآتي:

---

[1] - جورج لايكوف ومارك جونسون: الاستعارات التي نحيا بها ، تر عبد المجيد جحفة، دار توبقال، ادار البيضاء ، ط2، 2009، ص21.

رقم النموذج	الصورة البيانية	نوعها	البديع	نوعه
01	/	/	"التغيير....النكير..الدنانير.."	سجع
02	ماتت معه خطراته	استعارة	" الكتاب ....جواب" " وفاته....خطراته" " الغالب....الثاقب"	سجع
03	الحقيقة كالشمس يجب أن تظهر	تشبيه	/	/
04	صور فيه الواقعة تصويرا فوتوغرافيا	استعارة	/	/
05	" فكانوا...رجال فكر يشابههم الآباء البيض..."	تشبيه	/	/
06	-شوهت وجه عيد الحرية	استعارة	/	/
07	- الكلمة الصريحة كان لها الدوي العظيم إنكم في واد و الأمة في واد	مجاز مرسل(علاقة الجزء بالكل) استعارة كناية عن عدم الاتفاق	و إنكم في واد و الأمة في واد	سجع
08	- سجلت في صحيفة الخلود	كناية	وجودها ...رسمها...اسمها	سجع

	رسمها – نقشت في قلوب أبنائنا اسمها " – أسماء أولئك المسجونين...نجوما متألقة" –"...تأخذ الأبصار"	استعارة استعارة كناية		

تعبر الاستعارات والكنايات ومختلف الصور البلاغية الأخرى عن مدى كفاءة ابن باديس اللغوية، وقدرته التواصلية، فقد أضفت هذه الصور على المضامين الإصلاحية حسنا وجمالا ورونقا، وما يلاحظ أن المتكلم أوردها بعفوية ودون تكلف منه أو مبالغة في ذلك.

كما سعى لتوظيفها في سياقات محدّدة لتحقيق أهداف تبليغية تتمثل تحديدا في تقوية المعنى وتأكيده، وممارسة السلطة على المتلقي فكريا وعاطفيا، وعليه فإن لهذه الصور دورا إيجابيا وفعّالا على مسار العملية التخاطبية.

وفي المقابل نلاحظ أن ابن باديس لم يكثر من توظيف مثل هذه الأساليب في مضامينه، رغم تشبعه بالموروث الثقافي العربي الأصيل، لأن المقام هو مقام تبليغ وإرشاد وتوجيه، لذا كان يعتمد أكثر على الإستراتيجية التوجيهية فيما يكتبه أو يتلفظ به، فكانت لغته أقرب إلى لغة التخاطب اليومي أو اللغة العادية ، وهذه اللغة تتسم بالوضوح والشفافية لإصابة المعنى من أقرب المرمى.

وما ذهب إليه ابن باديس يتقاطع مع التوجهات اللسانية الحديثة حيث نجد **فيثجنشتاين وأوستين** وتلميذه **سورل** يؤكدون في أعمالهم على دراسة اللغة العادية كما يتواصل بها الأفراد يوميا داخل مجتمعاتهم.

خلاصة :

من خلال هذا المستوى من التحليل وبالنظر إلى المضامين الإصلاحية لابن باديس التي اخترنا نمـــاذج منها فقط كعينات للدراسة توصلنا إلى ما يلي:

1- أفضى البحث عن عناصر السياق ووظائف الخطاب عند ابن باديس الكشف عن طبيعة العلاقة التي تربط منتج/ المرسل هذه النصوص / بمتلقيها من حيث هي علاقة رسمية أو غير رسمية ، كما كشـــفت عن تعدد الجهات الموجّه إليها الخطاب ، فالمرسل واحد "ابن باديس" ولكن المرسل إليه متعدد (الشعب الجزائري –المسلم الجزائري- رجال القضاء الإسلامي- رجال التربية- النواب- الـــولاة- المســـتعمر الفرنسي..."، وهذه العلاقات المتعددة تدل على مدى تفاعل ابن باديس مع العالم الخارجي المحيط به .

2- كشفت عناصر السياق ووظائف الخطاب عن نوع اللغة المستخدمة أثناء التخاطب، مما يدل علـــى التزام ابن باديس بضوابط تهذيبية عند مخاطبة الآخرين (وهذا ما كشفنا عنه بالتفصيل في معرض حديثنا عن الإشاريات الاجتماعية انظر الفصل الثاني).

3- نلاحظ هيمنة الوظيفة الندائية المتعلقة بـــ (المرسل إليه)، فقد شكل هذا الطرف بؤرة مركزيـــة في المضامين الإصلاحية، لأن الإصلاح الذي ينشده ابن باديس يقوم أساسا على إصلاح الفرد الذي يعد أساس كل إصلاح .

4- نلاحظ تعدد المرجعيات في الخطاب الإصلاحي من (دينية، اجتماعية، سياسية) ولكن تظل المرجعية الدينية هي المهيمنة لأن ابن باديس كان منطلقه منطلقا دينيا، ولكن في المقابل نجده لا يفصل بين الدين والسياسة والدين والمجتمع فكانت نظرته للإصلاح نظرة شاملة وكلية .

5- لم تهيمن الوظيفة الشعرية على الخطاب الإصلاحي لأن المقام مقام تبليغ وإرشاد وإصلاح لذا كان اهتمامه منصبّا على إيصال الفكرة وليس على الصنعة اللفظية.

6- ورغم الحضور المتفاوت للوظائف الخطابية في هذه المدونة إلاّ أنّها تضافرت فيما بينها لتكشف عن هوية المرسل، والمرسل إليه، ومختلف المرجعيات التي تتضمنها هذه المدونة، كما كشفت عن رؤى المتكلم وتوجهاته ومقاصده وهذه الصفات مجتمعة تجعل من الخطاب الإصلاحي خطابا تداوليا بامتياز.

خاتمة

خاتمـــة :

أحمد الله عز وجل وأشكره على سابغ نعمه بأن أعانني ووفقني لإتمام هذا البحث، وأرجو أن يسهم ولو بالترر القليل في إفادة الطلبة، وإثراء المكتبة الجزائرية بمثل هذا النوع من الدراسات وبعد:

قادتني هذه الدراسة بشقيها النظري والتطبيقي إلى الإجابة عن مجموعة من الإشكالات التي سبق وأن طرحتها في مقدمة هذا البحث، حيث توصلت إلى النتائج الآتية:

1- يمتلك كل حقل معرفي منظومة اصطلاحية خاصة به، ومن ثمة فإنه لا سبيل للولوج إلى أي علم من العلوم إلا بعد ضبط مصطلحاته، وتحديد مدلولات هذه المصطلحات، ونلاحظ أن هذه المقاربة قد تضمنت حزمة من المصطلحات يمكن أن نعدها بمثابة الكلمات المفاتيح les mots clés لهذه الدراسة وتتمثل في:

الخطاب –الخطاب الإصلاحي- التداولية – الإشاريات – الأفعال الكلامية – السياق – وظائف الخطاب.

2- لم يكن الخطاب أسعد حظا من الجملة والنص، إذ اختلفت تعريفات الدارسين له نظرا لاختلاف مشاربهم الثقافية ومنطلقاتهم الفكرية، وبالرغم من هذا التباين الواضح فإن الخطاب ظل محافظا على بعض الخصائص الجوهرية المميزة له والمتمثلة في الخاصية اللسانية والمنطقية والتداولية .

3- تعد التداولية علما متناميا ومجالا رجراجا شديد الانفتاح –على حد تعبير **جورج كليبار**- وهذا ما أدى إلى صعوبة حصر مفاهيمها وتصوراتها، فهي علم فسيح ومتشعب جدا نظرا لتداخلها مع تخصصات معرفية مختلفة كما أكد ذلك **فيليب بلانشيه**.

4- تهدف التداولية إلى تحسين العملية التواصلية وتقويتها وتطويرها لأنّه دون الوظيفة التواصلية لا يكون الخطاب خطابا.

5- ترمي التداولية إلى إيجاد حلول لكثير من المشكلات اللغوية التي عجزت اللسانيات البنيوية عن إيجاد تفسير مقبول لها مثل "ألفاظ التحية"، وتفسير بعض الأخطاء التداولية، كما أولت عناية للظاهرة الكلامية التي استبعدت تماما من مجال الدراسة اللسانية السابقة، واهتمت أيضا بمقاصد المتكلمين وبالمعاني السياقية وغيرها... .

6- يؤكد الاتجّاه السائد لعلم اللغة أن السياق هو الذي يحدد نوع الخطاب كما ذهب إلى ذلك **دومينيك مانقانو**، وهذا التصور لا يختلف كثيرا عن تصورات الباحثين العرب، فقد قسم محمد الحداد الخطاب العربي الحديث إلى خطاب أصولي وخطاب تحديثي وخطاب علماني وخطاب إصلاحي، وكل نوع من هذه الأنواع يندرج ضمن معطيات سياقية محدّدة .

7- إن الأوضاع الاستعمارية التي كانت سائدة في عالمنا العربي هي التي استدعت التفكير في إستراتيجية إصلاح جدية ومفروضة.

8- ينبني مشروع ابن باديس على فكرة جوهرية وهي الإصلاح ويذهب الدارسون إلى أن المسعى الإصلاحي لهذا الرجل يصدر عن نظرة متكاملة، فقد حاول أن يجمع بين الفكر والعمل، وبين النظر والتطبيق، مستندا إلى رؤية قرآنية في التعامل مع واقع مجتمعه وهذا ما يميّز مشروعه عن باقي مشاريع الإصلاح الأخرى في العالم العربي.

9- كان دور الحركة الباديسية فعالا في سياسة الإصلاح الوطنية حيث شمل الإصلاح عند ابن باديس جميع مناحي الحياة من دينية واجتماعية وسياسية، كما استطاع أن يغرس في الناشئة حب الوطن، والتمسك بالدين والسعي الدائم للتغيير، وهذا ما يجعل المسعى الإصلاحي لهذا الرجل ينسجم و تصورات **مالك بن نبي** حيث يذهب هذا الأخير إلى أن التغيير الحقيقي والجوهري يبدأ من الداخل أي بتغيير ما في النفس وهذه الرؤية مستمدة أساسا من القرآن الكريم.

10- يتقاطع المشروع الإصلاحي الباديسي مع مشروع **هابرماس** الذي يرى أن اللغة هي حوار مثمر في عقول المتخاطبين، ولذلك نجد ابن باديس يحرص دائما على فهم ما تضمره نفوس البشر –على حد تعبير **فيتجنشتاين**–، وهذا ما حذا به إلى اعتماد استراتيجيات خطابية مختلفة أثناء توجيه خطابه بحيث تتناسب ومقام التخاطب وأهداف الخطاب.

11- استخدم ابن باديس اللغة كوسيلة لتغيير الواقع والتأثير فيه، فقد اتّخذ من هذا النسيج اللغوي ستارا جاهزا يتخفّى وراءه من أجل تمرير مشروعه الإصلاحي.

12- تكتنز لغة الخطاب الإصلاحي الباديسي بشحنات تعبيرية، وطاقات فكرية ووجدانية هائلة، تكشف عن ثراء هذا النوع من الخطابات وتميزه مما يجعله حقلا خصبا للدراسة التداولية.

13- أبانت الدراسة في شقها التطبيقي أن التحليل التداولي للخطاب الإصلاحي يقتضي الإحاطة بكل ما يتعلق بالعملية التخاطبية من متكلم، ومخاطب، ومرسلة لغوية، ونوع اللغة المستخدمة، وطبيعة العلاقة التي تربط شركاء الخطاب أثناء عملية التلفظ، والسياق الذي أنتج فيه الكلام، والنظر في كل هذه العناصر يساعد على فك شفرات الخطاب الإصلاحي وفهمه فهما صحيحا.

14- تمثل الإشاريات جانبا مهما من جوانب البحث التداولي، وقد قدمت هذه الروابط الإحالية للقارئ يد المساعدة لفهم وتأويل الرموز اللغوية للخطاب الإصلاحي، كما ساعدت على استجلاء مقاصد المتكلم/الكاتب والكشف عن مراميه وخطته الإصلاحية.

15- أسهمت الإشاريات بشكل واضح في تحقيق انسجام بنية المضامين الإصلاحية وترابطها، بما وفرته من عناصر إشارية وإحالات مكانية وزمانية واجتماعية، حتى يمكن عد خطابات ابن باديس علامة في سياق الزمن.

16- تشكّل نظرية أفعال الكلام النواة الأساسية للدراسة التداولية، حتى أن من الدارسين من يرى أن التداولية مرادفة لنظرية أفعال الكلام.

17- سجلتُ حضورَ مختلف أصناف الأفعال الكلامية في المضامين الإصلاحية، وإن كان ذلك بنسب متفاوتة.

18- سيطرت التوجيهيات على بنية الخطاب الإصلاحي بشكل لافت للانتباه، وقد تضمّنت قوّتها الإنجازية غرض النصح والإرشاد، وهذا الغرض يمثل محورا جوهريا في فلسفة ابن باديس التربوية، وبذلك تتحول هذه المضامين إلى فعل مركزي واحد هو "التوجيه"؛ أي توجيه الأفراد الوجهة الحضارية المطلوبة ليغيروا واقعهم، ويسيروا قدما نحو غد أفضل.

19- كشفت عناصر السياق ووظائف الخطاب أن المرسل واحد والمرسل إليه متعدد بتعدد السياقات التي أنتج فيها الخطاب والهدف منه، وهذا ما ينم على مدى تفاعل ابن باديس مع واقع بيئته، كما سجلتُ هيمنة الوظيفة الندائية المتعلقة بالمرسل إليه فقد شكل محور التلفظ، وهذا ما ينسجم والمسعى الإصلاحي لابن باديس الذي يبدأ بتغيير الأفراد أولا ثم المجتمع ثانيا.

20- تضافرت الإشاريات والأفعال الكلامية ووظائف الخطاب لتؤكّد جميعها على مدى ترابط المضامين الإصلاحية لابن باديس وانسجامها، حتى أنّه يمكن عدّها نصّا واحدا لا نصوص متفرقة لاشتراكها في هدف واحد يتمثل في ضرورة التصدي للمستعمر، وإيقاظ الأمة من سباتها العميق لتحمل شعلة الإصلاح والتغيير من أجل تحقيق نهضة شاملة.

ولا يسعني في ختام هذه الدراسة المتواضعة إلا أن أقدم بعض المقترحات علّها تفيد الطلبة في هذا التخصص.

ما يزال تراث هذا العلاّمة يحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب، كما أنّ هناك جوانب كثيرة من حياته ما زالت خفية لم تر النور بعد، وعلى هذا الأساس يجب تحفيز الطلبة والباحثين على ضرورة إيلاء فكر ابن باديس ومسيرته النضالية أهمية بالغة، و التنويه بجهوده الإصلاحية للتعريف أكثر بهذه الشخصية، ولتكوين جيل متعطش للفكر الإصلاحي وعاشق للتحرر، جيل يطمح دائما للتغيير و التقدم، فما أحوجنا في هذا العصر لفكر هذا الرجل من أجل إعادة تقييم أوضاعنا وإيجاد مخرج لمآزقنا.

كما نؤكّد على ضرورة الاهتمام بكل رواد الإصلاح في الجزائر ومن بين هؤلاء **صالح بن مهنا، وعبد القادر المجاوي، والمولود بن الموهوب، وحمدان لونيسي، ومحمد بن أبي شنب، ومالك بن نبي،** فجهود هؤلاء الرواد وغيرهم مازالت تعاني إلى حد الآن التهميش والإقصاء، ونحن نطمح أن تدرج جميعها في منظومتنا التربوية عسى أن تنتفع بها الأجيال مستقبلا؛ والله من وراء القصد وعليه نتوكل وإليه المصير .

قائمة المصادر

والمراجع

القرآن الكريم: برواية حفص عن عاصم (مصحف مجمع الملك فهد الأخضر العادي، سنة النشر، 1437 -2016

المصـــــادر:

1) **ابن باديس عبد الحميد:** حياته وآثاره، جمع وتقديم عمار طالبي، دار كردادة للنشر والتوزيع ، طبعة خاصة ،2013، مج1، مج2، مج3، مج5.

2)**ابن باديس عبد الحميد:** آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط1، 1994، ج6.

3) **ابن باديس عبد الحميد:**آثار عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1، 1984، ج3.

4)**عبد الحميد بن باديس:** مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع وتصنيف ومراجعة وتقديم محمد الصالح رمضان وتوفيق محمد شاهين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت.

المراجع العربيـــة:

1) **إبراهيم عبد الله:** الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات المعرفة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1999.

2) **أجعيط نور الدين:** تداوليات الخطاب السياسي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012.

3) **آيت أوشان علي:** السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة ،دار الثقافة ، الدار البيضاء،ط1، 2000.

4)**أحمد موسى داليا** : الإحالة في شعر أدونيس، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2010

5) **البحيري سعيد حسن:** علم لغة النص الاتجاهات والمفاهيم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، مصر، ط1، 1997.

6) **البحيري سعيد حسن:** دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 2005.

7) **بدوح حسن**: المحاورة مقاربة تداولية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012.

8) **بلخير عمر**: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.

9) **بوحوش رابح**: الأسلوبيات وتحليل الخطاب، مديرية النشر جامعة باجي مختار عنابة، دط، دت.

10) **بوصفصاف عبد الكريم**: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2009.

11) **بوطاجين السعيد**: الترجمة والمصطلح دراسة في إشكالية ترجمة المصطلح النقدي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط، 2009.

12) **بوقرة نعمان**: المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، دط، 2004.

13) **بوقرة نعمان**: لسانيات الخطاب، مباحث في التأسيس والإجراء، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2012.

14) **تمام حسان**: اجتهادات لغوية، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2007.

15) **تمام حسان**: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2001.

16) **الجاحظ**: البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، دط، دت، ج1.

17) **الحباشة صابر محمود**: الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقزوييني، دار المتوسطية للنشر، تونس، ط1، 2010.

18) **الحباشة صابر محمود**: الأسلوبية والتداولية، مداخل لتحليل الخطاب، عالم الكتب الحديث، ط1، 2010.

19) **الحداد محمد**: حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي، دار الطليعة، بيروت، ط1، فبراير 2002.

20) **حساني أحمد**: المصطلح في الثقافة اللسانية العربية المعاصرة، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية، جامعة باجي مختار، عنابة، 2006.

21) **حمودة حنان محمد موسى**: الزمكانية وبنية الشعر المعاصر عبد المعطي حجازي نموذجا، عالم الكتب، الأردن، ط1، 2006.

22) **الحميري عبد الواسع**: الخطاب والنص (المفهوم، العلاقة، السلطة)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2008.

23) **خليل ابراهيم محمود**: في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن، ط2، 2009.

24) **دحمون كاهنة**: الجملة الاعتراضية بنيتها ودلالتها في الخطاب الأدبي دراسة في ضوء النظرية التداولية، دار الأمل، دط، 2012.

25) **دلاش الجبلالي**: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، دط، دت.

26) **الدهري أمينة**: الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1،2011.

27) **أبو رمان محمد**: الإصلاح السياسي في الفكر الإسلامي، المقاربات، الأولويات، الاستراتيجيات، الشبكة العربية للأبحاث الدراسات، بيروت، ط1، 2010.

28)**عبد الرحمن طه**: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، دت.

29) **عبد الرحمن طه**: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2000.

30) **عبد الرحمن طه** : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، دط، دت.

31)

32) **الزركشي بدر الدين**: البحر المحيط في أصول الفقه، قام بتحريره عبد القادر عبد الله العاني وراجعه عمر سليمان الأشقر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، ط2، 1992، ج1.

33) **الزناد الأزهر**: نسيج النص (ما يكون به الملفوظ نصا)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993.

34) **سالم محمد بهى الدين**: ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، دار الشروق القاهرة، ط1، 1999.

35) **السيوطي جلال الدين**: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، مج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط2، ،2006.

36) **شحيد جمال وقصاب وليد**:خطاب الحداثة في الأدب الأصول والمرجعية، دار الفكر، دمشق، ط1، 2005.

37) **شرشار عبد القادر**: تحليل الخطاب السردي وقضايا النص، دار القدس العربي، للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009.

38) **الشريف محمد صلاح الدين**: أهم المدارس اللسانية، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط2، 1990.

39) **الشهري عبد الهادي بن ظافر**: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا،ط1، 2004.

40) **الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم**: الروض الداني إلى المعجم الصغير، تحقيق أبو محمود محمود شكور محمود الحاج أمرير الميداني، دار عمار، عمان، ط1، 1985.

41) **طلبة محمد سالم الأمين**: الحجاج في البلاغة الأريسطية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط1، 2008.

42) **طلحة محمود**: تداولية الخطاب السردي، دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط1، 2012.

43) **عادل عبد اللطيف**: بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.

44) **عباس حسن**: النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة، دار المعارف، بمصر، ط3،دت،ج1.

45) **العزاوي أبو بكر**: اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، دط،2009.

46) **العسكري أبو الهلال**: الصناعتين الكتابة والشعر، علق حواشيه وضبط نصه مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1989.

47) **عشير عبد السلام**: عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق،المغرب، دط،2006.

48) **عفيفي أحمد**: نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2001.

49) **العياشي أدراوي** : الاستلزام الحواري في التداول اللساني، من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، منشورات الاختلاف ودار الأمان، 2011.

50) **عكاشة محمود**: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب، القاهرة ،مصر،ط1، 2013.

51) **العمري محمد**: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2002.

52) **العمري محمد**: دائرة الحوار ومزالق العنف (كشف أساليب الإعنات والمغالطة مساهمة في تخليق الخطاب)، إفريقيا الشرق، ط1، 2002.

53) **عمارة ناصر**: الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي – منشورات الاختلاف ، الجزائر، ط1، 2009.

54)**فرج حسام أحمد**: نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب القاهرة/مصر، ط1، 2007.

55) **فضيل عبد القادر ورمضان محمد الصالح** : إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط،2012.

56) **فيلالي عبد العزيز**: وثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2012.

57) **عبد القادر عبد الجليل**: علم اللسانيات الحديثة، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2002.

58) **ابن كثير عماد الدين أبو فداء إسماعيل بن عمر**: النهاية في الفتن والملاحم، دار الجيل بيروت، لبنان، ط1، 1988،ج1.

59) **أبو المجد عبد الجليل وحرث عبد الغالي**: تجديد الخطاب الإسلامي وتحديات الحداثة، افريقيا، المغرب، دط، 2011 .

60) **محافظة علي**: شروط النهضة العربية ضمن كتاب حوارات في الفكر العربي المعاصر: المشروع الحضاري العربي بين التراث والحداثة مراجعة وتقديم فهمي جدعان تحرير غسان اسماعيل عبد الخالق مؤسسة عبد الحميد شومان، الأردن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1، 2002.

61) **مرتاض عبد الجليل**:لسانيات النص والتبليغ، منشورات دار الأديب، دط، دت.

62) **ابن مزوز عمار**:عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة والإصلاح،دار الأمل للنشر والطباعة و التوزيع، المدينة الجديدة تيزي وزو، الجزائر، دط.

63) **مصدق حسن**: يورغن هابرهاس ومدرسة فرانكفورت النظرية النقدية التواصلية، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005.

64) **مقبول إدريس**: الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، دط، 2011.

65) **ميشال زكريا**: مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984.

66)**ابن نبي مالك**: مجالس دمشق، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013.

67) **النجار نادية رمضان**: الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي مؤسسة حورس الدولية، الإسكنـــدرية ، مصر، ط1، 2013.

68) **نطيف محمد**: الحوار وخصائص التفاعل التواصلي –دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية- إفريقيا الشرق،دط، 2010.

69) **يقطين سعيد**: آفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق سوريا، ط1، 2003.

المراجع المعرّبة:

1) **أوليفي روبول**: لغة التربية تحليل الخطاب البيداغوجي، ترجمة عمر أوكان، افريقيا الشرق، المغرب، دط،2002.

2) **جان مارك فيري**: فلسفة التواصل ، ترجمة عمر مهيبل، منشورات الاختلاف، الجزائر، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2006.

3) **جان سيرفوني**: الملفوظية،ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 1998.

4) **جان ميشال غوفار**: تحليل الشعر، ترجمة محمد حمود، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2008.

5) **جورج لايكوف ومارك جونسون**: الاستعارات التي نحيا بها، تر عبد المجيد جحفة، دار توبقال، الدار البيضاء، ط2، 2009.

6) **جورج يول**: التداولية، ترجمة قصي العتابي، دار الأمان الرباط،المغرب، ط1، 2010.

7) **جوناثان كالر**: النظرية الأدبية، ترجمة رشاد عبد القادر، دط،1997.

8) **جون سيرل**: العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، والمركز الثقافي العربي، الجزائر، المغرب، ط1،2006.

9) **جون لا نجشو أوستين**: نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة، عبد القادر قنيني افريقيا الشرق، ط2، 2008.

10) **دومنيك مانقانو**: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005.

11) **ديان مكدونيل**: مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة وتقديم عز الدين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2001.

12) **رولان بارث**: لذة النص، ترجمة فؤاد الصفا، وحسين سبحان، دار توبقال المغرب، ط1، 1988.

13) **زتيتيسلاف واوزنياك**: مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن البحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2003.

14) **سغريد هونكه**: تحجر الحضارة الإسلامية وانبعاثها من جديد النظريات العلمية أمام محكمة الواقع، ضمن كتاب الأصالة، محاضرات الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي، وزارة الشؤون الدينية، ج4، 1979.

15) **فان دايك**:النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي) ترجمة عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق، الدار البيضاء – المغرب، دط، 2000.

16) **فان دايك** :علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسن البحيري، دار القاهرة للكتاب،مصر،ط1 ،2001.

17) **فرانسواز أرمينيكو**: المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، سوريا، دط، دت.

18) **فريدريك غرو**: ميشال فوكو، ترجمة محمد وصفه مجد،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2008.

19) **فولفجانجهاينه منه وديترفيهفيجر**: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة فالح بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، د ط، 1999.

20) **كلاوس برينكر**: التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 2، 2010.

21) **ميشال فوكو**: حفريات المعرفة، ترجمة سالم يافوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2005.

22) **ابن نبي مالك**: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، دط، 1986.

23) **ابن نبي مالك**: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط6، 2006.

المراجع الأجنبية:

24) **Andrian Akmajian et al**: Linguistics an introduction to language and communication, the mit press, combridge, Massachusetts, London, England, 2001.

25) **Dominique Maingueneau** : les Termes clés de l'analyse du discours;Editions du Seuil, Février ,paris.

26) **Ferdinand de Saussure :**Cours de linguistique generale.Editions talantikit;Béjaia;1994.

27) **G. Sicouffi, D. Raemdonck:** 100 fiches pour comprendre la linguistique, Bréal editions, 1999.

28) **J.M. Adam**: Linguistique Textuelle des genres des discours aux textes, Edition Nathan, Paris, 1999.

المعاجم العربية و الأجنبية:

29) **أحمد مختار عمر**: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008.

30) **الرويلي ميجان و البـــازغي سعد**: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005.

31) **المسدي عبد السلام**: قاموس اللسانيات عربي- فرنسي، فرنسي- عربي مع مقدمة في علم المصطلح، الدار العربية للكتاب، دط، دت.

32) **ابن فارس أحمد**: معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، دت، مج2، مادة "دول".

33) **الفيروز أبادي**: القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1999، ج1.

34) **أبو قحافة أحمد وآخرون**: معجم النفائس الكبير، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1،2007.

35) **ابن منظور**: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، د ت، مج5، (مادة خطب).

36) **Carola strong et autres**.Dictionnaire Hachette edition illustrée Paris 2009

37) **Jean Dubois et autres**: Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, la rousse, 1994.

38) **Jacques Moeschler et Anne Reboul** ,Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, Editions du Seuil, Octobre1994 .
39) **Patrick Charaudeau et Dominique Maingueneau**, Dictionnaire d'analyse du discours, éditions du Seuil, Paris, Février 2002.

المجلات و الملتقيات:

40) **إبرير بشير**: من لسانيات الجملة الى علم النص مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية التواصل، جامعة باجي مختار عنابة الجزائر، جوان 2005، العدد14.

41) **بوقرة نعمان**: المصطلح اللساني النصي، دراسة سياقية تأصيلية، أعمال ملتقى اللغة العربية والمصطلح، يومي 19-20ماي 2002، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة باجي مختار، عنابة، 2006.

42) **حنى عبد اللطيف**: التداولية الإبداعية في الشعر الثوري الجزائري، ديوان أطلس المعجزات للصالح خرفي نموذجا، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.

43) **دبه الطيب**: تحليل الخطاب وأزمة المعنى عند الأصوليين، منشورات تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، العدد 8، 2011.

44) **هرماس سعيد**: أدبيات الحركة الإصلاحية في الجزائر ضمن أشغال الملتقى الوطني للفكر الإصلاحي في الجزائر، شركة دار الهدى للنشر،2003.

45) **هيشور محمد**: الأدب في برنامج جمعية العلماء المسلمين ضمن كتاب أدب الحركة الإصلاحية مفاهيم وقضايا، دورة علال الفاسي، أعمال الملتقى الدولي الرابع للأدب الإصلاحي، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المملكة المغربية، أيام 18، 19، 20 مارس.

المواقع الالكترونية:

- الموقع الالكتروني: http://journals.iium.edu.my
- الموقع الإلكتروني: https:or.wikipedia.org
- الموقع الالكترونيwww.maref.org

فهرس

ملخــّص

تمكنت التداولية_ في الآونة الأخيرة _ من اكتساح ساحة الدراسات اللسانية بما أفرزته من نتائج قيمة، وتصورات جادة لا يمكن الاستهانة بها في هذا المجال، وهذا ما حذا بنا لاختيار بعض مبادئ هذه النظرية وسيلة لمقاربة بنية الخطاب الإصلاحي، فكان موضوع دراستنا موسوم بـــ"الخطاب الإصلاحي في فكر عبد الحميد بن باديس دراسة تداولية".

أما فيما يخص اختيارنا لرائد النهضة الحديثة في الجزائر "عبد الحميد بن باديس" ولنماذج من مضامينه الإصلاحية عينة تطبيقية للدراسة التداولية، فلأننا عثرنا في هذه النماذج على مادة خصبة وغنية جدا، أتاحت لنا فرصة دراسة الكثير من الظواهر التداولية من مثل الإشاريات بأصنافها المتعددة، والأفعال الكلامية بأقسامها المختلفة، وأنواع السياقات التي أسهمت في تشكيل بنية هذه النصوص.

وإن هذه الإمكانات اللغوية المتعددة والطاقات التعبيرية الهائلة التي تتيحها هذه المضامين الإصلاحية، هي ما يبرر اعتمادها موضوعا ملائما للمقاربة التداولية، من أجل فك شفراتها وتأويلها تأويلا مقبولا يتناسب ومقام التلفظ.

وقد اقتضى المنهج المتبع أن نقسم هذه الدراسة إلى مدخل وثلاثة فصول، تسبقهم مقدمة وتليهم خاتمة لخصنا فيها أهم النتائج المتوصل إليها.

حيث خصصنا المدخل لتحديد أهم المفاهيم التي تنبني عليها هذه الدراسة ومنها:(مفهوم الخطاب في الثقافة العربية والغربية، مفهوم الخطاب الإصلاحي، أهم الخصائص التداولية للخطاب الإصلاحي عند ابن باديس).

وناقشنا في الفصل الأول إشكالية نقل وترجمة مصطلح التداولية إلى اللغة العربية ومختلف التعريفات التي قدمت لها،كما أشرنا إلى أبرز الجهود الغربية والعربية التي تصب في هذا الميدان.

أما الفصل الثاني فعالجنا فيه مختلف الأصناف الإشارية كما حددها جورج يول وغيره من الدارسين، والمتمثلة أساسا في الإشاريات الشخصية والمكانية والزمانية والاجتماعية والخطابية، حيث تسهم جميعها في خلق الأثر الواقعي في ذهن المتلقي.

وأما الفصل الثالث فتطرقنا فيه لمعالجة ضروب الأفعال الكلامية في المضامين الإصلاحية وفق تصنيف سورل، لأن هذا الأخير هو الذي عمل على تطوير هذه النظرية بعد أستاذه أوستين، بالإضافة إلى أن الفعل الكلامي يشكل مفهوما جوهريا في صلب الحقل التداولي .

كما خصصنا الفصل الرابع والأخير لتحليل عناصر السياق ووظائف الخطاب عند رومان جاكبسون لما لهذه الوظائف من أهمية في التعرف على مقاصد المتكلم، واستجلاء المعاني الحافة لبنية هذه الخطابات، وهذا ما يصبو إليه الحقل التداولي .

Summary

Recently, linguistic studies have been successfully overrun by the valuable outcomes in the field of pragmatics a fact that incited us to choose a set of principles of pragmatic theory in order to approach the structure of reformist discourse. Hence, the present study is entitled: "The reformist discourse in IbnBadis' thinking: a pragmatic discourse"

Our choice of 'AbdelhamidIbnBadis', the leader of modern reform as well as some models of his reformist purports as a sample of this pragmatic study, helped us depicting a fertile substance and urged us to study a myriad of pragmatic phenomena such as signs and its categories, speech acts, and contexts that built up the structure of the selected texts.

The various linguistic and expressive patterns found in these reforming contents have been approved in this pragmatic approach in order to decode and interpret them suitably. The chosen methodology design allowed us to divide the work into an introduction, three chapters, and a conclusion that sums up the main results of the study.

The introduction is conceptual. Firstly, it deals with discourse in Arabic and western culture, then the concept of reformist discourse and finally the most important pragmatic traits of IbnBadis' reformist discourse.

Chapter one tackles the issue of defining and translating the concept of pragmatics into Arabic as well as the worthy western and Arabic contributions in this field. In chapter two, we treated the various categories of signs according to George Yule and other scholars such as person deixis, spatial deixis, temporal deixis, social deixis, and discursive deixis which all of them are used to create realistic impact in the recipient's mind.

Chapter three analyses the impact of speech acts according to Searle's classification. This latter developed the theory after his teacher Austin since the concept of speech act is fundamental in pragmatic field.

The last chapter is dedicated to the analysis of contextual elements and Roman Jackobon's discursive functions, their effect on the speaker's intentions, and depicting the discursive meaning as a final aim of pragmatics.

مقدّمة . . . . . .
.....[أ-ز]

المدخل: تداولية الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس تحديدات أولية ومنطلقات منهجية

أولا:الخطاب في الثقافة العربية.....3

1- الخطاب في المعاجم العربية القديمة والحديثة.....[3-6].

2- الخطاب في القرآن الكريم.....6.

3- الخطاب في الوعي البياني الأصول.....[6-8]..

ثانيا: أصول الخطاب في الدراسات الغربية.....[8-11]....

ثالثا:مفهوم الخطاب في الدرس اللساني الحديث.....[11-16]..

رابعا: الخطاب وعلاقته بالنص.....[16-17].

خامسا:أنواع الخطاب.....[17-20].

أ- مفهوم الخطاب الإصلاحي.....[20-21]

ب- بوادر الإصلاح في المشرق العربي.....[22-26]

ج- أشهر رواد الإصلاحي في المغرب العربي.....[26-27].

د- الخصائص التداولية للخطاب الإصلاحي عند ابن باديس.....[27-32].

الخلاصة .....[33-34].

الفصل الأول:

التداولية بين التأسيس الغربي والتلقي العربي

أولا– التداولية الماهية وإشكالية المصطلح.....[37-48].

ثانيا– التداولية النشأة والتطور.....48

1- نظرة موجزة في الجذور التاريخية للتداولية .....[48-51].

2-الاتجاه التداولي في الدرس اللساني الحديث.....[51-59].

ثالثا: مبادئ التحليل التداولي

1-الفعل اللغوي.....[59-65]

2-الاستلزام الحواري.....[65-67]

3-الافتراض المسبق.....[67-68].

4- الإشاريات.....[68-69]

رابعا: الإسهامات العربية القديمة في مجال الدراسة التداولية.....[69-74]

خامسا: تلقي التداولية في الثقافة العربية المعاصرة.....[74-77]

سادسا: أهداف المقاربة التداولية.....[77-79]

الخلاصة.....**[80-81]**

الفصل الثاني: أهمية الإشاريات في تشكيل بنية الخطاب الإصلاحي

أولا– أهمية الإشاريات في تحقيق انسجام الخطاب

ثانيا– أصناف الإشاريات في الخطاب الإصلاحي لدى عبد الحميد بن باديس

1- الإشاريات الشخصية.....65

أ- ضمائر المتكلم.....[85-93].

ب- ضمائر المخاطب.....[93-100]

ج- ضمائر الغائب.....[100-105]

2- الإشاريات الزمانية.....[105-107]

أ- المبهمات التزامنية.....[107-111]

ب- المبهمات القبلية.....[111-113]

ج- المبهمات البعدية.....[113-117]

3- الإشاريات المكانية.....[117-124]

أ- مدينة قسنطينة.....[124-125]

ب- الجامع الأخضر.....125

ج- نادي الترقي.....[125-126].

د- جامع الزيتونة.....[126-127]

4- إشاريات الخطاب / النص.....[127-129].

5- الإشاريات الاجتماعية.....[129-134]

الخلاصة.....

.....[135-136]

الفصل الثالث: ضروب الأفعال الكلامية في الخطاب الإصلاحي

أولا: أولا- نماذج الأفعال الكلامية في الخطاب الإصلاحي لدى ابن باديس

1- الإخباريات .....[139-142]

2- التوجيهيات .....[142-144]

3- الالتزاميات .....[144-146]

4- التعبيريات 146

5- الإعلانيات .....[146-147]

ثانيا: علاقة ترتيب الأفعال الكلامية بمضامين الخطاب الإصلاحي لدى ابن باديس

1- الإخباريات 148

2- التوجيهيات .....[148-149].

3- التعبيريات .....149.

4- الالتزاميات .....149.

5- الإعلانيات .....149.

ثالثا- تحليل الأفعال الكلامية في النماذج المختارة

1- الإخباريات .....[149-176]

2- التوجيهيات .....[176-191]

3- الالتزاميات .....[191-198]

4- التعبيريات .....[198-202]

5- الإعلانيات .....[202-205]

الخلاصة . . . . . .

.....206

الفصل الرابع: عناصر السياق ووظائف الخطاب في الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس

أولا: أهمية عناصر السياق في تشكيل بنية الخطاب الإصلاحي.....208.

1- المرسل / عبد الحميد بن باديس.....[209-217]

2-الرسالة / الخطاب الإصلاحي.....[217-221]

3-المرسل إليه / متعدد.....[221-222]

ثانيا: وظائف الخطاب . . . . . .

1-الوظيفة التعبيرية.....[224-228]

2-الوظيفةالندائية.....[228-234]

3-الوظيفةالمرجعية.....[234-245]

أ-المرجعية الدينية.....242

ب- المرجعية الاجتماعية.....242

ج-المرجعية السياسية.....243

4-الوظيفة الانتباهية.....[245-250].

5-وظيفة ما وراء اللغة.....[250-253]

6-الوظيفة الشعرية.....[253-257]

الخلاصة.....258

الخاتمة.....[259-263].

قائمة المصادر والمراجع.....[264-274]

الفهرس .....[276-279]